الشُكرُ في القُرآن

د. كاملة الأنوار رجاب

دار الآفاق العربية

إهداء

أهدى عملى إلى كل من

شيخى سيدى الحاج محمد أبو خليل

رضـى الله عنه

عمى فضيلة الشيخ أحمد حجاب

رضـى الله عــنه

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه الغر الميامين ومن نهج نهجه واتبع طريقه إلى يوم الدين.

وبعد:

أشكر الله عز وجل أن وفقنى لخدمة كتابه الكريم فى زمن انصرفت فيه الكثرة عن خدمة كتاب الله عز وجل. وخدمة سنة رسوله ﷺ. شارحة القرآن.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

و«الشكر فى القرآن الكريم» موضوع يحتاج الناس إليه فى حياتهم. فهو نصف الإيمان.

قال ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر. ونصف شكر»(١). وبالشكر تحفظ النعم.

كما أن بالشكر تزيد النعم. قال تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾. والعذاب الشديد إشارة إلى سلب النعم ممن لم يشكر الله عز وجل.

وهو موضوع احتاج البحث فيه إلى قراءة واسعة متأنية فى كتب التفسير والحديث والسير والتصوف. وكتب دوائر المعارف الطبية. وكتب العلوم الفلكية.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس. ضعيف بلفظ الإيمان نصفان: نصف فى الصبر. ونصف فى الشكر. والفردوسى. من رواية يزيد الرقاش عن أنس ويزيد ضعيف. الحافظ العراقى. على الإحياء جـ ٤ ص ٦٠ وقد تقوى هذا الحديث بمتابع. فيعمل به فى فضائل الأعمال الجامع الصغير جـ ١ ص ٣١٣.

والكتب التى تعرفنا بالعلوم التى تتصل بالنعم الآفاقية. المبثوثة فى الأرض والجبال والبحار والأنهار. والليل والنهار. وأنواع المزروعات والحيوانات. والنار والشمس والقمر. والكواكب وغير ذلك.

كما احتجت إلى قراءة فى كتب تتصل من قريب أو بعيد بالنعم الأنفسية والنعم الأفاقية. وغير ذلك من الكتب التى لها صلة بالبحث. كما سيتضح فى ثنايا البحث.

ومنهجى فى هذا البحث هو جمع النصوص القرآنية التى تتصل بنقاط البحث ثم جمع الأحاديث النبوية الشريفة التى لها صلة بهذه الآيات باعتبار السنة شارحة للقرآن. ومفصلة لمجملة. ومبينة لمبهمه.

ثم ارجع إلى كتب التفسير اقرأ فيها تفسير هذه الآيات القرآنية الكريمة.

وأهتم بقراءة متنوعة لكتب التفسير فى كل آية. من تفسير بالمعقول إلى تفسير بالمنقول. ومن تفسير صوفى إلى تفسير علمى. وغير ذلك.

كما أرجع إلى كتب الحديث وخاصة كتاب «فتح البارى» شرح صحيح البخارى. لقراءة شرح الأحاديث النبوية الشريفة.

وكتاب فتح البارى يسعف بالكثير من الشرح. لأحاديث صحيح البخارى. وغير صحيح البخارى. حيث يتناول فى شرحه كل ما يتصل بموضوع الحديث من روايات غير البخارى ويشرحها أيضًا.

وقراءة شرح الآيات. والأحاديث يفتح آفاقًا واسعة لكثير من الاستنباط. ويرشد إلى كثير من المراجع التى لها صلة بالموضوع غير كتب التفسير والحديث.

وفى الختام أتقدم بخالص شكرى لأستاذى الدكتور الحسينى أبو فرحة.

كما أشكر والدى فضيلة الشيخ محمد صابر حجاب أستاذ التفسير والحديث بمعهدى طنطا والإسكندرية.

وعمى صاحب الفضيلة الشيخ أحمد حجاب من كبار علماء الأزهر الشريف وعلمائه الربائيين والله الموافق والهادى إلى سواء السبيل

الدكتورة/ كاملة الأنوار محمد صابر حجاب

الباب الأول

في بيان حقيقة الشكر. وأمهات النعم التي يشكر الله عليها.

ويتضمن الفصول التالية:

١ - **الفصل الأول**: في بيان حقيقة الشكر لغة وشرعًا.

والمقارنة بينه وبين الحمد والمدح والثناء.

والمحمود منه والمذموم شرعًا.

٢ - **الفصل الثاني**: في أمهات النعم التي يشكر الله عليها وهي:

(أ) نعمة الإيجاد.

(ب) نعمة الإمداد بالنعم الأنفسية.

(جـ) نعمة الإمداد بالنعم الآفاقية.

الفصل الأول

في

بيان حقيقة الشكر لغة وشرعًا والمقارنة بينه وبين الحمد والمدح والثناء والمحمود منه والمذموم شرعًا.

١ ـ بيان حقيقة الشكر، لغة وشرعًا.

٢ ـ المقارنة بين الشكر والحمد.

٣ ـ المقارنة بين الشكر والمدح والثناء.

٤ ـ الشكر المحمود والشكر المذموم عند الله تعالى.

١ - بيان حقيقة الشكر لغة

«الشكر لغة: الثناء على المحسن بما أولاه له من المعروف. والشكران ضد الكفران وتشكر له: مثل شكر له»(١).

وعرفه البقاعى: بأنه فعل ينبىء عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا كالثناء على المنعم بما يدل على أن الشاكر قد عرف نعمته، واعترف له بها. وحسن موقعها عنده. وخضع قلبه له لذلك.

وحاصله: أنه اسم لمعرفة النعمة. لأنها السبيل إلى معرفة المنعم. فإنه إذا عرفها تسبب ذلك فى التعرف إليه. فسلك طريق التعرف وجد فى الطلب. ومن جد وجد(٢).

وعرف البقاعى: الشاكر بقوله:

«الشاكر: هو المستغرق فى الثناء على المنعم بما يجب عليه من العمل من ثناء أو غيره بحسب ما يقدر عليه(٣).

وعرفه ابن الأثير بقوله:

الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية. فيثنى على المنعم بلسانه ويذيب نفسه فى طاعته. ويعتقد أنه موليها. وهو من شكرت الابل تشكر إذا أصابت مرعى فسمنت عليه. ومنه الحديث «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»(٤).

وفى حديث يأجوج ومأجوج:

«وإن دواب الأرض تسمن وتشكر شكراً من لحومهم».

---

(١) مختار الصحاح ص ٣٤٤ .

(٢) تفسير البقاعى ص ٤٩ . نقلا عن رسالة «عزت».

(٣) المصدر السابق ص ٥١ .

(٤) راوه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات حـ ٨ ، ص ١٨٠ مجمع الزوائد المسند حـ٣، ص٢٥٨، ص٢٩٥

أى تسمن وتمتلىء شحمًا يقال: شكرت الشاه. بالكسر. تشكر شكرًا بالتحريك. إذا سمنت وامتلأ ضرعها لبنًا»[1].

والشكور: هو الذى يزكو عنده القليل من أعمال العباد. فيضاعف لهم الجزاء فشكره لعباده مغفرته لهم.

والشكور: من أبنية المبالغة: يقال: شكرت لك وشكرتك.

والأول: أفصح. والشكر: مثل الحمد إلا أن الحمد أعم منه. فإنك تحمد الإنسان على صفاته الجميلة. وعلى معروفه. ولا تشكره إلا على معروفه دون صفاته»[2].

وعرفه صاحب القاموس المحيط بأنه:

«عرفان الإحسان ونشره. ولا يكون إلا عن يد».

ومن الله المجازاة، والثناء الجميل.

والشكور: الكثير الشكر. والدابة تسمن على قلة العلف.

وشكرت الناقة: كفرح. امتلأ ضرعها. والدابة: سمنت: وفلان: سخا أو غزر عطاؤه بعد بخله. والشجرة: خرج منها الشكير. وعشب مشكره: مغزرة للبن. وأشكر الضرع: امتلأ[3].

وعرفه صاحب جامع العلوم بأنه:

«هو الوصف الجميل على جهة التعظيم والتبجيل على النعمة من اللسان والجنان والأركان»[4].

وعرفه صاحب المفردات بأنه:

---

(١) النهاية لابن الأثير جـ٢ ص ٤٩٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) القاموس المحيط جـ٢ ص ٦٣.

(٤) جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون جـ٢ ص٢٢٢.

«تصور النعمة وإظهارها. وهو مقلوب عن الكشر أى الكشف ويضاده الكفر. وهو نسيان النعمة أو سترها.

ودابة شكور. مظهرة بسمنها اسداء صاحبها إليها.

وقيل: أصله من عين شكرى. أى ممتلئة.

فالشكر على هذا هو الامتلأ من ذكر المنعم عليه.

والشكر ثلاثة أضرب: شكر القلب. وهو تصور النعمة. وشكر اللسان وهو الثناء على المنعم. وشكر سائر الجوارح. وهو مكافأة النعمة بصرفها فيما خلقت له قال تعالى: «اعملوا آل داود شكرا»[(١)].

وقال القرطبى: الشكر فى اللغة: الظهور من قوله: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف[(٢)].

وعرفه صاحب اصطلاحات الفنون بقوله:

الشكر: لغة الحمد.

وعرفا: هو فعل يشعر بتعظيم المنعم بسبب كونه منعما وذلك الفعل: إما فعل القلب أعنى الاعتقاد باتصاف المحمود بصفات الكمال والجلال. وإما فعل اللسان. أعنى ذكر ما يدل عليه.

وإما فعل الجوارح: وهو الاتيان بأفعال دالة على ذلك وهذا شكر العبد لله تعالى.

وشكر الله للعبد أن يثنى على العبد بقبول طاعته. وينعم عليه بمقابلها هكذا فى تعريفات الجرجانى[(٣)].

---

(١) المفردات للراغب ص ٢٦٥.

(٢) القرطبى جـ١ ص٣٣٩.

(٣) كتاب: كشاف اصطلاحات الفنون. تأليف محمد على الفاروقى التهانوى جـ٣ ص١١٢. حققه د. لطفى عبد البديع، ترجم النصوص الفارسية د. عبد النعيم محمد حسنين.

وترجع عند التحقيق جميع التعاريف اللغوية إلى ما قاله القرطبى فى تعريف الشكر لغة وهو الظهور. وما زاد فيها عن ذلك فقد تعرض فيه صاحبه لتفصيل كيفية الظهور من كونه باللسان أو الأركان أو الجنان.

ويدل لتعريف القرطبى. تعريف صاحب المفردات من قوله فى تعريفه للشكر: هو تصور النعمة وإظهارها. وهو مقلوب عن الكشر وهو الكشف. ويضاده الكفر وهو الستر.

حقيقة الشكر شرعا

الشكر شرعًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع وغيره إلى ما خلق لأجله.

وعرفه الغزالى بأنه:

«ينتظم من علم وحال وعمل».

فالعلم هو الأصل: فيورث الحال. والحال يورث العمل.

فأما العلم. فهو معرفة النعمة من المنعم. والحال: هو الفرح الحاصل بإنعامه.

والعمل: هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه.

ويتعلق ذلك العمل - بالقلب والجوارح واللسان.

والعلم يكون بثلاثة أمور: بعين النعمة. ووجه كونها نعمة فى حقه. وبذات المنعم ووجوده وصفاته التى بها يتم الانعام.

هذا فى حق شكر غير الله. فأما بالنسبة لشكر الله فلابد أن يعرف مع هذا أن النعم كلها من الله. فهو المنعم. والوسائط مسخرون من جهته.

وتمام هذه المعرفة ينفى الشرك فى الأفعال.

فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشىء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا فى تيسير ذلك الشىء وإيصاله إليه فهو اشراك به فى النعمة.

فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه. بل منه بوجه. ومن غيره بوجه. فيتوزع فرحه عليهما. فلا يكون موحداً فى حق الملك.

نعم لا يغض من توحيده فى حق الملك وكمال شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيعه الذى كتبه وبالكاغد الذى كتبه عليه[1]. فإنه لا يفرح بالقلم ولا بالكاغد ولا يشكرهما، لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما.

فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى وعرفت فعله، وكنت موحداً. وقدرت على شكره.

بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرًا.

ولذلك قال موسى عليه السلام فى مناجاته إلهى خلقت آدم بيدك وفعلت وفعلت فكيف شكرك. فقال الله عز وجل: علم أن كل ذلك منى فكانت معرفته شكرًا فأنت لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه، فإن خالجك ريب فى هذا لم تكن عارفًا لا بالنعم ولا بالمنعم.

وبنقصان معرفتك ينقص حالك من الفرح، وبنقصان فرحك ينقص عملك، فينقص شكرك.

ثم يقول الغزالى:

والأصل الثانى للشكر: الحال المستمدة من أصل المعرفة السابق وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع. وهو أيضًا فى نفسه شكر على تجرده، كما أن مجرد المعرفة شكر.

لكن إنما يكون شكرًا إذا كان حاويًا شرطه.

وشرطه: أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام.

ومثال ذلك من أنعم عليه الملك بفرس ليخرج عليه معه فى سفره.

---

(١) التوقيع هنا: أى طلبه الذى رفعه للملك يطلب فيه حاجته. والكاغد: الورق الذى كتب عليه طلبه.

فهو لا يفرح بالفرس من حيث هو فرس ينتفع به ولا من حيث أنه يستدل بذلك على عناية الملك به، بل يفرح به من حيث أنه يساعده على الخروج فى خدمة الملك.

فالفرح بالمعنى الأول: وهو الفرح بالنعمة. ليس من قبيل الشكر لأن فرح صاحبها مقصور على الفرس. ففرحه بالفرس بالمعطى.

وبالمعنى الثانى: وهو الفرح بالانعام يدخل فى معنى الشكر من حيث أنه فرح بالمنعم لكن لا من حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته بالمنعم عليه.

والشكر التام. فى الفرح الثالث. وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله من حيث أنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والنزول فى جواره والنظر إلى وجهه على الدوام.

وأمارته ألا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للآخرة ويعينه عليها.

ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصده عن سبيله. ولذلك قال الشبلى رحمه الله... الشكر رؤية المنعم لا رؤية النعمة.

وقال الخواص رحمه الله: شكر العامة على المطعم والملبس والمشرب. وشكر الخاصة على واردات القلوب. وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات فى البطن والفرج ومدركات الحواس فإن القلب لا يلتذ حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه. وإنما يلتذ بغيره إذا ارتهن بسوء العادات.

ثم يقول الغزالى أيضًا:

الأصل الثالث للشكر: العمل بموجب الفرح. الحاصل من معرفة المنعم.

وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أما القلب: فقصد الخير واضماره لكافة الخلق. وأما اللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه. وأما الجوارح: فاستعمال نعم الله تعالى فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته.

حتى أن من شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه.

ثم يقول الغزالى:

فهذه هى أصول معانى الشكر المحيطة بمجموع حقيقته.

فأما قول من قال: إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب.

وقول من قال: إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه فقد نظر إلى مجرد عمل اللسان.

وقول القائل: إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة. جامع لأكثر معانى الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان.

وقول حمدون القصار: شكر النعمة أن ترى نفسك فى الشكر طفيليًا إشارة إلى أن معنى المعرفة من معانى الشكر فقط.

وقول الجنيد: الشكر ألا ترى نفسك أهلا للنعمة. إشارة إلى حال من أحوال القلب.

ثم يقول الغزالى:

وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم. فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ثم قد يختلف جواب كل واحد منهم فى حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة اشتغالا بما يهمهم عما لا يهمهم. أو يتكلمون بما هو لائق بحال السائل. وإعراضًا عما لا يحتاج إليه[1].

وبهذا فإنى أرى أن الإمام حجة الإسلام الغزالى قد أجاد فى بيان حقيقة الشكر شرعًا وفصل القول فى بيان حقيقته. مع اطلاعه على تعريفات السابقين للشكر شرعا وتوفيقه بينها أجمل توفيق بما ذكره من أن سبب اختلاف تعريفاتهم

---

(١) إحياء علوم الدين للغزالى جـ٤ ص ٨١ ـ ٨٤ بتصرف.

إنما يرجع لأحد أمرين: أما إلى اختلاف حالاتهم عند الإجابة. وإما إلى اختلاف حالات السائلين.

غير أن تفصيل الغزالى للقول فى بيان حقيقة الشكر شرعا وتعرضه لذكر بعض تعاريف السابقين له وتوجيهه لها وجمعه بين كل هذه التعاريف فى تعريفه ورضائى الكامل عن تعريفه واختيارى له.

أقول كل هذا لا يصرفنى عن ذكر تعريفات أخرى للشكر شرعا ذكرها غير الغزالى ومن ذكرهم الغزالى: اثراء للبحث من جهة وقد يجد الناظر فيها شيئًا يضيفه إلى تعريف الغزالى المفصل من جهة أخرى، وتدعيمًا لتعريف الغزالى من جهة ثالثة إذا التقى غيره معه فيما ذكره من تعريف الشكر.

وقد ذكر صاحب الرسالة القشيرية طرفًا من تلك التعاريف فى باب الشكر.

قال صاحب الرسالة القشيرية: «حقيقة الشكر عند أهل التحقيق الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع».

وعلى هذا القول يوصف الحق سبحانه بأنه شكور توسعًا ومعناه أنه يجازى العباد على الشكر، فسمى جزاء الشكر شكرًا كما قال: «وجزاء سيئة سيئة مثلها».

وقيل: شكره إعطاءه الكثير من الثواب على اليسير من العمل من قولهم دابة شكور إذا ظهرت من السمن فوق ما تعطى من العلف[1].

وقال الجنيد: حقيقة الشكر العجز عن الشكر.

وقال الجنيد أيضا فى بيان حقيقة الشكر: كنت بين يدى السرى السقطى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى: يا غلام ما الشكر؟ فقلت: إلا يعصى الله بنعمة فقال لى: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك[2].

---

(١) الرسالة القشيرية ص٨٨.

(٢) القرطبى جـ١ ص٠ ٣٤.

وعند التحقيق: أكرر ما قلته من أن تعريف الغزالى لحقيقة الشكر شرعًا هو أجمع هذه التعاريف وأكملها ويسعها جميعًا. وكل واحد من هذه التعاريف قد إشار إلى تعريف طرف من حقيقة الشكر ولم يستوعب تعريف حقيقة الشكر.

وقد بدا أيضًا مما سبق ذكره أن التعريف الشرعى للشكر قائم على أساس من التعريف اللغوى للشكر الذى هو الظهور قال القرطبى الشكر فى اللغة: هو الظهور. من قولهم: دابة شكور إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تعطى من العلف[1].

٢ ـ المقارنة بين الشكر وكل من الحمد والمدح والثناء

قال الزمخشرى: الحمد والمدح إخوان. وهو الثناء على الجميل من نعمة وغيرها.

تقول حمدت الرجل على إنعامه. وحمدته على حسبه وشجاعته.

وأما الشكر: فعلى النعمة خاصة وهو بالقلب واللسان والجوارح.

قال الشاعر:

افادتكم النعماء منى ثلاثة ... يدى ولسانى والضمير المحجبا

والحمد يكون باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر.

ومنه قوله ﷺ: «الحمد رأس الشكر. ما شكر الله عبد لم يحمده»[2].

وإنما جعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها وأدل على مكانها من الاعتقاد وأداب الجوارح لخفاء عمل القلب. وما فى عمل الجوارح من الاحتمال. بخلاف عمل اللسان وهو النطق الذى يفصح عن كل خفى ويجلى كل مشتبه.

---

(١) المصدر السابق جـ١ ص٣٣٣.

(٢) جـ١ ص٤٦ ـ ٤٧، حديث حسن رواه عبد الرازق فى الجامع والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عمر ـ الجامع الصغير جـ١ ص٢٦٠ .

والحمد نقيضه الذم. والشكر نقيضه الكفران[١].

وقال السيد الشريف: والحمد والمدح مترادفان. ويدل على ذلك أنه قال فى الفائق: الحمد هو المدح والوصف بالجميل. وأنه جعل هاهنا ـ أى فى تفسير فاتحة الكتاب ـ الذم نقيضًا للحمد[٢].

لا يقال: نقيض المدح هو الهجو لا الذم، لأنا نقول: المدح يطلق على الثناء الخاص أى الوصف الجميل، ويقابله الذم.

وقد يخص بعد المآثر ويقابله حينئذ الهجو. أى عد المثالب والكلام فى المعنى الأول[٣].

وقال النسفى:

الحمد الوصف بالجميل على جهة التفصيل.

وقال أيضًا: وقيل: المدح ثناء على ما هو له تعالى من أوصاف الكمال ككونه باقيًا عالمًا أبديًا أزليًا.

والشكر ثناء على ما هو له. .من أوصاف الافضال.

والحمد يشملهما[٤].

وقال الشيخ البغوى فى حاشيته على الرحبية:

الحمد الحادث معناه لغة الثناء باللسان على الجميل الاختيارى على جهة التعظيم والتبجيل سواء تعلق بالفضائل وهى التى يتعقل اتصاف الشخص بها، وإن لم يتعد أثرها للغير كالعلم.

أم بالفواصل: وهى النعم المتعدية للغير كالكرم. إذ لا يصح اتصاف الشخص بها إلا إذا صدر منه إكرام للغير.

---

(١) تفسير الكشاف جـ١ ص٤٦ ـ ٤٧.
(٢) المصدر السابق جـ١ ص٤٦ بالحاشية.
(٣) الكشاف جـ١ ص ٤٦ بالحاشية.
(٤) المصدر السابق جـ١ ص٥.

والثناء: هو الوصف الحسن.

واصطلاحًا: فعل ينبىء أى يشعر ويخبر عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على المثنى أو غيره.

وهذا هو معنى الشكر لغة.

والشكر شرعًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من السمع وغيره إلى ما خلق لأجله.

والحمد على أربعة أقسام:

حمد قديم لقديم، وحمد قديم لحادث، وحمد حادث لقديم، وحمد حادث لحادث.

والأولان قديمان. والآخران حادثان.

والحمد له أركان خمسة: حامد ومحمود ومحمود به. ومحمود عليه وصيغة.

فالحامد: من يتحقق منه الحمد. وهو الوصف بالجميل.

والمحمود هو الموصوف بالجميل. ولابد أن يكون المحمود فاعلاً مختاراً.

ومحمود به: ولابد أن يكون صفة يظهر اتصاف شىء بها على وجه مخصوص ويجب أن تكون صفة كمال. يدرك حسنها العقل السليم.

وكل ما حسنه الشرع فهو حسن عند العقل السليم.

ومحمود عليه: وهو ما كان الوصف الجميل بإزائه ومقابلته. ويجب أن يكون كمالاً وأن يكون اختياراً ولو حكمًا. وذلك كالحمد على ذاته تعالى وصفاته.

وبقوله: ولو حكمًا. اندفع ما يقال : إن الحمد على ذاته وصفاته ليس اختياريًا. فإن ذاته تعالى وصفاته لا يقال لها: اختيارية كما لا يقال لها اضطرارية.

والصيغة: وهى الحمد،. وهو ذكر يدل على اتصاف المحمود بالمحمودية فإذا قلت: زيد كريم. لكونه أكرمك فأنت حامد. وزيد محمود والكرم محمود به، وإكرامه لك محمود عليه. والصيغة: هى قولك: زيد كريم.

أقسام الحمد

القسم الأول من أقسام الحمد : حمد قديم لقديم :

ومعناه: حمد الله لذاته وثناؤه عليها أزلاً بكلامه القديم الذى هو أحد صفات المعانى السبعة الثبوتية(١) القائمة بذاته تعالى. المنزه عن التقدم والتأخر والاعراب والبناء.

وهذا النوع من الحمد هو أعظم أنواع الحمد تأدية للغرض المقصود. لأن جلاله وعظمته وكمالاته وسائر الشئون التى تقتضى استحقاقه الحمد لا يمكن أن تدخل تحت تناول عقول الحامدين له ومداركهم. لأنهم لا يتناولون بمداركهم وعقولهم إلا ما يدخل تحت حواسهم وأفكارهم.

والله سبحانه وتعالى لا تدركه الحواس، ولا تحيط به الأفكار ولا يعلم قدره غيره.

فلذلك كان حمده لذاته أعظم الحمد وفاء بحقه.

وقد حمد سبحانه وتعالى ذاته وأثنى عليها فى مواضع كثيرة من كتابه العزيز بصيغة الحمد تارة. وبصيغة التبارك تارة أخرى.

كما ذكر حمد الناس له بصيغة الحمد والشكر تارة. وبصيغة التسبيح تارة أخرى كما سيمر بك.

وكلها وردت على سبيل التأسيس لا التأكيد. وفى معظم مواردها وفى ذلك دلالة على أن مقتضيات حمده تعالى لا تعد ولا تحصى كما يشير إلى ذلك قوله تعالى فى ناحية من نواحى مقتضيات حمده وهى إنعاماته: ﴿ **وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا** ﴾. أى وإن يعد كل واحد منكم نعم الله.

والنعم التى يعدها كل واحد غير النعم التى يعدها الآخر لا تحصوها كلكم.

---

(١) هى القدرة، الإرادة، العلم، الحياة، السمع، البصر، الكلام.

«لأن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً. كما فى قولهم ركب القوم داوبهم.. أى ركب كل واحد دابته. والمفرد المضاف فى نعمة الله فى حكم الجمع».

ومن أمثلة حمده تعالي لذاته بصيغة الحمد حمد قديم لقديم:

١ ـ أول سورة الفاتحة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٢ ـ أول سورة الأنعام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾.

٣ ـ أول سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾.

٤ ـ أول سورة سبأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

٥ ـ أول سورة فاطر: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

القسم الثاني من أقسام الحمد
حمد قديم لحادث

وهو ثناءه تعالى على أنبيائه وبعض عباده لاتصافهم بما يؤهلهم لذلك وهو كثير فى القرآن الكريم.

ومن أمثلته:

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾[2].

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾[3].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③﴾[4].

القسم الثالث من أقسام الحمد وهو حمد حادث لقديم

وهو حمد المخلوقين لله عز وجل. وثناؤهم عليه. لنعمه عليهم ورحمته بهم. ورعايته لهم فى كل شئونهم.

ومنه ما حكاه الله عنهم فى القرآن مثل قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾[5].

---

(١) مريم: ٥٤.

(٢) مريم: ٥٦.

(٣) الفتح: ٢٩.

(٤) المؤمنون: ١: ٣.

(٥) الزمر: ٧٤ ـ ٧٥.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

ومنه ما ورد فى القرآن من حمد لله تعالى لذاته.

فإنه باعتبار أنه حاصل منه لذاته. يكون حمد قديم لقديم، وباعتبار أنه واقع من الناس. بعد أن علمهم الله كيف يحمدونه. يكون حمد حادث لقديم.

القسم الرابع: حمد حادث لحادث

وهو ثناء الناس بعضهم على بعض لنعم يتعاطونها من بعض. أو لجميل يسديه بعضهم لبعض.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا﴾[4].

ولعموم قوله تعالى: ﴿وَلا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[5].

أى لا تنسوا أن يتفضل بعضكم على بعض. وأن يشكر بعضكم بعضًا على تفضله عليه.

---

(١) النمل: ١٥.

(٢) فاطر: ٣٤.

(٣) البقرة: ٢٢.

(٤) النساء: ٨٦.

(٥) البقرة: ٢٣٧.

آثار كل قسم من أقسام الحمد

هذا ولكل قسم من هذه الأقسام آثاره وفوائده التى سنتعرض لها فيما بعد بالتفصيل فى أبواب الرسالة.

غير أنى أوجز هنا تعجيلا للفائدة الإشارة إلى هذه الآثار والفوائد.

فمن آثار حمد القديم للقديم. الإشارة إلى علو مقام الألوهية وتربية الرغبة والرهبة فى نفوس الخلائق.

وهذا يترك فى الخلائق آثاره فى تصحيح العقيدة. وسلامة السلوك.

ومن آثار حمد القديم للحادث.

تشجيع المحمود على المزيد مما حمد عليه وبسببه فحمد الله عز وجل لنبيه إسماعيل وثناؤه عليه لأنه كان صادق الوعد. فيه مزيد حث له ولمن سمع هذا الحث على صدق الوعد.

وحمد الله عز وجل وثناؤه على الصحابة رضوان الله عليهم بما ذكره من صفاتهم من الشدة على الكفار والتراحم بينهم وكثرة الركوع والسجود فيه مزيد حيث لهم ولمن سمع ذلك على التحلى بهذه الصفات. والحرص على الاتصاف بها.

ومن آثار حمد الحادث للقديم:

المزيد من النعم ورضوان من الله عز وجل. وحصول الحادث على ما يحبه من الله عز وجل. كما قال تعالى فى الحديث القدسى: «كن لى كما أريد أكن لك كما تريد».

ومن آثار حمد الحادث للحادث:

إشاعة المودة والحب بين الناس. وإشاعة فعل الخير بينهم.

ومن هنا كان الحث على شكر الناس كالحث على شكر الله فى الحديث: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»(١).

وقال الشهاب: «الحمد هو الثناء باللسان وحده. وقال فى الحواشى الشريفية: ادعى اختصاصه باللسان لكونه أشيع وأدل»(٢).

والصحيح أن المراد الثناء بقوة التكلم حتى يشمل ثناءه تعالى على نفسه.

وقال محى الدين شيخ زاده: «الحمد من شعب الشكر. أى من أقسامه وفروعه».

والحمد أشيع للنعمة. لأنه يكون باللسان وحده.

ومن المعلوم أن فعل اللسان المنبىء عن تعظيم المنعم. لكونه ظاهرًا محسوسًا أظهر دلالة على المراد بالنسبة إلى دلالة الاعتقاد لخفائه واحتجابه. وإلى دلالة أفعال الجوارح. لاحتمال وقوعها لأمر آخر غير تعظيم المنعم.

فإن خدمة المنعم بالجوارح لا يتعين كونها متفرعة على نعمه الواصلة منه إليه جزاء لها.

بل يحتمل أن تكون لغرض آخر. بخلاف فعل اللسان فإنه ظاهر بنفسه مظهر للمعنى المراد به ليس فيه احتمال لغير المراد.

فيكون الحمد أظهر أقسام الشكر فى الدلالة على تعظيم المنعم وإظهار نعمته»(٣).

وقال فى كتاب جامع العلوم. فى اصطلاحات الفنون:

«الحمد فى اللغة: هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري على جهة التعظيم والتبجيل وبعبارة أخرى: هو الثناء باللسان على قصد التعظيم وهذا هو الحمد القولى.

---

(١) رواه أحمد والترمذى عن أبى سعيد. صحيح مجمع الزوائد جـ٨ ص١٨٠.

(٢) حاشية الشهاب على البيضاوى ص٧٣ دار صادر بيروت.

(٣) حاشية محيى الدين شيخ زاده على تفسير البيضاوى جـ١.

وفى العرف: فعل ينبىء عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا سواء أكان الفعل بالقلب أو باللسان أو بالجارحة.

وحقيقة الحمد عند الصوفية:

إظهار الصفات الكمالية. ومن هذا القبيل حمد الله تعالى.

والحمد والمدح بعد اتفاقهما فى جوهر الحروف. مختلفان. من حيث أن الحمد مختص بالمحمود عليه الاختيارى. والمدح: أعم.

وبين الحمد اللغوى والمدح عموم مطلق لجواز أن يقع المدح على الجميل غير الاختيارى. مثل: مدحت اللؤلؤ على صفاته.

ومعنى الشكر اللغوى: عين معنى الحمد الاصطلاحى. بشرط تعميم النعمة بالواصلة وغيرها.

والشكر فى الاصطلاح: صرف العبد جميع ما أنعم الله تعالى به عليه فيما خلق له فإنه تعالى إنما أعطى العقل للتدبر فى مصنوعات الله استدلالا على وجود الصانع.

وبين الحمد اللغوى. والحمد الاصطلاحى. عموم من وجه:

وبين الحمد الاصطلاحى والشكر اللغوى ترادف.

وبين الشكر اللغوى والشكر الاصطلاحى عموم مطلق أيضًا[1].

وقال السمرقندى:

«يفرق بين الحمد والشكر. إذ أمرنا بشكر الناس. كما جاء فى حديث سيدنا رسول الله ﷺ: «أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

فقد فهم من هذا الحديث أن الشكر فيه بمعنى المجازاة. والحمد بمعنى الوصف بما هو أهله. فلا يستحب الحمد إلا لله[2].

---

(١) ص٦٤، ٦٥ من كتاب جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون الملقب بدستور العلماء تأليف القاضى عبد النبى عبد الرسول الأحمد جـ٢ - منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات - بيروت لبنان...

(٢) تفسير الماتريدى، المسمى تأويلات أهل السنة. لأبى منصور محمد بن محمد الماتريدى السمرقندى جـ١.

هذا وبعد تعريف الحمد لغة وشرعا:

فقد اختلف فى المراد منه. هل هو الإخبار عن حصول الحمد أو هو إنشاء الحمد؟ فمن قال مثلاً: الحمد لله.

هل هو مخبر بذلك كما هو معنى الجملة الخبرية فى الأصل فلا يحصل الحمد بهذه الصيغة أم استعملت الجملة الخبرية فى الإنشاء؟ فيحصل الحمد بها.

وقد أجاب صاحب كتاب «جامع العلوم» بأن الحمد يحصل بهذه الصيغة سواء قصد بها الخبر أو الإنشاء. فقال:

إن قيل الحمد لله: إخبار عن حصول الحمد والإخبار عن حصول الشىء ليس ذلك الشىء فلا يحصل الامتثال به.

فإنا نجيب. بأنا لا نسلم أنه إخبار بل إنشاء فإن صيغ الإخبار قد تستعمل فى الإنشاء كقولك: بعت واشتريت: فى إنشاء البيع والشراء.

ولو سلم أنها للإخبار. ولم يقصد بها الإنشاء.

فلا نسلم أن الإخبار عن الشىء ليس ذلك الشىء مطلقًا.

وإنما يكون كذلك لو لم يكن الإخبار من جزئيات مفهوم المخبر عنه.

أما إذا كان كذلك فإن الإخبار عن الشىء يكون من جملة ذلك الشىء. وكون الإخبار فيما نحن فيه من هذا القبيل ظاهر لصدق تعريف الحمد عليه بل هو حمد إجمالى محيط لجميع أفراد الحمد[١].

وقال صاحب كتاب «المستطرف»:

«المدح: وصف الممدوح بأخلاق يمدح عليها صاحبها. وهذا يصح من المولى فى حق عبده.

فقد قال تعالى فى حق نبيه أيوب عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[٢].

---

(١) جامع العلوم ص٦٥.

(٢) ص: ٤٤.

وقال تعالى لنبيه سيدنا محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾[2].

خلاصة المقارنة

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الحمد أظهر أقسام الشكر فى الدلالة على تعظيم المنعم وإظهار نعمته وأنه شعبة من شعب الشكر.

قال محى الدين شيخ زاده: «الحمد من شعب الشكر. أى من أقسامه وفروعه.

والحمد أشيع للنعمة لأنه يكون باللسان وحده.

ومن المعلوم أن فعل اللسان المنبىء عن تعظيم المنعم لكونه ظاهرًا محسوسًا أظهر دلالة على المراد بالنسبة إلى دلالة الاعتقاد لخفائه واحتجابه. وإلى دلالة أفعال الجوارح. لاحتمال وقوعها لأمر آخر غير تعظيم المنعم فإن خدمة المنعم بالجوارح لا يتعين كونها متفرعة على نعمه الواصلة منه إليه جزاء لها. بل يحتمل أن تكون لغرض آخر.

بخلاف فعل اللسان. فإنه ظاهر بنفسه. مظهر للمعنى المراد به ليس فيه احتمال لغير المراد.

فيكون الحمد أظهر أقسام الشكر فى الدلالة على تعظيم المنعم وإظاهر نعمته[3].

---

(١) القلم: ٤.

(٢) كتاب المستطرف فى كل من مستظرف. تأليف الإمام الأوحد الشيخ شهاب الدين أحمد الابشيهى ص١٣٠.

(٣) حاشية محيى الدين شيخ زاده على البيضاوى جـ١.

«والحمد والمدح بعد اتفاقهما فى جوهر الحروف مختلفان. من حيث أن الحمد مختص بالمحمود عليه الاختيارى. والمدح أعم.

وبين الحمد اللغوى والمدح عموم مطلق لجواز أن يقع المدح على الجميل غير الاختيارى مثل: مدحت اللؤلؤ على صفاته».

ومعنى الشكر اللغوى: عين معنى الحمد الاصطلاحى. بشرط تعميم النعمة بالواصلة وغيرها.

وبين الحمد الاصطلاحى. والشكر اللغوى ترادف.

وبين الشكر اللغوى. والشكر الاصطلاحى عموم مطلق[1].

---

(١) ص ٦٤، ٦٥ من كتاب جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون جـ٢.

٤- الشكر المحمود. والشكر المذموم عند الله تعالى

الشكر المحمود: هو الشكر على الحقيقة. كما فصله الغزالي. وهو يكون باللسان والجنان والجوارح. كما تقدم.

والشكر المذموم: هو شكر لم يصادف محله.

فمن شكر الكافرين على كفرهم. أو الملاحدة على الحادهم أو العصاة على عصيانهم بلسانه أو بقلبه. بأن امتلأ قلبه حبًا لهم وتقديرًا لهذه الصفات فيهم أو بجوارحه بإعانتهم على ما اتصفوا به من كفر وإلحاد ومعصية فقد شكر شكرًا ذمه الله عز وجل ويعاقب عليه.

قال تعالى مشيرًا إلى ذلك:

﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾[(١)].

بل قد نهى المولى عز وجل عن شكر الكفار والملاحدة والعصاة بمودتهم وموالاتهم.

قال عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾[(٢)].

---

(١) المجادلة: ٢٢.

(٢) الممتحنة: ١، ٢.

وهكذا نرى القرآن الكريم ينهى صراحة عن شكر الكفار والعصاة بمودتهم وموالاتهم ويعلل النهى بأنهم كفروا بالإسلام. وأخرجوا الرسول ﷺ والمؤمنين بسبب إسلامهم فحسب وأنهم مع ذلك كله إن تمكنوا من المسلمين أذوهم بأيديهم وألسنتهم وأنهم يودون الشر كل الشر للمسلمين وأنهم يودون كفرهم بعد إيمانهم.

لكل هذا ينهى القرآن الكريم عن شكر هؤلاء بمودتهم وموالاتهم.

ويذكر القرآن الكريم مثلاً أعلى للمسلمين فى قطع حبال المودة بين المسلمين والكفار ويحث على التأسى به.

يذكر تعالى لنا سيدنا إبراهيم خليل الرحمن عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام. والذين معه من المؤمنين. حيث قاطعوا قومهم وتبرأوا منهم ومما يعبدونه من دون الله. وصارحوهم بالعداوة والبغضاء ما داموا على كفرهم.

وفى الحديث النبوى الشريف: «أوثق عرى الإيمان الحب فى الله والبغض فى الله»(١).

وهكذا كان خليل الرحمن والمؤمنون معه مثلاً أعلى فى ترك الشكر المذموم شكر الكفار بمودتهم وموالاتهم وهو شكر القلوب.

قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾(٢).

وبالرجوع إلى سبب نزول هذه الآيات التى تنهى عن مودة الكفار وتحثنا على مقاطعتهم وبغضهم وإعلانهم بذلك. ترى مزيد إيضاح للنهى عن هذا الشكر المذموم الذى هو مودة الكفار ومعاونتهم.

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٤ ص٢٨٦ وفى مجمع الزوائد جـ١ ص٨٩ وفيه ليث بن أبى أسلم وضعفه الأكثر. وفيه أن هناك من لم يضعفه.

(٢) الممتحنة: ٤.

روى البخارى فى صحيحه بسنده عن عبيد الله بن أبى رافع يقول: سمعت عليا رضى الله عنه يقول: بعثنى رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد. فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ. فإن بها ظعينه معها كتاب. فخذوه منها.

قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى آتينا الروضة فإذا نحن بالظعينة. قلنا لها: أخرجى الكتاب. قالت: ما معى كتاب. فقلنا: لتُخْرِجِن الكتاب أو لَتُلْقِينّ الثياب. (أى للتفتيش) قال: فأخرجته من عقاصها.

فاتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه:

من حاطب بن أبى بلتعه إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟

قال: يا رسول الله لا تعجل على. إنى كنت أمرأ ملصقًا فى قريش يقول: كنت حليفًا. ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين ممن لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم. فأحببت إذ فاتنى ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدا يحمون قرابتى ولم أفعله ارتداد عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: أما أنه قد صدقكم.

فقال عمر: يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق. فقال: إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. فأنزل الله السورة: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة. . إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾[1].

وبتدبر هذا الحديث نرى أن مودة الكفار ومعاونتهم جريمة كبرى يستحق صاحبها القتل. كما فى قول عمر: دعنى أضرب عنق هذا المنافق.

وأن جريمته تلك تدخل فى باب النفاق العملى المشار إليه فى قوله ﷺ: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا. ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة

(١) صحيح البخارى جـ٥ ص١٨٤ ـ ١٨٥. طبعة كتاب الشعب.

من النفاق حتى يدعها إذا أئتمن خان وإذا حدث كذب وإذا عاهد غدر. وإذا خاصم فجر».

وإن كان قد خفف عنه أنه شهد بدرا فحسب. أما ما ذكره هو من أعذار فلا قيمة له ولا تدفع عنه وزر هذه الجريمة.

هذا ولقد تكرر فى القرآن الكريم نهى المسلمين عن شكر الكفار وأهل الكتاب بمودتهم وموالاتهم ومحبتهم. وذم من فعل هذا تارة بأنه بذلك يكون كافرًا مثلهم. وتارة أخرى بأنه بفعله هذا يعرض نفسه لسخط الله. وتارة ثالثة بأنه آنذاك ليس من الله فى شىء. ولم يبح موالاة الكافرين ظاهرًا إلا فى حالة واحدة وهى حالة ضعف المسلمين وقوة الكفار. وتكون تلك الموالاة ظاهرية فقط. وبقدر تلك الضرورة.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾(1).

قال ابن كثير: وفى هذا تهديد شديد ووعيد أكيد.

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾(2).

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾(3).

وقال تعالى أيضًا: ﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾(4).

---

(1) المائدة: ٥١.

(2) المائدة: ٥٧.

(3) النساء: ١٤٤.

(4) آل عمران: ٢٨

وقال تعالى أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

ومن هذه النصوص القرآنية الكثيرة. والمثبوتة فى ثنايا القرآن الكريم. يتأكد لنا نهى القرآن الكريم عن شكر الكافرين وأهل الكتاب بموالاتهم. وإن شكرهم هذا من الشكر المذموم.

والنهى عن شكر هؤلاء وذمه شيء غير برهم ومعاملتهم بالحسنى والعدل. إذا عاملونا بمثل ذلك لقوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾[2]. فليس فى برهم ومعاملتهم بالحسنى ثناء على كفرهم وعصيانهم باللسان. ولا تقرير لكفرهم وعصيانهم فى القلوب ولا معاونة لهم على ذلك.

هذا ومن الشكر المذموم أيضًا. الشكر باللسان بصفات لا توجد فى الموصوف رياء ومصانعة. وآثار هذا الشكر المذموم الضارة كثيرة.

ففى مدح الإنسان بما ليس فيه، فيه ما يطغيه، ويبعده عن التخلق بالأخلاق الحميدة ويشيع فى المجتمع النفاق الاجتماعى. فلا يكون هناك أمرًا بمعروف ولا نهى عن منكر. وفى مثل هذا الشكر المذموم ورد قوله ﷺ: «إذا رأيتم المادحين فاحثوا فى وجوهم التراب»[3].

قال العتبى: «هو المدح الباطل والكذب. أما مدح الرجل بما فيه فلا بأس به.

وقد مدح أبو طالب والعباس وحسان وكعب وغيرهم رسول الله ﷺ ولم يبلغنا أنه حثا فى وجه مادح ترابًا.

وقد مدح هو ﷺ المهاجرين والأنصار.

---

(٢) التوبة: ٢٣.

(٣) الممتحنة: ٨.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه، وأحمد فى مسنده ـ الجامع الصغير جـ١ ص٤٣.

وكان أبو بكر الصديق إذا مدح قال: اللهم أنت أعلم بى من نفسى، وأنا أعلم بنفسى منهم. اللهم اجعلنى خيراً مما يحسبون واغفر لى ما لا يعلمون. ولا تؤاخذنى بما يقولون.

ولقد مدح سارية سيدنا رسول الله ﷺ. وهو سارية الذى ناداه سيدنا عمر وهو على منبره. وسارية بآسيا الصغرى.

مدحه بقوله:

فما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبـر وأوفـى مـن مـحـمـد

وهو أصدق بيت قالته العرب[1].

---

(١) المستطرف فى كل فن مستظرف. تأليف الإمام شهاب الدين أحمد الابشيهى ص١٣٠. كتاب الزهد ٦٨ ٦٩ جـ١٨ ص١٢٨.

الفصل الثاني

(أ) نعمة الإيجاد «خلق الإنسان»

ذكر القرآن الكريم من الآيات التى تشير إلى خلق الإنسان. ليذكر الإنسان بهذه النعمة الجليلة. نعمة الإيجاد. وليحثه على شكرها.

قال تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧)﴾.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣)﴾.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨)﴾.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾.

ويقول صاحب روح المعانى مشيرًا إلى هذه النعمة فى تفسيره:

«الإنسان يعود فى أصله إلى آدم المخلوق من الطين. أو أن المادة المكونة للإنسان إنما هى من الطين».

فهذا النبات يخرج من الأرض ويأكله الحيوان. ويتغذى الإنسان بكليهما فتكون النطف الحاصلة من الغذاء. الذى هو سلالة الطين وصفوته.

والمراد بالإنسان الجنس. والسلالة من سللت الشىء من الشىء إذا استخرجته[1] منه. ويشير ﷺ إلى تدرج خلق الإنسان فى بطن أمه بقوله:

«إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمه أربعين يوما نطفة. ثم يكون علقة مثل ذلك. ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يبعث الله ملكا ويؤمر بأربع كلمات. ويقال له: اكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد. ثم ينفخ فيه الروح»[2].

وقال قتادة: استل آدم من الطين.

ويقول الإمام الفخر الرازى مشيرًا إلى نعمة الخلق هذه «نعمة الإيجاد» عند تفسيره لآيات سورة المؤمنين. التى تفصل القول فى نعمة الإيجاد.

يقول الفخر: السلالة: الخلاصة. لأنها تسل من بين الكدرة واختلف أهل التفسير فى المراد بالإنسان هنا.

فقال ابن عباس وعكرمة وقتادة ومقاتل: المراد منه آدم عليه السلام فآدم سل من الطين وخلقت ذريته من ماء مهين. ثم جعلنا الكناية راجعة إلى الإنسان الذى هو ولد آدم. والإنسان شامل لآدم عليه السلام ولولده. وقال آخرون: الإنسان ههنا ولد آدم والطين ههنا اسم آدم عليه السلام. والسلالة هى الأجزاء الطينية

---

(١) روح المعانى جـ ١٨ ص١٣.

(٢) راوه أحمد فى مسنده جـ١ ص٣٧٤ ورواه مسلم فى صحيحه جـ١٦ ص١٨٩.

المبثوثة فى أعضائه التى لما اجتمعت وحصلت فى أوعية المنى صارت منيا.

وهذا التفسير مطابق لقوله تعالى ﴿ **وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ** (٧) **ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ** (٨) ﴾. وفيه وجه آخر. وهو أن الإنسان إنما يتولد من النطفة وهى إنما تتولد من فضل الهضم الرابع وذلك إنما يتولد من الأغذية وهى إما حيوانية وإما نباتية. والحيوانية تنتهى إلى النباتية. والنبات إنما يتولد من صفو الأرض والماء فالإنسان بالحقيقة يكون متولدًا من سلالة من طين. ثم إن تلك السلالة بعد أن تواردت على أطوار الخلقة وأدوار الفطرة صارت منيا. وهذا التأويل مطابق للفظ ولا يحتاج فيه إلى التكلفات.

المرتبة الثانية: قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ ومعنى جعل الإنسان نطفة إنه خلق جوهر الإنسان أولاً طينًا. ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة فى أصلاب الآباء تقذفه الصلب بالجماع إلى رحم المرأة فصار الرحم مكينًا لهذه النطفة والمراد بالقرار موضع القرار وهو المستقر فسماه بالمصدر ثم وصف الرحم بالمكانة التى هى صفة المستقر فيها كقولك طريق سائر أو لمكانتها فى نفسها لأنها تمكنت من حيث هى.

المرتبة الثالثة: قوله تعالى ﴿ **فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا** ﴾ أى جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أى قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ كالفرقة وهى «مقدار ما» وسمى التحويل خلقا لأنه سبحانه يفنى بعض أعراضها ويخلق أعراضًا فسمى خلق الأعراض خلقًا لها وكأنه سبحانه وتعالى يخلق فيها أجزاء زائدة.

المرتبة الخامسة: قوله ﴿ **فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا** ﴾ أى صيرناها كذلك.

المرتبة السادسة: قوله تعالى ﴿ **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا** ﴾ وذلك لأن اللحم يستر العظم فجعله كالكسوة لها.

المرتبة السابعة: قوله تعالى ﴿ **ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ** ﴾ أى خلقًا مباينًا للخلق الأول مباينة ما أبعدها حيث جعله حيوانًا وكان جمادًا. وناطقًا وكان أبكم. وسميعًا وكان أصم. وبصيرًا وكان أكمه وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من

أعضائه وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ولا شرح الشارحين. وروى العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: هو تصريف الله إياه بعد الولادة فى أطواره فى زمن الطفولية وما بعدها إلى استواء الشباب وخلق الفهم والعقل وما بعده إلى أن يموت. ودليل هذا القول أنه عقبه بقوله ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ وهذا المعنى مروى أيضًا عن ابن عباس وابن عمر وإنما قال ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ﴾ لأنه جعل إنشاء الروح فيه وإتمام خلقه إنشاء له قالوا فى الآية دلالة على بطلان قول النظام فى أن الإنسان هو الروح لا البدن فإنه سبحانه بين أن الإنسان هو المركب من هذه الصفات وفيها دلالة أيضًا على بطلان قول الفلاسفة الذين يقولون إن الإنسان شىء لا ينقسم وأنه ليس بجسم أما قوله ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أى فتعالى الله فإن البركة يرجع معناها إلى الامتداد والزيادة وكل ما زاد على الشىء فقد علاه ويجوز أن يكون المعنى. والبركات والخيرات كلها من عند الله تعالى. وقيل أصله من البروك وهو الثبات. فكأنه قال والبقاء والدوام. والبركات كلها منه فهو المستحق للتعظيم والثناء. وقوله ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ أى أحسن المقدرين تقديرًا فترك ذكر المميز لدلالة الخالقين[1].

ويقول ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن ابتداء الإنسان من سلالة من طين وهو آدم عليه السلام حيث خلقه الله من صلصال من حمإ مسنون[2] ثم خلقنا النطفة علقة. أى ثم صيرنا النطفة وهى الماء الدافق الذى يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة إلى علقة حمراء مستطيلة. فخلقنا العلقة مضغة وهى قطعة كالمضغة من اللحم لا شكل فيها ولا تخطيط فخلقنا المضغة عظامًا يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها فكسونا العظام لحما أى جعلنا على ذلك ما يستره ويشده ويقومه. ثم أنشأناه خلقا آخر. أى ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقًا آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب. فتبارك الله أحسن الخالقين. أ. هـ.

---

(١) الفخر الرازى جـ٢١ ص٨٤ ـ ٨٥.

(٢) ابن كثير جـ٣ ص٢٤٠ وما بعدها بتصرف.

ولقد سمى القرآن الكريم رحم المرأة بالقرار المكين. لأن الله عز وجل أعده إعدادًا خاصًا يليق بهذا النبت الجديد. وأحاطه بالرعاية والعناية ووفر له كل احتياجاته ومستلزمات حياته.

ومهما قيل فى ذلك فلن يكون هناك أبلغ من قوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

هذا حديث القرآن عن نعمة الإيجاد «خلق الإنسان» فما حديث العلم الحديث عنها؟ يقول العلم الحديث:

لو قمنا بتحليل الإنسان إلى مكوناته الأساسية لوجدنا أن هناك عشرين عنصرًا تشترك فى تكوينه بكميات متفاوتة. وكلها من طين الأرض.

ففى الإنسان الذى يزن فى المتوسط سبعين كيلو جرامًا تقريبًا.

نجد أن هناك ما يقرب من خمس وخمسين كيلو جرامًا من الماء. وهو الذى يكون الطين مع تراب الأرض.

وما تبقى من الإنسان يشكل من ٦٠ إلى ٨٠ فى المائة منها. الكلور والكبريت والفسفور والمغنسيوم والكلس والبوتاس والصوديوم.

وهناك سبعة مواد أخرى تدخل بكمية أقل: هى الحديد والنحاس واليود والماغنيسيوم والكوبلت والثوثياء والموليبدنيوم.

وهناك ستة عناصر أخرى تدخل فى تكوين جسم الإنسان بشكل زهيد جدًا ووظائفها غير معروفة بالضبط.

وهى الفلور والالمنيوم والبور والسيلينيوم والكاديوم والكروم[1].

ومع ذلك فلكل معدن من هذه المعادن فى جسم الإنسان وظيفة واحدة أو أكثر فالكلس للتخثر. والثوثياء فى بناء الأنسولين لحرق السكر.

والكلس والفوسفور والمغنسيوم لبناء متانة العظام والأسنان. والفلور فى متانة الأسنان ووقايتها. والحديد يدخل فى تركيب الخضاب الدموى.

---

(١) المصدر السابق ص٩٨.

ولكل معدن من هذه المعادن ولعه الخاص بالتمركز فى أمكنة خاصة به. فالحديد فى الكريات الحمر. والنحاس فى الكبد والفوسفور فى الدماغ والبوتاس فى الخلايا والمغنسيوم والكلس فى العظام أيضًا. والكلور للمعدة وهكذا[١].

وإذا ما تضافر الكلس مع الفوسفور والمغنسيوم والفلور فإنه يكون سبيكة عالية المتانة. تتكون منها الأسنان والعظام.

ولقد رد أحد العلماء مكونات جسم الإنسان إلى العناصر الأساسية التالية:

إذا كان هنا إنسان يزن مائة وأربعون رطلا فإن بدنه يحتوى على المواد التالية:

(قدر من الدهن يكفى لصنع ٧ قطع من الصابون).

(وقدر من الكربون يكفى لصنع سبعة أقلام رصاص).

(وقدر من الفوسفور يكفى لصنع مائة وعشرين عود ثقاب).

(وقدر من ملح الماغنسيوم يصلح جرعة واحدة لأحد المسهلات).

(وقدر من الحديد يمكن عمل مسمار متوسط الحجم منه).

(وقدر من الجير يكفى لتبييض بيت الدجاج).

(وقدر من الكبريت يطهر جلد كلب واحد من البراغيث التى تسكن شعره).

(وقدر من الماء يملأ برميلا سعته عشر جالونات).

وهذا المواد تشترى من الأسواق بمبلغ من المال يساوى خمسين أو ستين قرشًا مصريًا[٢].

وتلك هى قيمة الإنسان المادية بلا روح نفخة من السماء أختص بها هذا الكائن الفذ. فالإنسان بجسده عبارة عن مجموعة عناصر كلها موجودة فى تراب الأرض ولكن الحكمة فى ترابط هذه العناصر بعضها ببعض وتشكلها بحيث ينشأ

---

(١) المصدر السابق ص٩٨.

(٢) نظرات فى القرآن ص٦٠ محمد الغزالى.

عن ذلك جسد إنسانى وفوق هذا نفخ الروح فى هذا المخلوق العجيب المليء بالأسرار الذى تقتضيه معرفته لنفسه معرفة ربه فيلتزم ما أمر وينتهى عما نهى[1].

وبعد أن يذكرنا الله عز وجل بطبيعتنا الترابية فى أساسها يعلمنا بما تم إليه هذا التحول وهو النطفة فقال تعالى ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

والنطفة هذه مصونة محرزة فى قرار ثابت قوى لا تنفصل لثقل حملها ولا تمج ما فيها قبل وقته وميعاده[2].

والرحم كما وصفته الآية الكريمة قرار مكين حقًا حيث أنه يتلقى الحماية من كافة الجهات فهناك عظم العجز والعصعص من الخلف ومن الجانبين والأمام عظام الحرقفة الذى يشكل حلقة الاتصال ما بين العمود الفقرى فى الأعلى والعجز فى الخلف. وعظم العجز من الأسفل وهو ما يسمى بالزنار الحوضى[3].

فالعظم يحمى الرحم تمامًا ويكون جوفًا محميًا من كافة الجوانب يستقر فيه الرحم. وهذه الحماية يجب أن تتناسب مع وظيفة الرحم من استقبال للنطفة إلى إخراج المولود بسلام كما أن على هذا العظم التلاؤم مع هيكل الجسم العام. بحيث يستقبل ضغط عظم الفخذ من الأسفل وثقل الجسم من الأعلى من خلال العمود الفقرى وهو مقر لارتكاز عشرات العضلات والأربطة. وعليه أن يحتوى العديد من الحفر والثلم لمرور الألياف والأعصاب والشرايين والأوردة.

وأخيرًا فعليه مهمة تكوين الدم ونقل الكلس والفوسفور والمغنسيوم من العظام وإليها.

فهذه الحماية الربانية أشارت إليها الآية الكريمة بالقرار المكين وعلى الإنسان أن يبحث فى إبداع خلق الإنسان ووظائف أعضائه ليدرك مدى الحماية التى وفرتها الحكمة الألهية للرحم البشرى هذا القرار المحاط بالحماية من جوانبه وهذا الرحم

---

(١) رسالة محمد فريد ص١٦١ دار الكتب الحديثة.

(٢) روح المعانى جـ١٨ ص١٣ للالوسى.

(٣) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٣٨.

الذى يكون حجمه قبل الحمل ما يقرب ٢,٥ سم^3 فإنه يتجاوز بعد الحمل ٥٠٠٠ سم^3. ولقد كان من عظيم حكمته عز وجل أن دور الحماية هذا أظهر ما يكون فى بداية الحمل عندما تدخل النطفة ويبدأ تكوين الجنين ويكون الخطر كبيراً على هذه المضغة. فالخطر يكون كبيراً على الحمل فى مراحله الأولى[١]. والرحم محمى بالحزام الأمنى العظمى وبحماية هرمونية تجعله لا يتجاوز مكانه إلا عندما يكبر الجنين باتجاه البطن وقد أصبح إلى حد كبير فى أمان من الخطر.

كما أن جسم الرحم يقف فى الفراغ بين أربطة تشده من الإمام والخلف والجانبين والأعلى والأسفل بحيث ينتظم وقوفه ويؤدى وظيفته ويحمى الجنين وأى خلل يتم على هذا التوازن معناه الإجهاض.

وهذه النطفة البسيطة المتناهية فى الصغر النازلة فى ذلك القرار المكين تجد من الظروف المناسبة ما يساعدها على تحقيق مهمتها ويدرأ عنها الأخطار فهناك ملايين النطف في القذفة الواحدة تكفى واحدة منها للتقليح. والنطفة فى طريقها تمشى كالغواصة تشق عباب الافرازات المختلفة ولا تصطدم بالجدران وحتى ولو اصطدمت فإن القلنسوة التى هى غطاء الرأس تجعل ذلك الحيوان مصفحًا لا يتأثر[٢].

وبجانب هذه النطفة تمشى ملايين النطف فى سباق عظيم إلى الهدف المنشود وتسير هذه النطف بأسواطها إلى حيث تلاقى البويضة فى الوقت المناسب لنضجها وتقترب منها مرسلة أنزيما خاصًا يعتبر كرسول للبويضة يطلب منها الأذن بالدخول[٣]. وبعد أن يتم الاتحاد يستمر النمو حتى يصبح حجم الجنين وقت الولادة ٣٢٥٠٠جم) على وجه التقريب ويبلغ عدد خلاياه ٢٠٠ بليون خلية.

ويحاط هذا الجنين بالمشيمة التى تكفل له حاجاته كلها فتسمح بمرور المواد الغذائية المهضومة والأكسجين من دم الأم إلى الطفل بينما تخرج ثانى أكسيد

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ ص٢٣٨.

(٢) الطب محراب الإيمان جـ ٢ ص٢٤.

(٣) الطب محراب الإيمان جـ١ ص٧٣، ٧٤.

الكربون وبعض المواد الضارة فى جسم الطفل إلى دم الأم[1]. وتعمل المشيمة كحاجز بين المواد الضارة فى الدم والجنين فهى تعمل كالمصفاة التى تمرر الطيبات وتنقى الخبائث.

غير أنها تحت ضغط هذه السموم وكثرتها قد تسمح بمرور بعض العقاقير القوية التى تعطل عمل هذه المصفاة كالكحول والسموم ولذلك يؤثر النيكوتين الناتج عن التدخين والكحول الناتج عن الخمر على الجنين أضعاف تأثيره على الأم[2].

وعندما يتم اتحاد النطفة بالبويضة ينشأ عن ذلك العلقة التى تعلق بجدار الرحم ثم تبدأ فى النمو حتى تصبح مضغة وهى قدر ما يمضغ من اللحم ثم يستمر التدبير والتقدير حتى تجىء المرحلة الثالثة مرحلة العظام ثم مرحلة كسوة العظام باللحم.

ويقف الإنسان مشدوها أمام ما أخبر به القرآن الكريم من أن خلايا العظام غير خلايا اللحم وأن خلايا العظام هى التى تتكون أولاً فى الجنين ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظم وتمام خلايا الهيكل العظمى للجنين[3].

ومعلوم أن خلايا اللحم تتكون من خلايا العظام التى أكتمل نموها وبعد ذلك يأتيه الملك فينفخ فيه الروح ويصبح خلقًا حيًا آخر وغير ما كانت عليه تلك الخلايا قبل تلك الفترة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4].

وهذا الخلق الآخر هو قذف الروح فيه ليصبح إنسانًا له خصائصه ومقوماته فالحياة الإنسانية ليست عناصر أرضية نشأت منها وانتهت إليها. وإنما هناك عنصر

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ١ ص٧٣، ٧٤.
(٢) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص٣٩..
(٣) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر جـ٤ ص٣٩.
(٤) المؤمنون: ١٤.

غير أرضى قد امتزج بها وتدخل فى سيرها وهذه النفخة الربانية جعلت له غاية ونهاية غير نهاية اللحم والدم[١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾[٢].

فآدم خلق من طين ثم صور وذريته خلقوا فى الأرحام ثم صوروا فيها فى أحسن تقويم وتشكلت الأعضاء وأخذ الإنسان شكله الخاص به[٣].

ومن الملاحظ أن هذا التصوير يتم فى دقة متناهية فالعين لا تكون محل الفم ولا يمكن أن يكون الفم مكان الشرج ولو كان هناك أدنى تحول أو إنحراف فى تنظيم هذه الخلايا وترتيبها لنشأ عن ذلك تشوهات خلقية يعجز الإنسان عن الحياة بها.

ومكث الإنسان فى الرحم له فى الغالب مدته المعلومة فالأرحام هى مستقر لهذه النفس الإنسانية التى بدأ تشكلها.

قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ولقد نبهت الآيات القرآنية إلى أن هذه النفس الإنسانية لها مستقر كما أن لها مستودعًا[٤].

ويذكر الشيخ نديم الجسر إبداع المولى عز وجل فى خلق الإنسان حسب ما اكتشفه العلم الحديث فى عهده فيقول:

«بيضة مثل بيضة الدجاجة. ولكنها أصغر منها بكثير. قطرها يتراوح بين جزء وجزءين من (٢٤٠) جزءًا من القيرط. أى جزء أو جزءين من عشرة أجزاء من المليمتر ووزنها جزء من مليون جزء من الجرام.

وفيها مخ وفى المخ الحويصلة الجرثومية التى يبلغ قطرها جزء من (٧٠٠) جزء من القيرط. فيها النقطة الجرثومية التى يبلغ قطرها جزء من (٣٠٠٠) جزء من القيراط.

---

(١) روح المعانى جـ١٨ ص١٥.

(٢) الأعراف: ١١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ٤ ص٢٦٠٥.

(٤) الحج: ٥.

هذه البيضة تتكون فى ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح فى سائلها الاليومينى. فإذا نمت هذه الحويصلة وازداد السائل الذى فى بطنها يتمدد غشاءها ويرق ثم ينفجر وتخرج البيضة منها. ومن المبيض كله.

إلى أن تتلاقى بالحيوان المنوى. وهو صغير جدًا بالنسبة إلى البويضة الضخمة لأن طوله عبارة عن ٦٠ جزءًا من ألف جزء من المليمتر.

ويأتى البيضة سابحًا سبحًا سريعًا حتى يصل إليها. وسبحه إليها يكون فى حركة لولبية.

وشكل الحيوان المنوى عجيب. فهو له رأس مكور. ولرأسه عنق لولبى ولعنقه ذنب طويل يضرب به الماء الذى يسبح فيه. وهو السائل المنوى المحيط به وهذا الذيل معقود بأنشوطة لينفك من الحيوان المنوى إذا دخل إلى البويضة.

وعدد الحيوانات المنوية فى القذفة الواحدة كثير جدًا يربو على (٢٠٠) مليون حيوان منوى.

ولا يدخل بويضة الأنثى إلا القوى منها.

وما يكاد يتم تلقيح البويضة بالحيوان المنوى حتى يبدأ العمل المشترك فى بناء الإنسان الجديد. فيخلط كل منهما ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط النووى «الكروموزومات» وما فيها من الخلق المخلقة «الجينات».

التى خطتها وخلقتها وسوتها يد القدرة بأقلام الإرث المنحدر عبر الأجيال من الأجداد والأباء إلى الأبناء والأحفاد.

والمشار إلى ذلك كله فى القرآن بقوله تعالى: ﴿مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[١]. ﴿سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾[٢].

ومن هذه الاخلاط تتكون النطفة الامشاج التى أشار إليها أحسن الخالقين.

والكروموزومات والجينات هى عناصر التخطيط والتخليق التى يخلق الله بها

---

(١) المؤمنون: ١٢.

(٢) السجدة: ٨.

المضغة لتكون بشرًا سويًا. يتميز عن غيره من الناس. بكل صفاته الجسدية والعقلية.

من شكل وقد ولون وذكورة وأنوثة وقوة وذكاء وأخلاق.

ترسم كلها للفرد الخطوط الأولى من حظه فى الحياة.

فقد كان الناس فى الماضى يعرفون أن الجنين يتكون من تلاقح بين بويضة الأنثى وماء الذكر. وأنه يرث من أبويه وأجداده كثيرًا من صفاتهم.

ولكنهم ما كانوا يعرفون ما هو الحيوان المنوى. وما هى البيضة. وما تركيبها. وما خلاياهما وما أنواعهما. ووظائفهما وكيف يتم التلاقح وكيف يحصل التوارث ويحار المفسرون للقرآن فى تفسير المضغة المخلقة وغير المخلقة.

أما اليوم فقد عرف العلماء أكثر أسرار هذا الخلق العجيب حين كشفوا عن الخلايا وعرفوا وظائف كل قسم منها.

ورأوا بعيونهم ما يحمل الحيوان المنوى فى رأسه وما تحمل البويضة فى نواتها من عناصر التخطيط التى سبق ذكرها فأدركوا الفرق بين خلايا المضغة المخلقة التى تكون الجنين ذاته. وبين غير المخلقة التى تتولى أمر حفظه وتغذيته فامتلات قلوبهم بالخشية التى خص الله بها العلماء من عباده.

هذا ثم تسير هذه البويضة الملقحة «النطفة الامشاج» سيرًا رهوا بطيئًا فى البوق فلا تنتهى منه إلى الرحم إلا بعد ثمانية أيام أو عشرة تقوم خلالها بتقسيم نفسها تقسيمًا بعد تقسيم. لكى تهيئ كل قسم وتعده للدور الذى سيقوم به فى تكوين الجنين الجديد. أو فى حفظه وحمايته. أو فى تغذيته.

وتصل هذه «النطفة الامشاج» إلى الرحم المهيىء لها فتلتصق بجداره وتبدأ خلايا الأقسام عملها العظيم بالتعاون مع بعضها أو مع خلايا جدار الرحم.

فتجعل حول الجنين غلافًا فوق غلاف فوق غلاف.

أما الغلاف الظاهر الذى يحيط بجميع الأغشية ويسمى (السلى) فتتخذ من

جانبه الملاصق لجدار الرحم وسيلة للتغذية الأولية. ثم لتكوين المشيمة العجيبة. وتتخذ من جانبه الظاهر غير الملتصق بجدار الرحم وسيلة لوقاية الجنين وحفظه أما الغلاف الثانى الباطن. فتنسجه بعد ذلك تحت الكوريون ليحيط بالجنين إحاطة كاملة من وراء غلاف مائى يحيط بالجنين إحاطة كاملة مباشرة ليقيه مع الغلافين الأولين كل صدمة أو رجة تأتى من الخارج.

وتبدأ فى الوقت نفسه الخلايا الجرثومية «المخلقة» التى تكون الجنين سيرها فى تطورها من نطفة إلى علقة إلى مضغة على الترتيب الذى ذكره القرآن.

ومن هذه المضغة المخططة المخلقة «بكرموزماتها» المتخالطة و «جيناتها» يبدأ تكوين الأعضاء والأحشاء كما بدأ تكوين أغشية الحفظ والوقاية والتغذية من الخلايا الحية غير المخلقة.

فيقوم قسم من الخلايا الجرثومية بتكوين مبادىء العمود الفقرى إلى جانب خلايا أخرى تقوم بتكوين مبادىء الأحشاء من الجهاز الهضمى والتنفسى والتناسلى إلى جانب أخرى تقوم بتكوين العظام.

كل فى دائرة اختصاصه.

فلا ينتهى الشهر الثانى إلا وتكاد المضغة تصبح إنسانًا كاملاً بجميع أعضائه وأحشائه وأعصابه.

هذا وخلايا الكوريون وخلايا جدار الرحم تشتركان فى صنع المشيمة للجنين.

وذلك لأن الجنين إذا صار مضغة وتكونت أعضاءه يحتاج إلى طريقة من التغذية غير الطريقة الامتصاصية الارتشاحية الساذجة التى تحصل بين حمل الكريون وبين جيوب الدم الرحمية.

لأن حاجة الجنين إلى الدم إذا كبر ستكون أكبر. وحاجة الدم إلى التصفية إذا كثر ستكون أكثر. وإن دم الأم لا يجوز أن يدخل بذاته إلى الجنين. وإن دم الجنين يجب أن يتخلص من أقذاره وسمومه.

فلا بد من إيجاد آلة كبرى تتولى هذا الترشيح والتوريد والتصدير بين دم الأم الوارد الطهر ودم الجنين الصادر القذر.

فخلق الله المشيمة العجيبة من حمل الكوريون وأهدابه. ومن جيوب الدم الرحمية وجعلها موصولة بسرة الجنين بحبل. يحمل منها إليه عناصر الغذاء والأكسجين التى تستخلصها المشيمة من دم الأم. ثم يحمل الحبل من الجنين إلى المشيمة فى وريد آخر ما يتكون فى جسم الجنين من سموم وأقذار. حتى إذا خرج الجنين من ظلماته الثلاث إلى عالم النور والهواء والثدى. وأصبح قادرًا على أن يتنفس الهواء برئتيه. ويتمص الغذاء بشفتيه. ويحرق قمامته فى سحره. ويلفظها من نحره. قطعت المشيمة وسد باب السرة.

هذا ويلفت النظر فى خلق الجنين تكونه من بويضة الأنثى ـ والحيوان المنوى للرجل.

وإن كلا منهما يخلط ما عنده بما عند الآخر من عناصر التخطيط.

وهكذا يطرد نظام الزوجية فى المخلوقات جميعها. حتى ينفرد بالوحدانية المطلقة المولى الخالق عز وجل.

يقول تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾[١].

كما يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[٤].

---

(١) النجم: ٤٥.

(٢) فاطر: ١١.

(٣) الرعد: ٣.

(٤) يس: ٣٦.

ويقول تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[١].

هذا بعض ما يقوله القرآن الكريم عن نظام الزوجية الذى تشير الآيات إلى شموله واطراده فى كل شىء من الأحياء نباتًا كان أو حيوانًا أو إنسانًا.

بل أرى أن الآيات تشير إلى شموله واطراده فى كل المخلوقات بما فى ذلك الجمادات أيضا وغيرها: لعموم قوله تعالى ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾.

فماذا يقول العلم الحديث عن هذا النظام العجيب الذى سبق القرآن الكريم إلى الإشارة إليه؟

يقول العلماء والعجب يأخذ منهم مأخذه ـ إن نظام الزوجية مطرد وشامل لجميع الأحياء من الحيوانات والنباتات كلها بطريقة واحدة. ونسق واحد. وأعضاء تكاد تكون متماثلة. ولقاح يكاد يكون متماثلاً. مما يشير إلى ما فى اطراد الزوجية فى النبات والحيوان بل والجماد من دليل عظيم على القصد وعدم المصادفة فى الوجود[٢].

ويشير الدكتور السيد الجميلى إلى الحكمة فى تلك الأطوار التى يمر بها الجنين. من نطفة إلى علقة إلى مضغة فيقول:

«لعل الإنسان يدرك أن جسده لا يقبل دخيلاً عليه أى يكره الغريب عنه النزيل عليه والجسم يرفض أى شىء غريب ليس منه».

وحين يقذف الذكر بالنطفة فى رحم الأنثى فإنه تحدث تغيرات مروعة رهيبة واضطرابات «فسيولوچية» هائلة حتى تستقر النطفة مكانها.

فعندما يقوم البروجستيرون بتثبيت النطفة وتمكنها من الرحم يثور باقى جسم الأنثى. ويتمرد ليعبر عن ضيقه بالجديد ذرعًا.

---

(١) الذاريات: ٤٩.

(٢) قصة الإيمان ص٣٣٧، ٣٧٨ بتصرف.

ولكن ما أمر الله به وأراده هو الماضى.

ترى الأم فى الأسابيع الأولى من الحمل تكابد وتقاسى وتعانى من آلام فى منطقة العانة. وآلام مبرحة شديدة. ووجع بالظهر وفى سائر الجسم فضلاً عن تلون الحلمتين بلون بنى داكن. ويصبح ملمسهما مؤلمًا مع غثيان وقىء عند الصباح فى كل يوم. وتشعر الأنثى فى تلك الفترة بالهبوط والخمول والكسل وعدم القدرة على العمل والميل إلى النوم.

وتلك الظواهر مجتمعة يسميها أطباء النساء والولادة «أعراض الحمل المبكر».

ومن هذا المنطلق. ومن أجل ذلك كله أراد الله رحمة بالأنثى وشفقة بها أن يتدرج الجنين فى بطنها شيئًا فشيئًا. حتى تتعود عليه وتتقبله وتحتمله.

ولا شك أن فى ذلك رحمة عظمى من المولى عز وجل بالأنثى. وفيه سر التدرج[1].

ويصور صاحب الإعجاز الطبى مراحل تكوين الجنين فيقول:

«ينتقل الجنين فى رحلة الحياة الأولى فى رحم أمه من طور إلى طور. ومن مرحلة إلى مرحلة. ومن تكوين إلى تكوين. وهذه المراحل تنقسم إلى ثلاث مراحل».

المرحلة الأولى: المرحلة البويضية:

فى الأسبوع الأول عقب تلقيح البويضة مباشرة تتكون النطفة من دم متجمد تزيد كثافته قليلاً عن كثافة الدم العادى.

وفى الأسبوع الثانى: تبدأ القدرة الإلهية فى صقلها وتهذيبها إلى رقيقة مستوية على هيئة صفيحة ملساء تتكون من طبقتين هما:

الاندوديوم وهو الطبقة الداخلة والاكتوديوم وهو الطبقة الخارجية تمتد مرحلة

(١) الإعجاز الطبى ص٤٢.

الحويصلية من بدء إخصاب البويضة إلى أسبوعين أو ثلاثة أسابيع من تاريخ تلقيحها بالحيوان المنوى أو انغماسها فى تربة الرحم.

وفى الأسبوع الثالث تتكون الطبقة الثالثة وهى الوسطى والمسماه الميزوديوم وتصبح الطبقات الجينية الثلاث من الخارج إلى الداخل على التوالى هى:

الاكتوديوم والميزوديوم والاندوديوم.

كما تظهر فى هذه المرحلة ثنيتا الرأس والدماغ من ناحية وثنية الذيل من ناحية أخرى ثم تبدأ التحورات المختلفة فى الجنين ليأخذ شكله الآدمى المعروف.

ثانيا : مرحلة التكون الجنيني المبكر :

تبدأ هذه المرحلة من الأسبوع الرابع حتى الأسبوع الثامن أى من ٢٨ يومًا حتى ٥٦ يومًا وهو طور العلقة وهنا يتم تكوين الأجهزة المتميزة كل على إنفراد ومن ثم يتشكل الطفل فى صورته الأولى.

ثالثا : مرحلة التكوين الطفيلي :

وتمتد من الشهر الثانى حتى الولادة. وهنا يكون قد تم تمييز الشكل الخارجى للجنين تمامًا وتنفرد الأجهزة المختلفة كل على حدة.

وسنتناول بشىء من الإيجاز والتركيز ما يدور فى فترة الحمل من النطفة إلى تكوين الجنين الكامل حتى ولادته شهر بشهر.

الشهر الثانى القمرى:

وهو الطور الجنينى المبكر وتظهر فيه الأجهزة المختلفة قبيل انتهائه على هيئة نتوءات تبرز شيئًا فشيئًا ثم تظهر اليدان والرجلان كبراعم.

تنثنى الرأس فى شكل زاوية حادة على الجذع ويتحور ويتطور الوجه شيئًا فشيئًا كذلك ثم تبدو الأعضاء التناسلية حيث يتم تمييز الجنس فى الأسبوع الثانى عشر سواء ذكر أو أنثى.

الشهر الثالث القمرى:

وهى مرحلة التكوين الطفيلى ويكتمل فيه التكوين الآدمى. الرأس منثنية على الكتفين لكن تظل العينان مغلقتين حتى الشهر السادس واللتان تتفتحان فيه.

الشهر الرابع القمرى:

تنمو الجبهة وتزداد فى النمو وتعرض ويتصل الحبل السرى فوق العانة ويظهر شعر الرأس وطول الجنين فى هذا الشهر يصل إلى ١٥ سم تقريبًا.

الشهر الخامس القمرى:

مع مطلع ذلك الشهر يتحرك الجنين ويطول شعر رأسه ويبلغ طول الجنين عند ذلك ٢٠ سم.

الشهر السادس القمرى:

يظهر شعر الحاجبين ويبلغ طول الجنين نحو ٣٠سم.

الشهر السابع القمرى:

تتفتح فيه العينان رغم أنهما لا تريا شيئًا ويحمر لون الجلد وتنزل الخصيتان إلى كيس الصفن ويصل طول الجنين هنا إلى نحو ٣٥ سم.

الشهر الثامن والتاسع القمريان:

يغطى الجلد بطبقة دهنية زيتية رقيقة ويتكون الدهن تحت الجلد وتصل الأظافر إلى آخر الانامل ويبلغ طول الجنين ٤٥ سم وعند الولادة يصل وزن الجنين إلى خمسة كيلو جرامات ويصل الحبل السرى إلى وسط الجسم وتنزل الخصيان تمامًا إلى كيس الصفن ويبلغ طول الجنين عند ولادته نحو خمسين سم.

ويقول الدكتور حامد الغوابى. مشيراً إلى إبداع الله عز وجل فى نعمة الإيجاد. معرفًا لنا عن طريق العلم الحديث بالقرار المكين. الذى صرح به القرآن. فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (١٣)﴾[1].

---

(١) المؤمنون: ١٢، ١٣.

يقول الدكتور الغوابى:

«القرار المكين هو رحم المرأة. وهو قرار مكين إذ تربطه ألياف قوية فى موضعه. وتثبته أربطة متماسكة ويحمله حوض من عظام متينة. ففوقه الحجيتان(١) وعلى جانبيه الحرقفتان(٢) وعظام العجز(٣) والعصعص(٤) من خلف له سنادتان. ثم أنه مغطى من أعلى بالمثانة. ومن أسفل بالمستقيم.

وهذا الرحم عظيم الجدار قوى الازار. متماسك العضلات. كثير الانحناءات من الداخل. هيكله مقسم إلى جزء علوى مفرطح من الأمام. وجزء سفلى أقل حجمًا من العنق. وهو يتركب من طبقات ثلاث الأولى: طبقة بريتونية والثانية: طبقة عضلية والثالثة: طبقة من غشاء مخاطى. والطبقة العضلية مكونة من طبقات ثلاث: الأولى سطحية ضفيرية الشكل. والثانية غائرة سميكة مكونة من ألياف حلقية. والثالثة بنيهما. وهى ألياف طويلة. وهذا الرحم حصن الجنين المنيع»(٥).

وقد اختلف العلماء فى أول ما يخلق من جسم الإنسان هل هو الدماغ لأنه مركز الحواس ومنه تصدر وتنبعث؟

أم أنه القلب الذى يشكل خطرًا أى خطر فى حياة الإنسان؟ أم أنه الكبد لأنه المصنع الحيوى وهو قوام البدن والذى يخلق كثيرًا من الفيتامينات وله دوره الحيوى فى دعامة البقاء.

يقول الدكتور الجميلى بعد مراجعة علم الأجنة وطب الأطفال فى دراسة أطوار خلق الإنسان فى بطن أمه.

---

(١) عظمان فوق العانة.

(٢) عظم جانبى فى الحوض يكونه ألياف حلقية، والثالثة بينهما وهى ألياف طويلة وهذا الرحم حصن الجنين المنيع.

(٣) أسفل العمود الفقرى.

(٤) أسفل العجز.

(٥) بين الطب والإسلام ص٢١ وما بعدها بتصرف طبعة وزارة الثقافة سنة ١٩٦٧.

بانتهاء الأسبوع الثالث تتمطى النطفة شيئًا فشيئًا على طول محورها المستوى ثم تحدث ثنيتان عند طرفى النطفة المستقيمة الأولى أمامية وهى ثنية الرأس والثانية خلفية واسمها ثنية الذيل عند كلا الجانبين تتكون ثنيتان جانبيتان ونتيجة الثنية الأمامية أو ثنية الرأس يتكون الدماغ أو المخ فالقلب.

مما سلف ذكره تعرف أن الدماغ والقلب ينشئان من طبقة جنينية واحدة أو من ثنية واحدة وقد سبق أحدها الآخر بثوان معدودة أو حتى ساعات. ثم يتكون الكبد بعد ذلك. ونحن لم نستطيع أن نحدد ولم تقدر أن تثبت على وجه التحديد والدقة فترة تكوينية وخلقه[1].

---

(١) الإعجاز الطبى ص٤٥ بتصرف.

نعمة خلق الإنسان فى أحسن تقويم

ومما يتصل بنعمة الإيجاد نعمة خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

قال تعالى مشيرًا إلى هذه النعمة:

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾[١].

كما قال تعالى مشيرًا إليها أيضًا:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٢].

وقال تعالى أيضًا:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[٣].

وقال ابن كثير فى تفسير ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ أى خلقكم فى أحسن الأشكال ومنحكم أكمل الصور فى أحسن تقويم[٤].

قال صاحب روح المعانى فى تفسيره لهذه الآيات:

كان خلق الله للإنسان على هذه الصورة تكريمًا له واحترامًا. فالإنسان يأكل بيده. والحيوان يتناول طعامه بفمه من الأرض. وهو يسير منتصب القامة رأسه إلى أعلى. وغيره يدب على الأرض على أربع.

ولذا كان ذكر حسن تصوير الإنسان مقرونًا بخلق السماء والأرض. بكل ما فيهما من بدائع وجمال وغرائب كما رأينا فى الآيات المتقدمة.

---

(١) التين: ١ ـ ٤.

(٢) غافر: ٦٤.

(٣) التغابن: ٣.

(٤) جـ٤ ص٨٦.

والمراد بالتصوير هنا هو تناسق الشكل وتناسب الأعضاء وتهيئة الأعضاء لمزاولة الصنائع واكتساب الكمالات.

والتصوير هو التخطيط والتشكيل(١).

ويقول القرطبى:

«فهو مخلوق فى أحسن الأشكال وأكمل الصور وأبدع التراكيب فى جميع أعضائه. ولذلك قالت الفلاسفة: الإنسان هو العالم الأصغر. إذ كل ما فى المخلوقات قد جمع فيه.

قال الشاعر: وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر(٢).

هذا والتقويم إما أن يكون حسن الشكل واعتداله واستقامته.

وإما أن يكون خلقه عالمًا قادرًا متكلمًا سميعًا بصيرًا(٣).

ولقد ذكر القرطبى حادثة لطيفة يبين مدى فهم فقهاء المسلمين وعلمائهم لحسن تقويم الإنسان وبديع تصويره.

وهى أن عيسى بن موسى أحد المقربين للخليفة العباسى المنصور كانت له زوجة فقال لها ذات ليلة: أنت طالق ثلاثًا إن لم تكونى أجمل من القمر. فنهضت الزوجة واحجبت. وقالت له: لقد طلقتنى. وبات تلك الليلة مهمومًا وفى الصباح ذهب إلى دار الخلافة واستشار العلماء والفقهاء فى الأمر. فقال جميع من حضر: لقد وقع الطلاق إلا واحدًا منهم.

فسأله أبو جعفر: مالك لا تتكلم. فقال له الرجل: وكان من أصحاب أبى حنيفة ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤)**﴾ فالإنسان أحسن الأشياء يا أمير المؤمنين. ولا شيء أحسن منه.

---

(١) روح المعانى جـ٢٤ ص١٨٣ الجامع لأحكام القرآن جـ٩ ص٦٥٢٧.

(٢) القرطبى جـ١٠ ص ٧٢٠٠٤.

(٣) ابن العربى. فتح القدير جـ٥ ص٤٦٥.

فقال المنصور للرجل: أقبل على زوجتك. وأرسل إلى زوجته أن اطيعى زوجك فما وقع الطلاق»[1].

«وما أجمله من رأى مستنير انطلاقًا من فهم كلام الله العزيز إذ أنه أصبح من المعلوم بداهة فى عصرنا الحاضر بعد أن وصل الإنسان إلى القمر وشاهد تلاله وبراكينه أن لا وجه للمقارنة والشبه بين الإنسان المكرم المصور فى أحسن صورة. وبين تلك المنخفضات والمرتفعات الجدباء الموحشة.

وفى أغلب الظن أن لو شبه رجل زوجته الآن بالقمر بمنطق العلم فى عصرنا الحاضر لكان فى الأمر غمز خفى يدركه كل جاهل ومتعلم»[2].

«ولقد ذكر بعض الحكماء فى بدن الإنسان قريبًا من أربعة آلاف حكمة»[3].

وهذا التصوير الحسن لشكل الإنسان يشعر بكرامته على الله فالإنسان أكمل الأحياء على الأرض من ناحية تكوينه الجسمانى. كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعورى واستعداداته الروحية»[4]. وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق تتجلى فى خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق سواء فى تركيبه الجسمانى البالغ الدقة والتعقيد. أم فى تكوينه العقلى الفريد أم فى تكوينه الروحى العجيب[5].

ومن هذا الإبداع فى التصوير والتركيب ما جاء فى معرض الاستدلال على قدرة الله وإعادة خلق الإنسان مرة أخرى بدون تغيير أو تبديل:

﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾[6].

---

(١) القرطبى جـ١٠ ص٧٢٠٤.

(٢) رسالة ماجستير مخطوطة تحت عنوان «منهج القرآن فى إثارة الأرض وعمارتها لصاحبها، فريد مصطفى سليمان.

(٣) تفصيل النشأتين ص١٩ للراغب الاصفهانى.

(٤) فى ظلال القرآن جـ٨ ص١٢٣.

(٥) المصدر السابق جـ٦ ص٣٩٣٣.

(٦) جواهر القرآن جـ١٧ ص٢٢٩.

وهذا التصوير أرقى مرتبة من مجرد الوجود. فإن الله عز وجل منحنا من الخصائص والوظائف المستقلة المصاحبة لعملية الخلق الكثير.

وقيل إن التصوير إنما كان بعد الخلق. قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ** ﴿١١﴾ ﴾[1].

فهذا التصوير بشكله وأعضائه إنما كان بعد تقدير الخلق وفى مرتبة إنسانية أعلى وأكرم من حاله الأول.

ولو أردنا أن نستعرض حكم التكوين والتصوير فى أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة لطال بنا الوقت.

ولكن يكفى أن نقرر أن فى كل عضو من أعضاء الإنسان حسنًا وإبداعًا يستوجب الشكر.

هذا بالإضافة إلى التناسق العام فى عمل هذه الأعضاء.

«وبعد فهذا بعض ما يقوله القرآن الكريم فى خلق الله لهذا الإنسان من التراب والماء فى الأجل المسمى عنده. بعد أن لم يكن له وجود على الأرض ولم يكن شيئًا مذكورًا».

وهو يكاد أن يكون نفس ما يقوله العلم عن تكوين الإنسان من التراب والماء والنطفة الأولى فى آجال من التطور .

هذا الإنسان العجيب الذى يبدأ حياته من تراب وماء ثم من نطفة مثل كل حيوان أعجم. ثم يصبح فيلسوفًا يعلم الأشياء كلها. ثم يتسع عقله لإدراك كل ما فى هذا الكون . من وجود ومادة ونظام وحق وخير وجمال. فيصوغ منها علمًا وفنًا وأدبًا وشعرًا ونغمًا وحكمة وفلسفة وتصوفًا.

ما هذا الإنسان العجيب؟

---

(٢) الأعراف: ١١.

كيف خلق فى الظلمات الثلاث؟

وكيف تطور فى بطن أمه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى إنسان كامل خلقًا بعد خلق؟

كيف اغتذى فى بطن أمه بتلك الطريقة العجيبة؟

كيف تنفس؟

كيف رضع؟

كيف يأكل؟ كيف يمضغ؟ كيف يبلع؟ كيف يهضم؟ كيف يمتص غذاءه؟ كيف يدفىء جسده؟ كيف يكنس جوفه؟ كيف يلفظ كناسته؟ كيف يدفع دمه فى جداول بدنه ليسقى حقوله الشاسعة بتلك المضخة العجيبة ذات البيوت المقسمة. والصمامات المحكمة. التى تعمل دهرًا كاملاً فى دورة دموية مستمرة. تذهب فيها الجداول الحمراء بالدم النظيف المصفى. إلى أقصى أطراف الجسد. وترجع الجداول الزرقاء به مملوءا بالسواقط والنفايات إلى مصفاة. . . بل محرقة هائلة. تنقيه وتطهره. وتحمله بالوقود الجديد ليرجع إلى المضخة التى تدفعه ثانية فى الجسد. لتستمر الحياة دهرًا كاملاً لا تقف فيه لحظة واحدة.

ما هذا الكبد؟ ما هذه الغدة العظيمة الجليلة. الكريمة البخيلة المتزنة العاقلة المعدلة العادلة. المدخرة الموفرة. الخازنة المقترة التى إذا زاد السكر فى الدم عن واحد فى الألف. منعت وحرمت. وإن نقص أعطت وتكرمت وإن كثر الفائض خزنته بعد تحويله إلى يوم الاحتياج إليه. لتغذوك بترياقه وتحميك من زيادته.

كيف يحول هذا الإنسان غذاءه فى كبده ويعدله ويخزنه؟

ما هذه الغدة الهرمونية ذات الإفرازات الكيماوية السرية التى تتحكم فى الأعصاب والعضلات والعظام والعقل والقلب والشرايين والجنس فتكبر الجسم وتصغره وتطوله وتقصره وتذكى العقل فلا يهمد وتدفىء الجسد فلا يبرد وترفع الضغط وتهبطه وتنشط العصب وتثبطه وتحفظ على الملح نسبته وتضبط له حسبته

وتزيد فى السكر عند نقصانه وتحرقه عند طغيانه وتمسك على العظام كلها وتعطى خلايا الجنس جنسها.

ما هذه الخلايا التى لا ترى بالعين والتى يبلغ عددها فى جسم الإنسان التريليونات وكيف تنتظم جماعات ليصنع كل منها جانبًا من الجسم كأنها النمل أو النحل تعرف الدور الذى كتب عليها أن تقوم به فى زاوية الحياة ؟

ما هذا التنسيق الآلى الكيماوى العصبى العجيب الذى يجعل كل عضو وكل غدة وكل خلية تتجاوب وتتعاون لإيجاد توازن ثابت دقيق فى دم الجسم ومائه وحرارته وامصاله وعصاراته وأملاحه وأحماضه وقلوياته وسكرياته. وتقوم بإصلاح كل فساد وترميم كل خراب وتعويض كل نقص وتسديد كل عجز وتعديل كل إفراط أو تفريط ورتق كل فتق وشحذ كل سلاح وصنع كل سم ومصل لرد كل عدوان. وتحطيم كل عدو وامداد الجيش بجنود جدد. بدلا من الشهداء[1].

هذا حديث القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة عن نعمة الإيجاد، نعمة خلق الإنسان فى أحسن تقويم.

وقد جاء العلم الحديث فإشار إلى تفصيل ما أجمل القرآن الكريم. وسنة المصطفى ﷺ.

ولكن العلم لا يزال يحبو فى هذا المضمار. قال تعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾[2].

وصدق الله العظيم فلا يزال العلم يكتشف فى كل يوم جديدًا من إبداع المولى عز وجل فى خلق الإنسان. وتصويره فى أحسن صورة.

مما يعجز الإنسان معه عن شكر المولى عز وجل. مهما شكر.

ويصرح بهذا المصطفى ﷺ فى حديثه الذى يروى فيه أن عابدًا من بنى

---

(١) قصة الإيمان ص٤٢٨.

(٢) الإسراء: ٨٥..

إسرائيل عكف على عبادة الله زمنًا طويلاً. فاعتقد أن عمله يكفيه فى دخول الجنة.

فلما حوسب على نعم الله لم يف عمله ببعضها. فكاد أن يذهب به إلى النار.

فسأل الله عز وجل أن يدخله الجنة برحمته.

عن النبى ﷺ: «أن جبريل أخبره:

«إن عابدًا عبد الله على رأس جبل فى البحر خمسمائة. ثم سأل ربه أن يقبضه وهو ساجد فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا. ونجد فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله عز وجل فيقول الله عز وجل:

ادخلوا عبدى الجنة برحمتى.

فيقول العبد: «يا رب بعملى» ثلاث مرات.

ثم يقول الله للملائكة: «قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله».

فيجدون نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة. وبقيت نعم الجسد له. فيقول: ادخلوا عبدى النار.

فيجر إلى النار. فينادى ربه برحمتك أدخلنى الجنة. برحمتك ادخلنى الجنة. فيدخله الجنة.

قال جبرائيل: إنما الأشياء برحمة الله يا محمد»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جـ٤ ص٢٥٠، ٢٥١ بسياق أطول. وصححه وأقره الذهبى.

ب) نعمة الأمداد بالنعم الأنفسية

١ ـ نعمة خلق الجهاز الهضمى.

٢ ـ نعمة خلق الدورة الدموية.

٣ ـ نعمة خلق الجهاز التنفسى.

٤ ـ نعمة خلق الجهاز العصبى.

٥ ـ نعمة خلق العظام.

٦ ـ نعمة خلق الأذنين.

٧ ـ نعمة خلق العينين.

٨ ـ نعمة خلق الأنف.

٩ ـ نعمة خلق اللسان.

١٠ ـ نعمة خلق اليد والقدم.

١١ ـ نعمة الصحة العامة.

١٢ ـ نعمة العقل.

١٣ ـ نعمة الدين.

١٤ ـ نعمة الزوجة الصالحة.

١٥ ـ نعمة الأولاد.

١ ـ نعمة خلق الجهاز الهضمى

الجسم البشرى مكون من طعام الإنسان. قال العلماء: أنت مكون مما تأكل.

وقد امتن المولى تبارك وتعالى علينا بنعمة الطعام وما خلقه لنا منه والكثير من الآيات القرآنية الكريمة تتحدث عن هذه النعمة نعمة الإمداد بالطعام والشراب.

وكذلك العديد من الأحاديث النبوية.

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[٢].

وقال تعالى﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾[٥].

---

(١) غافر: ٧٩.

(٢) النحل: ٦٦.

(٣) عبس: ٢٤ ـ ٣٢

(٤) النحل: ٦٨ ـ ٦٩.

(٥) الأنعام: ٩٩.

وقال تعالى: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾[١].

هذا قليل من كثير مما ذكره القرآن للامتنان علينا بنعمة الطعام والشراب. ذلك أن الإنسان يحتاج لحفظ حياته إلى أغذية تتألف من المواد البروتينية والمواد الكربوهيدراتية والمواد الدهنية والأملاح المعدنية والفيتامينات وأن البروتينات منها الكاملة ومنها الناقصة. وأن أعظم مصدر للبروتينات الكاملة هو اللحم واللبن. وأن المواد الدهنية هى أغنى الأغذية فى إنتاج الحرارة وأن من أعظم مصادرها السمن والزبد واللبن واللحم. أى الأنعام أما المواد المعدنية فأول مصدر يذكرونه لها هو اللبن. وكذلك أهم أنواع الفيتامينات موجود فى اللحم واللبن.

ويقول العلم: إن هذه الأنعام هى وحدها من بين جميع الحيوانات اللبونة تنتج اللبن باستمرار وكثرة عظيمة. ولو قطع عنها رضيعها. وهى وحدها التى تجمع بين هذ الخصائص.

فانظر أخى المسلم إلى إبداع القدرة الإلهية فى هذه الأنعام التى جمع فيها بين أن تكون آكلة عشب ميسوراً غذاؤها. يسيرًا تذليلها. وبين أن تكون مخزنًا دائمًا ومصنعًا للحليب والسمن واللحم. وكلها من المواد البروتينية.

وقد كان المتوقع عقلاً أن تنتج هذه الأنعام التى كل غذائها العشب وهوعبارة عن كربون. «مادة كربوهيدراتية» نشوية سكرية لا أن تنتج مادة كلها بروتينات من لحم وسمن ودهن[٢].

يقول ابن كثير فى تفسير الآية ٧٩ من سورة غافر المتقدمة:

«يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام. وهى الإبل والبقر والغنم.

---

(١) الرعد: ٤.

(٢) قصة الإيمان ص٣٦٩ بتصرف.

فمنها ركوبهم ومنها يأكلون. فالإبل تركب وتؤكل وتحلب وتحمل عليها الأثقال. والبقر تؤكل ويشرب لبها وتحرث عليها الأرض. والغنم تؤكل ويشرب لبنها»[1].

ويقول فى تفسير آية النحل: ٦٦:

«وان لكم أيها الناس لعبرة فى الأنعام. وهى الإبل والبقر والغنم».

أى أن الآية دالة على حكمة خالقها وقدرته ورحمته ولطفه نسقيكم مما فى بطون هذه الحيوانات من بين فرث ودم لبنا خالصا - فيسرى كل من الدم والفرث واللبن إلى موطنه إذا نضج الغذاء فى معدة الحيوان فيصرف منه دم إلى العروق. ولبن إلى الضرع. وبول إلى المثانة وروث إلى المخرج. وكل منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه. بعد انفصاله عنه ولا يتغير به.

وقوله تعالى: ﴿سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ أى لا يغص به أحد[2]. ويقول فى تفسير آيات سورة عبس ٢٤ وما بعدها:

«فيه امتنان وفيه استدلال بإحياء النبات من الأرض الهامدة على إحياء الأجسام وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾ أى اسكناه فيها فيدخل فى تخومها ويتخلل فى أجزاء الحب المودع فيها. فينبت. والحب كل ما يذكر من الحبوب والعنب معروف. والقضب: هو الفصفصة التى تأكلها الدواب رطبة. ويقال لها: القت أيضًا. قال ذلك ابن عباس وقتادة.

وقال الحسن البصرى: القضب: العلف.

والزيتون: معروف. وهو أدم. وعصيره أدم.

والنخل يؤكل منه البلح والبر والرطب والتمر. ويعتصر منه الخل.

والحدائق الغلب: هى بساتين النخل الغلاظ. وقال ابن عباس: كل ما التف واجتمع.

---

(١) ابن كثير جـ٤ ص٨٩.

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٥٧٤ بتصرف..

وقال ابن عباس أيضًا: غلبا: الشجر الذى يستظل به.

والفاكهة : هى كل ما يتفكه به من الثمار.

والأب : ما انبتت الأرض مما تأكله الدواب. ولا يأكله الناس[1].

* * *

ويقول فى تفسر آيات النحل ٦٨ ـ ٦٩:

«المراد بالوحى هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا تأوى إليها ومن الشجر ومما يعرشون ثم هى محكمة فى غاية الاتقان بحيث لايكون فيما بينها خلل ثم أذن لها تعالى اذنا قدريا تسخيريًا أن تأكل من كل الثمرات وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعال مذللة لها أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة ثم تعود كل واحدة منها إلى بيتها لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع من أجنحتها وتقىء العسل من فيها وتبيض الفراخ ثم تصبح إلى مراعيها. قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فاسلكى سبل ربك ذللا، أى مطيعة فجعلاه حالا من السالكة. قال ابن زيد وهو كقول الله تعالى ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ قال: ألا ترى أنهم ينقلون النحل ببيوته من بلد إلى بلد وهو يصحبهم والقول الأول هو الأظهر وهو أنه حال من الطريق أى فاسلكيها مذللة لك نص عليه مجاهد.

وقال ابن جرير كلا القولين صحيح. وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «عمر الذباب أربعون يومًا والذباب كله فى النار إلا النحل» وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ، ما بين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها منها ، وقوله ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ أى فى العسل شفاء للناس أى من أدواء تعرض لهم. قال

---

(١) ابن كثير جـ٤ ص٤٧٢ بتصرف.

بعض من تكلم على الطب النبوى لو قال فيه الشفاء للناس لكان دواء لكل داء ولكن قال فيه شفاء للناس أى يصلح لكل أحد من أدواء باردة فإنه حار والشيء يداوى بضده. وقال مجاهد وابن جرير فى قوله ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ يعنى القرآن وهذا قول صحيح فى نفسه ولكن ليس هو الظاهر هنا من سياق الآية فإن الآية إنما ذكر فيها العسل ولم يتابع مجاهد على قوله ههنا وإنما الذى قاله ذكروه فى قوله تعالى ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٥٧)﴾ والدليل على أن المراد بقوله تعالى ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ ، هو العسل الحديث الذى رواه البخارى ومسلم فى صحيحهما من رواية قتادة عن ابن المتوكل على بن داود الناجى عن ابى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال: «أسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا قال: «اذهب فاسقه عسلاً» فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً قال: «اذهب فاسقه عسلا» «صدق الله وكذب بطن اخيك. فذهب فسقاه عسلا فبرىء[(١)]. قال بعض العلماء بالطب كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده إسهالاً فاعتقد الاعرابى أن هذا يضره وهو مصلحة لأخيه . ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه واندفعت الاسقام والآلام ببركة إشارته. عليه من ربه أفضل الصلاة والسلام. وفى الصحيحين من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يعجبه الحلواء والعسل[(٢)]. هذا لفظ البخارى. وفى صحيح البخارى من حديث سالم الافطسى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم أو

---

(١) رواه الشيخان فى صحيحهما جـ٧ ص١٥٩.

(٢) رواه البخارى فى صحيحه جـ٧ ص١٥٩

شربة عسل أو كيه بنار وأنهى أمتى عن الكى»[1] وقال البخارى عن بن عمر سمعت جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن كان فى شىء من أدويتكم أو يكون فى شىء من أدويتكم خير: ففى شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة بنار توافق الدواء وما أحب أن اكتوى»[2] ورواه مسلم من حديث عاصم بن عمر بن قتادة عن جابر وقال الإمام أحمد عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إن كان فى شىء شفاء: فشرطة محجم. أو شربة عسل أو كية تصيب ألما وأنا أكره الكى ولا أحبه».

ورواه الطبرانى عن عبد الله بن الوليد . ولفظه «إن كان فى شىء شفاء: فشرطة محجم» وذكره وهذا اسناد صحيح. وقال الإمام ابن ماجه القزوينى فى سننه عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالشفائين العسل والقرآن» وهذا اسناد جيد تفرد بإخراجه ابن ماجه مرفوعًا.

ويقول الاستاذ سيد قطب فى تفسير آية ٩٩ من الأنعام:

«والماء كثيرًا ما يذكر فى القرآن فى صدد ذكر الحياة والإنبات ودور الماء فى إنبات كل شىء دور واضح يعلمه البدائى والمتحضر. ويعرفه الجاهل والعالم».

ولكن دور الماء فى الحقيقة أخطر وأبعد مدى من هذا الظاهر.

فقد شارك الماء ابتداء ـ بتقدير الله ـ فى جعل تربة الأرض ـ السطحية صالحة للإنبات إذا صحت النظريات التى تقول بذلك. ثم ظل الماء يشارك فى إخصاب هذه التربة. وذلك بإسقاط (النتروجين ـ الأزوت) من الجو كلما أبرق. فاستخلصت الشرارة الكهربائية التى تقع فى الجو النتروجين الصالح للذوبان فى الماء. ويسقط المطر ليعيد الخصوبة إلى الأرض. وهو السماد الذى قلد الإنسان القوانين الكونية فى صنعه فأصبح يصنعه الآن بنفس الطريقة. وهو المادة التى يخلو وجه الأرض من النبات لو نفدت من التربة.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ٧ ص١٥٩

(٢) رواه البخارى فى صحيحه جـ٧ ص١٥٩

(٣) ابن كثير جـ٧ ص٥٧٦.

هذا وكل نبات يبدأ أخضر. واللفظ «خضر» أرق ظلا. وأعمق ألفة من لفظ «أخضر» هذا النبت الخضر يخرج منه حب متراكم كالسنابل وأمثالها.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ وقنوان جمع قنو. وهو الفرع الصغير. وفى النخلة هو العزق الذى يحمل الثمرة[1].

بتدبر هذه الآيات المتقدمة جميعها ترى منة الله عز وجل على عباده واضحة حيث خلق لهم حاجتهم من الطعام والشراب.

كما نلمس امتنانه عليهم بذلك طلبًا لشكره عز وجل.

ولقد بين لنا العلم الحديث طرفًا من آثار قدرة الله عز وجل فى هضم الطعام فى جسم الإنسان وامتصاص الجسم من الطعام حاجته.

مما فيه تفصيل لما ورد فى القرآن من إشارات إلى ذلك.

يقول مؤلفو الموسوعة الطبية عن الهضم:

«الهضم هو تحول الغذاء إلى مواد يمكن امتصاصها فى الدم ليستعملها الجسم. ويصنع الجسم ذلك بتفتيت الطعام وطحنة وتخفيفه واذابته طبيعيًا أو بتفتيت جزئياته كيميائيًا إلى مركبات أقل تعقيدًا.

والقناة الهضمية التى يمر فيها الطعام بأطوار الهضم المختلفة قناة مجوفة طولها نحو عشرة أمتار تبدأ من الفم وتنتهى بفتحة الشرج وتبطن على طول امتدادها بغشاء ناعم غليظ يحميها ويعرف بالغشاء المخاطى ويساعد هذا الغشاء الطعام فى أن يمر دون أن يؤذى القناة نفسها أو الأعضاء والأنسجة القريبة منها وتحدث عملية الهضم فى أربعة مواضع رئيسية من القناة الهضمية هى الفم والمعدة والأمعاء الدقاق والأمعاء الغلاظ.

الفم مدخل القناة الهضمية حيث توجد الأسنان واللسان وهما اللذان يبدأن عملية الهضم بمضغ الطعام وطحنه.

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٢ ص١١٦١.

المعدة :

يمر الطعام فى سرعة فى المرئ مدفوعًا بتقلصات عضلية منتظمة تعرف بالتمعج ثم يمر من خلال «المعدة الفؤادية» وهى عضلة دائرية عند نهاية المرئ تنفتح عند اقتراب الطعام منها فيدخل إلى المعدة وحركات التمعج فى المعدة أقوى مما فى المرئ وأكثر فهى تحدث بمعدل ثلاث مرات فى الدقيقة الواحدة وهى تطحن الطعام وتذيبه وتمزجه بالعصارة التى تفرزها المعدة. وتحتوى العصارة المعدية على الانزيمات «ببين» و «رنين» و «ليباز» فضلاً عن حمض الهدروكلوريك وإفراز يسمى «ميوسين» فائدته تغطية بطانة المعدة وحمايتها ويبدأ الببين مع حمض الهيدروكلوريك عملية هضم البروتينات التى فى الطعام ويعمل الرنين فى اللبن ليحوله إلى شكل يمكن الببسين من أن يعمل فى بروتينات اللبن أيضًا. أما أنزيم اللياز فى المعدة فهو أنزيم ضعيف. عمله موجه للمواد الدهنية. وهو لا يستطيع أن يعمل إلا فى المواد الدهنية التى تحولت فعلاً إلى شكل مستحلب كتلك التى تكون فى القشدة أو المح (صفار البيض) وبالأمعاء الدقاق لياز آخر أكثر فعالية من لياز المعدة ولذلك فإن معظم المواد الدهنية تبدأ عملية هضمها فى الأمعاء الدقاق.

وتتسع معدة البالغ فى المعتاد لما يقرب من لتر ونصف اللتر. ولا تنفتح المعدة الفؤادية إلا لتسمح للطعام بالمرور إلى المعدة. وتبلغ المعدة ذورة نشاطها الهضمى بعد ساعتين تقريبًا من الوجبة ثم تفرغ محتوياتها إلى العفج بعد مدة تتراوح بين ثلاث ساعات وأربع ساعات ونصف الساعة وقد تبقى الوجبة الثقيلة نحو ست ساعات قبل أن تصل إلى العفج.

الأمعاء الدقاق: يترك الطعام المعدة على صورة مزيج سائل غليظ يسمى «الكيموس» يشبه القشدة فيمر خلال «البواب» وهو عضلة معدة بين الجزء الأسفل من المعدة والجزء الأول من الأمعاء الدقاق المسمى «العفج أو الاثنا عشرة».

ومعدة البواب مغلقة معظم الوقت وتنفتح كلما مرت فهيا موجه «تمعج» والمعدة هى أوسع جزء فى القناة الهضمية. ويأخذ أسفلها شكلاً منحنياً يشبه حرف (د) اللاتينى وبذلك يبطىء مرور الطعام خلال البواب تلقائيًا إلى أن يصير الطعام

فى قوامه المناسب الذى يسمح له بالمرور خلال الفتحة الضيقة إلى الأمعاء.

والأمعاء الدقاق لها تجويف دقيق لا يزيد اتساعه على خمسة عشر ملليمتر أما طوله فيصل إلى سبعة أمتار. ولبطانة الأمعاء الدقاق ثنيات عميقة تزيد فى مساحة سطحها إلى ما يقرب من عشرة أمتار مربعة حيث يمكن أن يمتص الطعام. وتلافيف هذه الأمعاء فى حركة تكاد تكون دائمة تعرف «بالتمعج» وتقوم موجات التمعج بخلط الطعام وهرسه وتحريكه ببطء خلال القناة الهضمية.

والعفج. الذى هو أول أجزاء الأمعاء الدقاق جزء منحنى يشبه حرف «c» ويبلغ طوله خمسة وعشرين سنتيمتر وهو أكثر أجزاء الأمعاء الدقيقة إتساعًا وتنصب فيه عصارة البنكرياس بأنزيماتها التى تحطم الدهنيات والكربوهدراتات والبروتينات وتفرز الأمعاء الدقيقة هرمونات تنبه البنكرياس لإفراز عصارته بما تحويه من أنزيمات حيوية وتفرغ القناة الصفراوية صفراءها فى العفج كذلك وهى تهيىء الدهنيات لفصل الأنزيمات المحطمة للدهنيات ويلى العفج «المعى الصائم» وهو أطول أجزاء الأمعاء الدقيقة ثم يليه «اللفائفى» آخر أجزاء الأمعاء الدقيقة وأضيقها وعلى طول هذه القناة كلها تتفتت الكربوهدراتات والبروتينات والمواد الدهنية وجلسرين.

وتمتص بطانة الأمعاء الدقيقة هذه المركبات الغذائية بمجرد تكونها ثم يسير الجزء الذى لا يمتص وهو الجزء الصلب من بقايا الطعام فى الأمعاء الدقيقة إلى الأمعاء الغليظة.

والجزء السائل الباقى فى الفضلات تمتصه جدر الأمعاء الغلاظ ويبلغ طولها ما يقرب من المترين فيتحول الجزء الباقى من الفضلات إلى براز غليظ القوام يدفع إلى أسفل فى المستقيم تمهيدًا لإخراجه. وتستغرق هذه العملية ما يقرب من عشر ساعات إلى عشرين ساعة. ويتكون البراز من بكتريا وخلايا معوية وبعض المخاط ومن المواد التى لم تهضم كالبزور والألياف وما إليها.

ويعيش فى الأمعاء الغلاظ عدد من البكتريا النافعة التى تؤدى وظائف مهمة للإنسان مثل تصنيع بعض فيتامين «ك» اللازم لتجلط الدم[1].

---

(١) الموسوعة الطبية جـ ١٣ ص ١٨٨٦.

الدهنيات وتهضم أساسًا فى الأمعاء الدقيقة حيث تتحول إلى أحماض دهنية وجلسيرين بفعل العصارة المعوية عصارة البنكرياس. ثم تتحول إلى مستحلب بفعل الصفراء من المرارة ثم تمتص بعد ذلك من جدر الأمعاء إلى الدم.

إننا نعتبر أن الجسم هو أساس حياتنا على الأرض كذلك يجب أن نوافق على أن أساس الحياة فى الجسم هو تناول الطعام والهضم والتخلص من الفضلات.

فإذا أردنا أن نعيش فيجب علينا أن نأكل وأن نستخلص التغذية من طعامنا وأن نستعين بها فى بناء أجسامنا لتعويض ما ننفق فى حياتنا من الطاقة كما يجب علينا أن نطرد من أجهزتنا الفضلات التى لو بقيت فيها لسببت لها التسمم.

ولا جدوى هناك من الاكتفاء فى الطعام بالحلوى وأنواع البسكويت مثلا وإن كانت شهية المذاق إذا تناولناها فى المناسبات.

هل فكرت مرة فى مقدار الطاقة التى تستنفذها كل يوم؟ ما هى؟ ومن أين تأتى؟ هناك أيام عطلات تجرى فيها وتقفز وتركب الدراجة. وربما عمدت كذلك إلى تسلق الصخور والمرتفعات. وهناك أيام المدرسة أيضًا فضلا عن التمرينات الرياضية يكون عقلك مشغولا بالعمل. وهذا نوع من استخدام الطاقة أيضًا وهناك أوقات أخرى تكون فيها غير قائم بأى عمل معين. وحتى فى مثل تلك الأوقات سواء كنت جالسًا بلا حراك أو راقدًا تنعم بأشعة الشمس بل إذا كنت نائمًا فى فراشك فإنك تستهلك بعض الطاقة. ولو اقتصر الأمر على التنفس. هل فكرت مرة فى الأعمال المستترة التى تدور بداخلك. والتى لا تشعر بوجودها إلا إذا وقع خطأ فيها وأصابك من الألم ما يسترعى انتباهك إليها؟

بعد أن تنقضى فترة مديدة من الوقت على تناولك وجبة طعام تكون معدتك وأمعاؤك مشغولة بهضم طعامك دون أن تفكر أنت فى ذلك حيث تقوم باستخلاص الغذاء الجيد من الفائض ثم ترسل الخلاصات الجيدة إلى الدم لتزيده غنى وتعد العدة لطرد النفايات.

وهذا الخلاصات الجيدة تنتقل عن طريق الدم لتجدد بناء الجسم كله وتمنحه القوة والعافية أما النفايات فإنها تتجمع حتى تشعر بالرغبة فى التخلص منها يابسة

أو سائلة وتستمر هذه العمليات طول الوقت ومع هذا فإنك تظل غافلاً حتى ينبهك جسمك إلى حاجته إما إلى تناول مزيداً من الطعام وأما إلى التخلص من الفضلات.

والخدمات التى يؤديها لك جهاز الهضم والتخلص من النفايات هى فى معظم الأحيان خدمات غير ملحوظة ولكنها ملموسة النفع.

والواقع أنك تستطيع أن تقارن بنيها وبين قسم الخدمات والإمداد فى جيشك الداخلى الخاص حيث تمر الأغذية إلى الداخل وتستخدم على أحسن وجه وتترك النفايات ثم يقذف بها إلى الخارج.

أو هناك وجه آخر للمقارنة فإن الآلة المعقدة التى هى جسمك ممتلئة بالوقود الذى يستهلك منه الجزء القابل للاستهلاك كى تتولد منه قوة الاندفاع بينما تتخلف الفضلات الباقية ثم تطرد إلى الخارج.

ويشبه جسدك من ناحية ما الآلة البخارية فالوقود الذى يستهلك يولد قوة الدفع التى تدير العجلات. وطاقتك أنت هى القوة بذاتها وهكذا ترى مدى الأهمية التى تقترن بإعطاء جسدك الغذاء الصالح فى الأحوال الملائمة.

كذلك يجب أن يؤخذ الغذاء فى الظروف الملائمة لأن هذا يساعد سير حركات الهضم الطبيعية.

والإنسان يستطيع أن يتجاوز الحد فى العناية بجسمه على نحو ما قد يتجاوزه فى أى شىء آخر ولكن من غير مبالغة فى شدة التدقيق على الإطلاق يكون من الحكمة أن يتذكر الإنسان أن جسمه يستحق من العناية ما لا يقل عن عنايته بدراجته مثلا إذا كان حريصًا علي أن يعيش فى يسر وأمان.

إذن فلنلق نظرة إلى ما يحدث فعلا حين يبدأ الطعام رحلته خلال الجسم لأن أمامه طريق طويل لابد من قطعه بعد أن يدخل الفم.

فبمجرد رؤية الطعام وشم رائحته تحدث أشياء معينة قد نعرفها وقد لا نعرفها فإن الشهية قد تزداد وقد تتضاءل. على حسب رغبتنا فيما يقدم إلينا من الطعام فى

الفم حيث يستعد اللعاب وهو العصارة الهاضمة الأولى لكى يؤدى عمله فى الطعام. كما أن المعدة أيضًا تبدأ فى تحضير عصارتها.

ونبدأ نحن فى مضغ القطعة من طعامنا بين الأسنان فلا تلبث أن تتجزأ إلى أجزاء صغيرة يختلط بها اللعاب. فتصبح «لقمة» سائغة نبتلعها.

هل خطر ببالك مرة أننا لا نستطيع أن نبتلع بسهولة سوى أشياء ذات شكل معين. إن قرصًا على شكل النجمة يكون من العسير أن ينزلق فى الحلق. ونحن حين نصنع الأقراص على شكل دائرى. فإنما نقلد فى ذلك الطبيعة التى تسخر اللعاب والأسنان لتشكيل طعامنا حتى يصبر دائريًا قبل ابتلاعه.

ومهمة عصارات الهضم المختلفة بما فيها اللعاب وغيره من العصارات التى يتم صنعها فى المعدة وغيرها من أعضاء الجسم هى تفتيت الطعام حتى يستطيع أن يستوعبه مجرى الدم وأن تنتقل خلاصته النافعة إلى أجزاء الجسم كله وبعد البلع ينحدر الطعام فى أنبوبة إلى المعدة وهى تشبه فى عملها آلة الغسل التى تعتصر القذارة من الأقمشة وإن كان ما تعتصره المعدة من الطعام هو الغذاء الصحى الخالص.

أما الفضلات «النفايات» التى لا فائدة منها للجسم فنصيبها العزل جانبًا وكما يستخدم الصابون فى آلة غسل الملابس تستخدم المعدة عصارة حمضية قوية لتستخلص المادة النافعة من كل قطرة.

والمعدة هى كل البطن أى الجزء الواقع بين الأضلاع والخاصرة. الذى يضم جميع أجزاء الجهاز الهضمى.

وتحت المعدة توجد الأمعاء الدقاق والغلاظ ويمكنك أن تتخيلها فى صورة خراطيم ملفوفة على شكل حلقات فى البطن.

والطعام المهضوم نصف هضم. يمر أولاً بالأمعاء الدقاق وهنا تبدأ عصارتان هاضمتان أخريان مصنوعتان فى المعامل الصغيرة. المسماه بالبنكرياس والكبد والمرارة فى أداء عملها فى الطعام حيث يدخل معظم خلاصته النافعة إلى مجرى

الدم أما بقية الطعام ومعظمها الآن نفايات فإنها تمر بعد ذلك فى الأمعاء الغلاظ من خلال أنبوباتها فى الجانب الأيمن من البطن ثم تعبر منحدرة صوب الجانب الأيسر إلى أن تخرج من طريق الشرج فى صورة نفاية يابسة.

والقناة الغذائية كلها يبلغ طولها ثلاثين قدمًا. ووجبة الطعام الواحدة تقطع هذه الرحلة كاملة فيما يتراوح بين الثلاثين والثمانى والأربعين من الساعات ويرجع السبب فى تسمية. الأمعاء الغلاظ والأمعاء الدقاق إلى أن الأخيرة وإن كانت أطول كثيرًا من الأولى. إلا أنها أضيق منها وبعضها ملتف حول بعض فى حيز صغير. والأمعاء الغلاظ هو الأوسع وهى تعبر البطن من اليمين إلى اليسار كما هو الحال فى المعدة. فإن الأمعاء هى الأخرى لها حركة تشبه آلة الغسل. لكى يتم هضم الطعام بوسيلتين: أحدهما حركة الاعتصار الآلى. والأخرى عمل كيماوى تقوم به العصارات المصنوعة فى مختلف «معامل» المعدة والكبد والبنكرياس والمرارة.

ويتخلص الجسم أيضًا من النفايات السائلة. عن طريق جهازين توأمين خاصين لذلك. هما الكليتان وموضعهما هو الجزء الأعلى الخلفى من البطن على أحد جانبى العمود الفقرى.

وهما أيضًا تسحبان النفايات السائلة من مجرى الدم وتصبانها لتنحدر إلى المثانة خلال أنبوبتين وحين تمتلىء المثانة تشعر بالحاجة إلى إطلاق سراح النفايات السائلة.

وهناك نفايات سائلة أخرى ذائبة فى الماء تخرج من مسام الجلد فى صورة حبات العرق.

ويستوعب الكبد نفايات أخرى من الدم من خلال شريان كبير يمر من خلاله وأظن هذا مقامًا مناسبًا لنلاحظ إلى أى مدى يعتمد الجسم والعقل كلاهما على الآخر.

إن حالة تعب الكبد هى كذلك حالة انحراف المزاج فتزايد نشاط غدد العرق لا يسببه الإجهاد الجسمانى فحسب بل إنه قد يحدث ذلك بسبب الحالات الذهنية

كالشعور بالذنب والخوف والانزعاج والقلق فقد يؤثر ذلك فى عمل العصارات الهضمية.

إلى درجة أن القرح المعوية كثيرًا ما توجد فى أشخاص من ذوى المزاج العصبى. وفى مثل هذه الحالات تكون أسبابها أحيانًا معنوية أكثر من مادية.

وهكذا نرى أن الجهاز المعقد الذى يقوم بالهضم وطرد النفايات واحد من الأسس الرئيسية فى كيان الإنسان. وحينما تعمل أجزاؤه فى انسجام يكون عنده أساس الصحة الجيدة. والمزاج المعتدل فى آن واحد[1].

(١) من كتاب الشعب اعرف نفسك تأليف يوستاس قشر ص٢٣، وما بعدها.

٢ - نعمة خلق الدورة الدموية

يقول تعالى مشيراً إلى نعمة الدم وحاثا على الحفاظ عليه:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾[1].

وذلك أن الحياة مرتبطة أكمل ارتباط بانتظام الدورة الدموية.

فإذا سفك الدم انتهت الحياة: قال ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر»[2].

ولذلك حذر القرآن من سفك الدم وكرر ذلك. يشير إلى ذلك ما جاء على لسان الملائكة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[3].

إن سفك الدم يساوى إزهاق الروح وقتل النفس.

وإذا كان القرآن الكريم قد حث على الحفاظ على الدماء. وحرم سفكها. فإن المصطفى ﷺ قد حث يوم النحر فى خطبة الوداع على الحفاظ على الدماء وعدم سفكها.

---

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٦.

(٢) رواه البخارى شركة٣، ١٦. جهاد ١٩١، ذبائح ١٥، ١٨، ٢٠، ٢٣، ٣٦، ٣٧، رواه مسلم اضاحى ٢٠، ابو داود أضاحى ١٥، الترمذى ١٨، راوه النسائى ضحابا ١٩، ٢٠، ٢١، رواه ابن ماجه ذبائح ٥، رواه أحمد بن حنبل ٣، ٦٣، ٦٤، جـ٤ ١٤٠، ١٤٢.

(٣) البقرة: ٣٠.

عن أبى بكر رضى الله عنه قال:

«خطبنا النبى ﷺ يوم النحر قال: أتدرون أى يوم هذا؟

قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه.

قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى.

قال: أى شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير أسمه. فقال: أليس ذو الحجة؟

قلنا: بلى قال: أى بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم.

فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليست بالبلدة الحرام. قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام. كحرمة يومكم هذا. فى شهركم هذا. فى بلدكم هذا. إلى يوم تلقون ربكم. ألا هل بلغت؟

قالوا: نعم.

قال: اللهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب. فرب مبلغ أوعى من سامع فلا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض[1].

وقد امتن المولى عز وجل على عباده باللبن يستخلصه من بين فرث ودم. قال عز من قائل... ﴿**مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ**﴾[2].

تلك إشارات القرآن الكريم. والسنة النبوية المطهرة. لنعمة الدم. ووجوب الحفاظ عليها.

وقد تكفل العلم الحديث فى حدود ما وصل إليه بتفصيل طرف من هذه الإشارات القرآنية والنبوية. لنعمة الدم. والدورة الدموية. فى الإنسان خاصة والحيوان عامة.

---

(١) صحيح البخارى جـ٢ ص٢١٦

(٢) النحل: ٦٦.

يقول الأستاذ يوستاس قشر. فى كتابه (اعرف نفسك).

معرفا بالدورة الدموية. وإبداع القدرة الإلهية فى صنعها. ومن دراسة ذلك نتبين نعمة من أجل النعم الإلهية علينا هى نعمة خلق وانتظام الدورة الدموية.

يقول الأستاذ يوستاس:

«القلب فى مثل حجم قبضة يدك. وشكلها تقريبًا وهو يحتل مع الرئتين مركزًا حصيناً وراء الأضلاع فى الجانب الأيسر.

ومع أننا نفكر فيه كعضو واحد فإنه فى حقيقة الأمر مكون من قسمين منفصلين يؤدى كل منهما واجبه الخاص وإن كانا بالتأكيد متصلين اتصالا وثيقًا وتربط كلا منهما بالآخر صلة القربى من ناحيتى الطبيعة والعمل على السواء وكل منهما بدوره منقسم قمسين. لتحقيق أغراض معنية.

والقسم الأيمن من القلب هو الجزء المختص بتوزيع الدم من طريق الرئتين أما القسم الأيسر فهو الذى يتولى التوزيع فى باقى أجزاء الجسم جميعًا.

ومن الجائز جدًا تشبيه ضربات القلب بدقات مضخة لأنه بالتأكيد عبارة عن مجرد مضخة وقوة هذه المضخة ترسل الدم جديدًا أحمر قانيًا بما يحمل من أكسجين الرئيتين إلى الجانب الأيسر من القلب.

وإذ يمر الدم من خلال شريان كبير يستأنف سيره فى قنوات متفرعة كل منها أضيق من سابقتها حتى يبلغ أجزاء الجسم جميعًا.

كيف يصل الدم إلى الأجزاء السحيقة؟

إذا نظرت إلى خريطة من خرائط الريف. مخطوط السكك الحديد الكبرى تبدأ من المحطات الرئيسية ثم تتفرع إلى حيث تنتهى إلى محطات نهائية أصغر ثم تتفرع إلى أخرى أصغر وأصغر إلى أن ينتهى بها الأمر إلى الوصول إلى المحطات الريفية الصغيرة السحيقة.

وخريطة مجرى الدم فى جسدك تشبه هذا إلى حد بعيد وعلى رغم طول

الرحلة وتعقيدها فإن دمك يجب أن يقطعها حتى يصل إلى المحطات الصغرى ثم يعود من حيث أتى. ومع هذا فهو يكمل رحلته فى وقت لا يكاد يتجاوز دقيقة واحدة فى كل مرة.

وحينما يندفع الدم خارجًا فى طريق رحلته يكون محملاً بالأكسجين لكى يحترق كوقود فى معامل الخلايا ثم يحمل شحنة جديدة من أكسيد الكربون الذى لفظته «المعامل» بوصفه نفايات متخلفة مما نتج عن نشاطها.

وفى هذه العملية يفقد الدم لونه الأحمر القانى ويشوبه ظل من اللون الأزرق ينطق بالتغيير الذى طرأ على طبيعة حمولته.

وبعد أن يتم الدم رحلة الذهاب يبدأ رحلة العودة مارًا بأضيق القنوات وكلما تقدم فى سيره تزايد إتساعها إلى أن يمر بالأوردة الرئيسية وهو يصل إلى الجانب الأيمن ويمر من خلاله ثم يحول إلى طريق العودة إلى الرئتين ليفرغ حمولته الثقيلة من أكسيد الكربون فما تلبث أن يطردها التنفس فتخرج من الجسم.

وبعد هذا يعاد شحن حمولة جديدة من الأكسجين جلبها «التنفس» ثم يستأنف الدم رحلته من جديد.

وقد تظن أنه من المرهق أن الدم لا يستريح أبدًا يجرى امتصاصه من الجانب الأيسر للقلب ثم يطوف بنواحى الجسم كافة ثم يعود ثانية إلى الجانب الأيمن. ويمر من خلال الرئتين ثم يعود إلى الجانب الأيسر من القلب ثم يبدأ رحلته من جديد.

ومهما يكن من شىء فإن قاطراتنا المصنوعة من الفولاذ نفسها تحتاج إلى التجديد كما أنه لابد من الحرص على أن تظل دائما فى حالة جيدة من الإصلاح وكذلك الحال فى الدم أيضًا حيث أعدت العدة لتجديده وبطريقة مدهشة حقًا على أن استهلاك بعض العناصر التى يتكون منها الدم أمر شاق للغاية ولهذا فإن هناك استعدادات خاصة لتجديدها باستمرار.

والدم فى حد ذاته مادة مركبة. نصفها سائل معظمه ماء والنصف الاخر عبارة عن ملايين وملايين من الخلايا الصغيرة يقال لها الكريات تسبح فى ذلك السائل وكأنها قطع صغيرة من تفل الليمون تسبح فى كأس من عصير.

والكريات نوعان :

الكريات البيضاء وهى بمثابة «قوة الدفاع فى الجسم التى تسرع دائمًا لمكافحة العدوى.

أما الكريات الأخرى فهى حمراء ـ وهى على جانب كبير من الأهمية أيضًا. فهى بمثابة سيارات النقل التى تقوم بحمل الأكسجين وأكسيد الكربون وتفريقهما فى حين يقوم قطار بضاعة الدم برحلته الكاملة حول الجسم.

وكل خلية حمراء تعمل وتعيش شهرًا واحد على وجه التقريب. وبعد ذلك يدركها الأعياء وتصبح غير ذات فائدة ومن ثم «تحول» إلى الطحال وهو عضو صغير مكانه وراء المعدة. وهناك. يظل أمرها مهملاً بصفة مؤقتة لأن مادة الكريات الحمراء المتقاعدة عن العمل تختزن بقصد الاستخدام فى حالة الطوارىء. وذلك على نحو ما يحدث فى زمن الحرب حيث يعاد استخدام سيارات النقل القديمة التى لا تزال فيها بقية من الصلاحية للعمل كلما كثر المطلوب وقل الموجود من سيارات النقل فى البلاد.

الكريات البيضاء أقل عددًا من الكريات الحمراء بل أن نسبتها هى كرية بيضاء واحدة لكل خمسمائة حمراء.

على أن نسبة الوفيات فيها مرتفعة أيضًا. ولو أنها تختلف لمدى الحاجة إليها لمكافحة العدوى فى كل حالة بعينها. وكما هو الحال فى الكريات الحمراء فإنها تستبدل بغيرها على وجه السرعة فى الأحوال العادية.

وبالإضافة إلى عمل الدم الحيوى فى نقل الأكسجين وأكسيد الكربون من جميع خلايا الجسم وإليها فإنه يحتفظ أيضًا للجسم بحرارته الطبيعية فى درجة ثابتة تقريبًا.

وكمية الدم التى تجرى فى عروق الشخص العادى تتراوح بين العشرة والأثنى عشر «باينت»[1] ويتم استحضار الكميات الجديدة منه كلما دعت إليها الحاجة بمزيد

---

(١) باينت رطل سائل $^{1}/_{8}$ جالون

من السرعة والاقتدار. حتى أننا لا نتعرض لخطر حقيقى إلا إذا فقدنا هذه الكمية[1].

يقوم الدم بتوزيع المواد الضرورية للحياة على الجسم كما يجمع الفضلات للتخلص منها. ويدفع القلب ما يقرب من ستة لتر من الدم فى الدورة الدموية خلال شبكة كبيرة من الشرايين والأوردة والشعيرات الدموية. ويحمل الدم الأكسجين من الرئتين ومنها يتخلص من ثانى أكسيد الكربون الذى يحمله من الأنسجة. وتعمل الكليتان على تنقية الدم والمحافظة على تركيبه فى الحدود الصحية. كما يعمل الجهاز اللمفاوى على تصفية الجسم من البكتريا التى يفرزها.

والقلب مصدر القوة التى تدفع الدم فى دورته الدائمة بالجسم. وهوعضو أجوف فى حجم قبضة اليد.

وبه جدار عضلى يغطيه غشاء ويبطنه غشاء آخر وينقسم إلى أربع حجرات.

أذينان وبطينان وتفصل الحجرات أصمخة لتنظيم سريان الدم بين الأذينين والبطينين. ويدخل الدم الأذينة من طريق الأوردة الكبار ويخرج من طريق الشريان الرئوى والشريان الأبهر «الأورطى».

وفى داخل الأسناخ الرئوية يستبدل الأكسجين بثانى أكسيد الكربون. وبالرئتين ملايين من هذه الوحدات الدقيقة ويدخل الهواء من تجويف الأنف إلى الرئتين بطريق البلعوم والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب التى تنقسم وتنقسم حتى تنتهى بالشعيبات الرئوية.

وتتحول بلازما الدم إلى لمفا بعد تصفيتها من الدم ودخولها الأوعية اللمفاوية ثم مرورها بالعقد اللمفاوية لترشيحها. وتصاحب الأوعية اللمفاوية الشعيرات الدموية بجميع أجزاء الجسم وتكون العقد اللمفاوية مجموعات بالرأس والعنق والأبطين والصدر والمنطقة الأربية.

وينقى الدم من شوائبه فى الكليتين. فالبول إذن نفاية الجسم السائلة التى يتخلص منها.

---

(١) من كتاب الشعب. اعرف نفسك تأليف يوستاس قشر ص٢٥ الفصل ٦، ٧، ٨.

تتكون الرئة من الفصيصات الابتدائية وهى وحداتها الوظيفية، وكل منها يتكون من مجموعة من الشعيبات والقنوات السنخية والأكياس السنخية والاسناخ والأوعية الدموية والأعصاب.

والأسناخ فجوات مجهرية ينتشر منها الأكسجين إلى الدم وينتشر إليها ثانى أكسيد الكربون من الدم ويتم ذلك نتيجة اختلاف الضغط الجزيئى للفازين.

ودورة الدم هى فيض الدم خلال الشرايين والأوردة. والشعيرات بالجسم وتتكفل باستدامته عملية الضخ التى يؤديها القلب ووظيفة الجهاز الدورى الدموى هى تزويد أنسجة الجسم وأعضائه بالأكسجين. والمواد الغذائية والأجسام المضادة والهرمونات والكيميائيات المستلزمة لحفظها فى صحة جيدة ونشاط سوى وكذلك تنحية الفضلات وثانى أكسيد الكربون بنقلها بعيداً منها وجملة طول تلك الأوعية الدموية تتراوح ما بين ٦٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ ميل والشخص البالغ يحتوى جسمه فى المعدل المتوسط على خمسة لترات من الدم ويحمل الجهاز الدورى الدموى هذه الكمية من الدم بأكملها فى دورة واحدة كاملة خلال الجسم كل دقيقة وفى مدى أربع وعشرين ساعة يمر خلال القلب ما يبلغ ٧٢٠٠ لتر من الدم.

وهناك فى حقيقة الأمر جهازان دوريان مستقلان فى الجسم لكل منها مضخته الخاصة به فى داخل سياج القلب وفى أحد هذين الجهازين وهو المسمى بالدورة الرئوية. ويتولى الجانب الأيمن من القلب ضخ الدم خلال الرئتين. وفى الرئتين يطلق الدم ما به من ثانى أكسيد الكربون ويمتص مدداً جديداً من الأكسجين يفيض بعدئذ إلى الجانب الأيسر من القلب. حيث يضخ ثانية إلى جميع أجهزة الجسم وأعضائه. وهذا الجهاز الدورى الكبير يسمى الدورة المجموعية.

الجهاز الشرياني :

إن الدم الذى يضخ من الجانب الأيسر من القلب ينفذ إلى الأورطى وهو الجزع الشريانى الأساسى فى الدورة المجموعية والأورطى. الذى يبلغ قطره البوصة تقريبًا. يتقوس إلى أعلى ونحو الجانب الأيسر من الجسم. وفوق القلب مباشرة يتفرع الشريانان التاجيان من الأورطى. وهذان الشريانان يمدان عضلات القلب

نفسه بالدم إذ رغم الكمية الكبيرة من الدم التى تمر بالقلب فإن عضلاته من أعلى تقوس الأورطى ثلاثة شرايين كبيرة تغذى الجزء العلوى من الجسم وهى الشريان الدماغى الذراعى ويتفرع إلى الشريان السبانى المشترك الأيمن والشريان تحت الترقوى الأيمن. والشريان السبانى المشترك الأيسر. والشريان تحت الترقوى الأيسر. فالشريانان اللذان يغذيان الرأس والعنق هما الشريانان السباتيان كما أن شريانى تحت الترقوة يغذيان الذراعين. وبعدئذ يستدير الأورطى إلى أسفل ويجتاز جذع الجسم إلى جوار العمود الفقرى. وثمة شرايين أصغر تتفرع من الأورطى لتغذى الرئتين. والمعدة. والطحال. والبنكرياس والكليتين والأمعاء. وأعضاء أخرى من الجسم. وعند مستوى السرة تقريبًا ينقسم الأورطى إلى فرعين هما الشريانان الحرقفيان اللذان يزودان بالدم الأوعية التى تغذى أعضاء الحوض. والساقين.

والشرايين التى نذكرها هى الشرايين الموصلة الأساسية. وهى تتكون من بطانه داخلية ناعمة مغطاة إلى حد كبير بألياف مرنة قادرة على التمدد واستيعاب نبضات القلب.

ولما كان القلب يخفق بمعدل سبعين مرة تقريبًا فى الدقيقة. فإن من مهمة الجدران الشراينية المرنة أن تلطف هذه الخفقات القوية محولة إياها إلى ضغط دموى أقرب إلى أن يكون ثابتًا.

والشرايين الموزعة تتفرع من تلك الشرايين الموصلة لتغذى أعضاء الجسم وأنسجته. وهذه الشرايين تتكون إلى درجة كبيرة من ألياف عضلية تطوق البطانة الداخلية الناعمة. وهذه الألياف العضلية قادرة على الانقباض والارتخاء. وهى تخضع لتحكم الجهاز العصبى المستقل الأداء. والشرايين الموزعة بدورها تتفرع إلى شرينات صغيرة تكاد تدق رؤيتها على العين المجردة وجدران الشرينات تتكون هى أيضًا إلى درجة كبيرة من ألياف عضلية تخضع لتحكم الجهاز العصبى المستقل الأداء والشرينات تفضى مباشرة إلى الشعيرات. ويمر الدم خلال الأورطى بسرعة تبلغ ٣٩ سم فى الثانية تقريبًا. حينما يكون الجسم فى راحته وتزداد سرعته فى

حالة النشاط. وكلما انتشر الدم خلال الشرايين الموزعة والشريينات إلى ما يقرب من ثمن سرعته فى الشرايين.

الشعيرات :

إن الشبكة المعقدة من تلك الشعيرات المجهرية الحجم التى لا تحصى والموزعة خلال جميع أنسجة الجسم هى التى تزود بالدم كل خلايا الجسم. وكل شعيرة من هذه الشعيرات يبلغ قطرها عشرة ميكرونات تقريبًا أى ما يوازى قطر خلية الدم الوحداة تقريبًا. ومن ثم فإن خلايا الدم يجب أن تجتاز طريقها خلال الشعيرات أى تتلو إحداهما الأخرى فى رتل أو صف واحد.

والشعيرات رغم حجمها الدقيق تؤلف فى جملتها مساحة واسعة وهى تسمى فى مجموعها بالبحيرة الشعرية التى يمكن أن يقال أنها ذروة الجهاز الدورى إذ هى التى يجرى فيها العمل الحيوى لذلك الجهاز.

وجدران الشعيرات تتكون من طبقة واحدة فقط من الخلايا. ومن ثم فإن أنسجة الجسم وخلايا الدم يمكنها بسهولة أن تتبادل المواد من خلال ذلك الغشاء الرقيق وفى بعض الأعضاء تسمح جدران الشعيرات بتبادل مغذيات وكيميائيات خاصة وتحول دون مرور مواد غير مطلوبة. فالغدة الدرقية مثلا يمكنها الحصول على البور من الدم فى أثناء مروره بها والخلايا التى يتكون منها جدار الشعيرات التى بالدماغ تحول دون مرور كثير من المواد التى قد تضير خلايا الدماغ وشعيرات السخد «المشيمة» فى المرأة الحامل تحول هى أيضًا دون مرور مواد عدة قد تكون ضارة بالجنين فى أدوار نموه.

الجهاز الوريدى:

من المتيقن أن يعود الدم ثانية من الشعيرات إلى القلب. وتلك هى وظيفة الأوردة التى من مجموعها يتألف الجهاز الوريدى وأن الدم يفيض من الشعيرات إلى وريدات دقيقة ثم إلى أوردة تؤلف شبكة من الأوعية الدموية متزايدة الحجم باطراد توازى بطريقة عكسية تفرع الجهاز الشريانى. غير أن جدارن الأوردة أرق.

وأقل مرونة وأضعف عضلية من جدران الشرايين. وفى حين أن الشرايين تكون. فى معظم الأحوال مطمورة على عمق فى داخل الجسم بغرض حمايتها فإن بالجهاز الوريدى عدة أوردة تجرى على مقربة من سطح الجلد. وإذا ما قطع وعاء دموى شريانى فإن الدم يفيض من القطع فى بثقات على حين أنه فى الوريد المقطوع يفيض باطراد.

والدم العائد إلى القلب يتجمع فى وريدين رئيسين. فالدم العائد من الذراعين والرأس وأعلى الصدر يفيض خلال الوريد الأجوف العلوى. والدم من سائر الجسم يفيض خلال الوريد الأجوف السفلى. وكلا هذين الوريدين يعيدان الدم إلى الجانب الأيمن من القلب ليضخ إلى الرئتين من جديد.

والدم الوارد من الجزء الأسفل من الجسم يتعين عليه أن يعود إلى القلب فى اتجاه مضاد لقوة الجاذبية إذ أن جميع ما يحدثه ضخ القلب من قوة الضغط يكون قد تبدد فى أثناء مرور الدم خلال الشعيرات. ويتأتى للدم أن يقاوم قوة الجاذبية ببضع وسائل.

فالأوردة ذواتها تحتوى على أصمة وحيدة الاتجاه. وهذه الأصمة الوريدية التى تعمل على نحو ازدواجى. تشبه السدلات التى تغطى الجيوب فى جاكتات الرجال وحينما يكون فيض الدم فى الاتجاه الصحيح تتجه الأصمة الوريدية صوب جدران الأوردة متيحة للدم أن يفيض بلا عائق. فإذا ما جنح الدم إلى أن يفيض إلى الوراء فإن الأصمة الوريدية تتجه اتجاها عكسيًا يوقف فيض الدم إلى وراء. والطريقة التى تدفع بها الدم خلال الأوردة إلى أعلى صوب القلب تشبه عملية الحلب إذ تجرى أساساً بوساطة الفعل الدلكى لعضلات البطن والساقين الذى يحدثه الضغط من تلك العضلات على الأوردة.

وعملية الشهيق التنفسية لها هى أيضًا أثر فى دفع الدم خلال الجهاز الوريدى كما أن حركات الأمعاء لها أثر مماثل أيضًا وإذا ما توقفت عضلات الساقين عن الحركة لمدد طوال كما يحدث للجنود الذين يقفون بهيئة «استعراض» فإن الدم

يتجمع فى الجزء الأسفل من الجسم وبذلك ينقص المقدار المتاح منه للدماغ وهذا هوالسبب فى أن الاصماء من صغار الجنود يغمى عليهم إذا ما وقفوا وقتًا طويلاً على هيئة التفات فى يوم حار[1].

وإن ما سلف وصفه من الجهاز الدورى حتى هذا الموضع من الكلام قد يشعر بأن الدم يفيض خلال الجسم فى ممر دائرى بسيط.

ولكن حقيقة الأمر هى أن الدم يمر فى بضع دورات خلال الجسم وقد مر فيما سلف ذكره الدورة الدموية خلال الرئتين.

وهى الطريقة التى بواسطتها يبدل الدم الأكسجين بما يحويه من ثانى أكسيد الكربون.

ومن بين الدوائر الأخرى التى يجتازها الدم الدائرة الناحية التى تشمل الشرايين والأوردة التى تجرى فى جدار القلب والدائرة التى تنتظيم العنق والرأس والدماغ وتلك التى تنتظم أعضاء الهضم. والدائرة الكلوية التى تتخلل الكليتين. وترجع أهمية الدورة الكلوية إلى أن الكليتين تؤديان عمل المصفاة المنظمة للجهاز الدورى الدموى أو بوساطتها تنقى المنتجات المنوعة التى تطرح من خلايا الجسم وأنسجته ويبلغ مقدار الدم الذى يمر خلال الدائرة الكلوية ليجرى تنظيفه ما يوازى ربع مجموع الدم الذى يضخ خلال الجسم وأكثر الدورات تعقيدًا هى تلك التى تنتظم الجهاز الهضمى والتى من مهمتها أن تنتقى البروتينات والكربوهدرات والشحوم والكيميائيات من الأمعاء وتوصيلها إلى الأنسجة. ويسرى الدم إلى الأمعاء السفلى. والأمعاء العليا والمعدة والطحال والبنكرياس خلال شرايين موزعة منفصلة والأوردة المؤدية من هذه الأعضاء تصب فى الوريد البابى الذى يفضى إلى الكبد وفى داخل الكبد ينقسم الشريان المؤدى إليها «الشريان الكبدى» والوريد البابى إلى شبكة متراكبة من الأوعية الشبيهة بالشعيرات تسمى الجيانيات التى بواسطتها يتاح للدم أن يكون على اتصال وثيق بخلايا الكبد وبهذه الوسيلة يتأتى

---

(١) الموسوعة الطبية جـ٧ ص٩١٥

لخلايا الدم الميتة أن تصفى من الدم فى أثناء مروره خلال الكبد ليتخزن فيها ما تحتويه من الهيموجلوبين لإعادة استعماله كما أن خلايا الكبد تسحب السكر من الدم لتخزنه أو تطلقه حسب الاقتضاء وكذلك تزيل من الدم كثيرًا من المواد التى قد يكون بقاؤها فيه ضارًا لأنسجة الجسم. والدم الذى يغادر الكبد يفيض إلى الوريد الأجوف السفلى. إن أعضاء الجسم وأجهزته تتفاوت تفاوتًا عظيمًا من حيث كميات الدم التى تحتاج إليها فى مختلف الأوقات فحاجات الدماغ إلى الدم ثابتة المقادير بينما حاجات العضلات أكثر تفاوتًا.

والإجهاد البدنى الثقيل قد يزيد معدل فيض الدم إلى العضلات إلى ثمانية أمثال المعدل المئوى فى حالة الراحة وفى الطقس الحار يزداد مقدار الدم الذى يفيض إلى الجلد ليبرد.

وعقب كل وجبة طعام تحتاج المعدة إلى مدد إضافى من الدم ليعين على هضم الطعام وامتصاصه.

وهذه التغيرات فى مدد الدم تتحقق تلقائيًا بواسطة الجهاز العصبى المستقل الأداء الذى يحدث أثره عن طريق الألياف العضلية التى تحيط بالشرايين والشريينات الموزعة.

وهذه الألياف العضلية تنقبض وقد تخفى تبعًا للإشارة العصبية النوعية التى تنقل إليها من النخاع المستطيل الذى يقع فى أعمق جزء من الدماغ وبانقباض هذه الألياف العضلية أو ارتخائها يتغير قطر الأوعية الدموية. ويتغير تبعًا لذلك معدل فيض الدم. وبعض الكيميائيات المعينة مثل الأدرينالين والأفيدرين والهستامين والكحول. وكذلك التبغ يمكن أن يؤثر أيضًا فى حجم الأوعية الدموية وهذه التغيرات تنشأ بأكملها عن فعل انعكاس وليس للمرء مطلقًا تحكم واع فيها وفى الحالة العادية يتولى الجهاز العصبى المستقل الأداء إبقاء العضلات المحيطة بالشرايين فى حالة توتر معتدل الدرجة. وهذا التوتر هوالذى يستبقى ضغط الدم فى مستواه السوى.

ويحتاج الدماغ إلى مدد ثابت غير متغير من الدم. ولولا وجود ذلك الجهاز التحكمى الخاص لكان من المستحيل كفالة ذلك إذ أن كل حركة يأتيها المرء أو يغير بها وضعه تكون حينئذ خليقة أن تغير كمية الدم التى تفيض إلى الدماغ. وذلك الجهاز التحكمى يتضمن فعل عصبين أحدهما يقع فى الأورطى. والآخر فى الشريان السبانى بالعنق وهذان العصبان بعملهما معا يسجلان أية تغيرات تحدث فى ضغط الدم. مما يجعل الجهاز العصبى المستقل الأداء يغير معدل ضربات القلب وحجم الأوعية الدموية ليظل ضغط الدم فى مستواه الصحيح.

إن خلايا الدم والكيميائيات ومحتويات الدم الأخرى تجرى خلال الأوعية الدموية معلقة فى سائل رائق كما أن الفجوات الواقعة بين أنسجة الجسم يملؤها سائل مماثل.

وفى كثير من الأعضاء. تصل الغذائيات إلى الخلايا محمولة فى ذلك السائل الذى يتخلل الأنسجة وكذلك ينقل هذا السائل منتجات النفاية من الخلايا إلى الشعيرات.

وبدوران الدم خلال الشعيرات يجنح هذا السائل إلى التسرب خلال جدران الشعيرات إلى الجسم. وإحدى وظائف الجهاز اللمفاوى هى أن يجمع هذا السائل ويعيده إلى الجهاز الدورى.

وحينما يكون ذلك السائل الذى يتخلل الأنسجة موجودًا فى داخل الجهاز اللمفاوى يسمى باللمفا.

والسائل الذى يتخلل أنسجة الجسم يتجمع فى قنوات مجهرية الحجم تسمى الشعيرات اللمفاوية ومعظم هذه القنوات يقع على مقربة من سطح الجسم. وينقل اللمفا إلى أوعية لمفاوية أكبر حجمًا تحتوى على أصمة ذات اتجاه واحد تشبه تلك التى بالأوردة. وفى نهاية الأمر تفرغ تلك القنوات اللمفاوية الكبيرة ما بها من اللمفانى فى الأوردة الواقعة عند قاعدة العنق ويفيض اللمفا خلال الجهاز اللمفاوى مدفوعًا بالفعل الدلكى نفسه الذى يدير الدم خلال الجهاز الوريدى.

وعلى مسافات من امتدادات الأوعية اللمفاوية توجد العجيرات وهى قطع بشكل حبات الفول تتكون من نسيج ضام تصفى فيها الجراثيم والأجسام الغريبة الضارة التى تكون عالقة بها وثمة كتل من النسيج اللمفاوى أكبر حجمًا تسمى بالأعضاء اللمفاوية ومن بينها الطحال واللوزتان والتيموس. وهذه الأعضاء تنتج خلايا دموية بيضاء من نوع متخصص مهمتها حماية الجسم من العدوى[1].

(١) الموسوعة الطبية جـ٧ ص٩٢٢

٣ـ نعمة خلق الجهاز التنفسى

من نعم الله الجليلة التى تذكر فتشكر . نعمة الهواء. وسأتحدث عنه عند الحديث عن النعم الآفاقية.

ولكنى سأتحدث عنه الآن من ناحية حاجة الجسم إليه وانقطاع الحياة بحبسه عن الجسم وهو ما يسمى بالاختناق. فما الاختناق إلا منع الهواء من الوصول للجسم ونعمة التنفس تسبق نعمة الطعام ونعمة الشراب ونعمة اللباس ونعمة السكن وغير ذلك من النعم.

وذلك إذا تدبرنا ان نعمة الطعام يمكن الاستغناء عنها لعدة أيام. ونعمة الشراب يمكن الاستغناء عنها ليوم أو يومين.

أما نعمة الهواء فلا يمكن الاستغناء عنها إلا لبضع دقائق فحسب. يموت الإنسان بعدها بسبب حبس الهواء عنه.

وما غفل الناس عن هذه النعمة إلا بسبب توافرها دائمًا فى الحياة فالهواء يشغل كل فراغ يحيط بنا.

والنعمة إذا عمت وشملت الناس جميعًا فى جميع الأزمنة والأمكنة كان ذلك مدعاة لغفلة الكثير من الناس عنها.

ولقد رجعت للموسوعة الطبية لتسلط لنا الضوء على نعمة التنفس. فقالت الموسوعة الطبية:

«التنفس هو عملية إدخال الأكسجين إلى الجسم. وإخراج ثانى أوكسيد الكربون منه والأكسجين ضرورى لعمليات الحياة التى تقوم بها جميع خلايا الجسم.

وثانى أوكسيد الكربون من أكبر فضلات الجسم التى تنتج من هذه العمليات.

ولهذا فإن عملية التنفس مستمرة دون انقطاع. ويحتاج الجسم فى حالة الراحة إلى ٢٣٠ لترًا من الاكسجين يوميًا.

ففى كل دقيقة من النشاط العادى يجب انتقال ربع لتر من الأكسجين إلى الدم وهذا يحتاج إلى أن تستنشق الرئتان ٥,٥ لترات من الهواء.

ويحتاج العداء فى أثناء عدوه فى مستوى سطح البحر إلى استنشاق ١٣٢ لترًا من الهواء فى كل دقيقة.

ويجب امداد كل خلية حية بالجسم دوماً بالأكسجين فى أثناء الراحة ويجب أن تتخلص الخلية كذلك من ثانى أوكسيد الكربون.

والجهاز التنفسى مختص بتبادل الأكسجين وثانى أكسيد الكربون بين الهواء وخلايا الجسم وأعضاؤه الأساسية هى الرئتان والممرات التنفسية.

يبدأ ذلك بدخول الهواء تجويفى الأنف والفم حيث يصير دافئًا ويتشبع بالرطوبة ثم يمر بالبلعوم والحنجرة والقصبة الهوائية والشعب التى تتفرع فى داخل الرئتين.

وبداخل الرئتنين تتفرع الشعب تباعًا إلى شعيبات أصغر فأصغر لتنتهى بعناقيد من الأكياس الهوائية. وهناك ٧٥٠ مليون من هذه الأكياس المسماة بالاسناخ فى داخل الرئتين.

ويجرى الدم خلال ما يسمى بالجهاز الدورى الرئوى بالرئتين ويتفرع هذا الجهاز إلى شعيرات فى النهاية. ويحدث تبادل الغازات بين الهواء والدم خلال الأغشية الرقيقة لشبكات الشعيرات المحيطة بالاسناخ، فتهجر جزئيات ثانى أوكسيد الكربون كريات الدم الحمر بالشعيرات إلى هواء الاسناخ بينما تهجر جزئيات الأكسجين الهواء إلى الكريات الحمر.

وتسير كريات الدم بالأكسجين فى تركيب مفكك مع الهميوجلوبين فى دورة الدم الرئوية لتمد به خلايا الجسم المختلفة وقد شرح مجرى خلايا الدم بالجسم فى فقرة خاصة عن الدورة الدموية. وطريقة التقاط الهميوجلوبين للأكسجين ونقله فى فقرة عن الدم وتتخلص الرئتان من ثانى أوكسيد الكربون بوساطة التنفس. وفى كل مرة من مرات التنفس تتبادل الرئتان سدس ما بها من الهواء مع الجو المحيط بالجسم.

والتنفس هو تلك الحركة التناظمية المؤلفة من الشهيق والزفير التى بواسطتها تتزود الرئتان بفيض دائم من الهواء.

ومعدل التنفس السوى حينما يكون الجسم فى حالة الراحة يتراوح ما بين حوالى ستة عشرة إلى عشرين مرة فى الدقيقة. ويجرى تنظيمه فى جزء منه تلقائيًا. وفى الجزء الآخر عن وعى. بواسطة الجهاز العصبى ويتكفل بتحقيقه الحجاب الحاجز. وهو تلك العضلة العريضة الكبيرة التى تقع فى قاعدة التجويف الصدرى. وكذلك عضلات ما بين الضلوع التى تتكفل بتحريك الضلوع. وحينما ينخفض الحجاب الحاجز وينسطح ويقترن ذلك برفع الأضلاع إلى أعلى وإلى خارج بواسطة العضلات ما بين الضلوع. فإن التجويف الصدرى يتسع فيطوع ذلك للرئتين أن تستوسعا وتستوعبا الهواء إلى داخلهما. وعندما تنبسط تلك العضلات تعود الرئتان بصفة طبيعية إلى حالتهما غير المستوسعة. فتطردا الهواء إلى الخارج.

وتختلف سرعة التنفس كثيرًا فيكون سريعًا أو بطيئًا. ويكون عميقًا أو ضحلا ولكنه لا يتوقف فى المنام أو اليقظة ويقف مؤقتًا عند البلع. ويمكن ضبط التنفس إراديًا وقت الكلام أوالغناء ويمكن وقفه مدة ٤٥ ثانية أو أكثر عند التقاط صورة للمرء بوساطة آلة التصوير أو إطلاق عيار نارى أو السباحة تحت الماء وما إلى ذلك وعلى هذا فالتنفس ينضبط ذاتيًا وإراديًا.

وكيف يحدث الانضباط الذاتى للتنفس.

يحدث ذلك عن طريق مراكز عصبية خاصة بالمخ إذ ترسل هذه المراكز الإشارات العصبية خلال الحبل الشوكى ثم إلى أعصاب الحجاب الحاجز وعضلات الأضلاع وتتأثر هذه المراكز العصبية كيمائيًا. وكذلك بالأفعال المنعكسة.

ويتوقف التأثر الكيمائى على مستوى ثانى أوكسيد الكربون بالدم واستجابة التنفس لذلك فى غاية الحساسية لدرجة أن إرتفاع ثانى أوكسيد الكربون ٢/١ ٪ يرفع كمية الهواء المتنفس فى الدقيقة إلى مثلين إلى أن يتخلص الدم من ثانى أوكسيد الكربون الزائد.

وزيادة ثانى أوكسيد الكربون وليست قلة الأكسجين هى العامل الأصلى فى حساسية المراكز العصبية للتنفس.

التنفس والرياضة

تؤدى الحاجة إلى الأكسجين إلى زيادة سرعة التنفس وعمقه. ويتم ذلك أيضًا دون زيادة ما فى نسبة ثانى أوكسيد الكربون ويمكن ملاحظة ذلك فى الأماكن التى يبلغ ارتفاعها عشرة آلاف قدم أو أكثر حيث يقل ضغط الهواء ويقل الأكسجين. ولهذا تزيد سرعة التنفس للمحافظة على كمية استهلاك الأكسجين وعند القيام بعمل عنيف كالعدو فى سباق لا تتمكن الرئتان من القيام بالإمداد الكافى من الأكسجين ولا تتمكن كريات الدم من حمل القدر الكافى لزيادة احتياج العضلات ولا تتمكن العضلات أيضًا من استهلاك ما يكفيها من الأكسجين بسرعة والذى يحدث فى مثل هذا الظرف هو أن تستمر العضلات فى عملها ويصير الجسم مدينًا بالأكسجين لعدم وجود ما يكفى منه ويتكون حمض اللبنيك نتيجة ثانوية للأيض العضلى.

وعند انتهاء السباق يلهث العداء ليدخل الهواء لتكملة دورة الأيض وإحراق حمض اللبنيك.

وفى الإجهاد الشديد كالعدو لمسافات طويلة يجرى المتسابق بسرعة جديدة تسمى «الريح الثانية» وبهذه السرعة يتمكن من العدو بخفة وسهولة دون الشعور باجهاد ما ويصير تنفسه عميقًا وسريعًا وقلبه سريعًا وضغط دمه مرتفعًا فتزداد سرعة دورته الدموية. وهذا يجعل التبادل الغازى أسرع فى العضلات وفى داخل الرئتين. وتزيد سرعة التنفس والدورة الدموية مع توسع الأوعية الدموية فتزيد كمية الدم المحمل بالأكسجين الذى يصل إلى العضلات إلى أن يسد احتياجاتها. وعندئذ يحدث التوازن. ولا شك فى شعور الرياضى بالتعب بعد سباق طويل أو سباحة طويلة أو مباراة عنيفة ولكنه لا يلهث إطلاقًا إلا إذا انهى المباراة بمجهود غير عادى يسبب «دينا» من الأكسجين.

وتتعرض الرئتان للهواء الجوى بصفة مستمرة باستنشاقها للهواء نحو عشرين مرة كل دقيقة. وتدخل مع الهواء ذرات غريبة سابحة فيه وللوقاية من ذلك تتخذ الرئتان وسائل كثيرة.

فالهواء الجوى البارد ترتفع حرارته فى ممرات الأنف وهو فى طريقه إلى الرئتين لوجود عدد كبير من الأوعية الدموية بالغشاء المخاطىء للجهاز التنفسى. كما أن هذا الغشاء رطب لذلك يتشبع الهواء الجاف بالرطوبة فى أثناء مروره فى المسلك التنفسى. وتقوم أهداب الغشاء بتصفية الهواء من ذرات الغبار والسناج والبكتريا. وتبطن هذه الأهداب جميع الممرات الشعبية كالزغب تمامًا وتتصيد أيضًا قطرات المخاط التى تفرزها ممرات التنفس وتطرد جميع المواد الغريبة إلى الخارج فى اتجاه حركتها.

وبذلك تخلص أنسجة الرئة الرقيقة من أذاها. وتسبب الذرات الكبيرة التى لا تتمكن الأهداب من اصطيادها سعالاً أو عطسًا يطردها بقوة.

والعطس والسعال أفعال منعكسة نتيجة تنبيه المنتهيات العصبية بالممرات التنفسية ويبدأ تنبيه السعال من الحلق والعطس من الأنف.

التثاؤب والتنهد:

التثاؤب شهيق طويل بفم كامل الاتساع والتنهد زفير طويل يقابل عملية التثاؤب وقد يكون التثاؤب نتيجة الحاجة إلى بعث الروح فى جسم مثقل بالتعب والهموم بازدياد تبادل الغازات بين الدم والرئتين فيتنفس الجسم نتيجة لذلك.

أما التنهد فنتيجة تنبيه نفسى. فنحن نتنهد للتفريج عن النفس بعد شدة ممضة أو لإزالة حمل ثقيل من الحزن أو القلق. فاستنشاقه العميق والزفرة الطويلة تبعث فى الجسم الاسترخاء وفى النفس الهدوء(١).

هذا حديث العلم عن آثار القدرة الإلهية فى نعمة خلق الجهاز التنفسى.

---

(١) الموسوعة الطبية جـ ص٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣.

وفى حديث العلم نرى عظيم إبداع القدرة الإلهية فى خلق الجهاز التنفسى ولعل فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[1].

أقول لعل فى قوله تعالى فى هذه الآية «وتصريف الرياح ما يشير إلى عظيم إبداع الله فى تسخير الرياح فى نعمة التنفس».

ومن سنن القرآن الكريم أنه لا يتعرض للحديث صراحة عن دقائق الإبداع الإلهى فى المخلوقات الذى لا تتسع له عقول المخاطبين وقت نزوله وإنما يشير إشارات يدركها أهلها من المتخصصين فى العلوم المختلفة بعد أن يكشف الله عز وجل لهم عن سر إبداعه فى مخلوقاته وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[2].

وأسوق حديثاً آخر للعلم يتناول نعمة الجهاز التنفسى من زاوية أخرى وفى ذلك إثراء للبحث ومزيد من الضوء على هذه النعمة الجليلة «نعمة الجهاز التنفسى».

يقول مؤلف كتاب اعرف نفسك :

«يدخل الهواء بطريق الأنف والسبب فى هذا. وأرجو أن يكون دائمًا كذلك شأنكم جميعًا هو أنك إذ تنفست بطريق فمك فإنك بذلك تختصر طريق عملية تكرير طبيعية تقصد بها الطبيعة إلى تنقية الهواء الذى حولنا من بعض شوائبه ولعلنا نلاحظ أنه كلما كان هناك ضباب كثيف لا سيما فى العواصم والمدن الكبرى فإن الأنف يصير أسود من الداخل. والسبب فى هذا هو أن الشعيرات الصغيرة الموجودة بداخل الأنف قد احتجزت ذرات الهباب العالقة بهواء المدينة.

---

(١) البقرة: ١٦٤.

(٢) فصلت: ٥٣.

فلو أن هذا الهباب قد نفذ من الأنف مع الأنفاس ولم يمنعه مانع من عبور تلك الحدود فإنك تستطيع أن تتصور ما عساه أن يكون قد طرأ من السواد والانسداد على جهاز تنفسك حتى الآن.

ومثل تلك الشوائب موجود فى الهواء على الدوام حتى إذا لم يكن بمثل الكثافة التى يكون عليها حينما يكون هناك ضباب والاستعدادات الخاصة بداخل الأنف. مقصود منها منع تلك الشوائب من اجتياز حدود الأنف.

وبعد دخول الأنف ينفذ الهواء الذى تمت تنقيته من بعض شوائبه من خلال فتحتى الأنف وينحدر إلى الرئتين من طريق القصبة الهوائية. وهذه الممرات جميعًا تكسو جدرانها من الداخل طبقة من الرطوبة تلتقط وتعزل بقايا الشوائب حتى يصل الهواد إلى الرئتين نقيًا صالحًا للاحتراق فى موقدنا.

وإننا لا نتنبه إلى وجود تلك الرطوبة الخاصة إلا حين نصاب بنزلة برد بكل ما يلازمها من المضايقات والاخلال بالتنفس.

على أن الشىء الذى قد تسأل عنه هو تلك القوة التى ترتفع بالهواء وتنخفض فى الأنف من طريق جهاز التنفس.

وخير طريقة للإجابة عن هذا السؤال. هى التفكير فى المنفاخ أو الاكورديون. وهو تلك الآلة الموسيقية التى تستقل بطريقة تعبئة الهواد ثم تفريغه بصورة مستمرة.

فإذا ضغطنا على إحدى هاتين «الآلتين» أولاً ثم تركناها لتنتفخ فإن الهواء ينجذب إلى داخلها فالطبيعة على نحو ما قد تعلم تهرب من الضغط وكلما وجد فراغ فإن شيئًا ما يجب أن يندفع لكى يملأه وهذا على الأقل هو حكم الأحوال السائدة على هذه الأرض. وذلك بصرف النظر عما إذا كان هذا «الشىء» هو البحر حين يغوص فى الأرض بسبب هزة فى قاعه أو الهواء فى مثل الأحوال التى وضحناها منذ قليل.

والمنفاخ أو «الاكورديون» الذى يعمل بداخلك هو الرئتان والرئتان مثل بعض أعضائنا الأخرى كالأمعاء مثلاً. أكبر كثيرًا مما قد نظن. فلو أن كل خلاياهما الصغيرة بجدرانها التى تشبه العنكبوت قد فتحت مسطحة وفرشت على الأرض لغطت مساحة قدرها مائة ياردة مربعة. ولكنها بسبب كونها مضغوطة إلى بعضها البعض فإن الرئتين تشغلان مع القلب فراغًا محددًا صغيرًا يحميه إطار من ضلوعنا فالضلوع والجزء الأعلى من العمود الفقرى تتكون منها إذا شئت حظيرة تحفظ التوأمين وهما الرئتان.

على أن إطلاق اسم «البالونين» على الرئتين قد يعطيك فكرة خاطئة. وكذلك المقارنة بينها وبين المنفاخ والاكورديون. وإن كانت هناك أوجه للشبه فيما تؤديه جميعًا. من العمل.

وأظن أن خير وسيلة تعطيك فكرة عن شكلهما ومظهرهما. فى المقارنة بينهما وبين ذلك النوع من الخضر المعروف باسم القرنبيط.

وأننا نعرف كيف أن القرنبيط بعد انتزاع أوراقها الخارجية يظهر فى وسطها ساق سميكة تتفرع عليها سيقان أصغر منها تتفرع عليها هى الأخرى سيقان أصغر وأصغر توجد فى أطرافها القمم البيضاء التى هى بمثابة الزهرات.

فإذا أنت أمسكت بالقرنبيطة مقلوبة رأسًا على عقب تكونت لديك فكرة ما عن هيئة الرئتين.

فإن الساق السميكة التى هى القصبة الهوائية تتفرع منها سلسلة من المجارى الدقيقة. كل منها أصغر من سابقتها إلى أن تنتهى هذه إلى خلايا هوائية صغيرة تشبه الزهرات فى ثمرة القرنبيط.

ولكن يجب أن نتذكر أن ما عندنا هو قرنبيطة مزدوجة يتفرع على ساقها الرئيسية مجموعتان من الزهرات هما الرئتان اليمنى واليسرى.

وفى جدران كل تلك الأنابيب توجد الأوعية الدموية التى يزداد دقتها كلما ازدادت الأنابيب نفسها نحولاً ودقة.

فإذا هى وصلت إلى الخلايا الهوائية فإنها تكون قد بلغت درجة تفوق الوصف من التناهى فى اللطف. . الذى يكاد يبلغ مبلغ الخفاء.

وحين تضغط الخلايا الهوائية كما يضغط المنفاخ فإننا نقوم بحركة زفير ورد الفعل الطبيعى على هذا هو الشهيق حيث تمتلىء الخلايا الهوائية من جديد بالهواء مانح الحياة.

والآن نجد أن كل من هذه الخلايا الهوائية على نحو ما رأيت فى دراستنا للحياة العضوية فى مجموعها هى معمل كيماوى صغير يعمل لحساب نفسه ومهمتها المحددة هى استخلاص الاكسجين من الهواء وتمريره خلال قنواتها الدموية الخاصة إلى مجرى الدم الرئيسى وتحويل نفايات الهواء إلى غاز آخر هو أكسيد الكربون الذى يخرج مع الزفير وعلى هذا النمط نجد أن النظام المعقد فى جهاز التنفس بما فيه من الأنابيب والمعامل الكيماوية لا يستطيع أن يؤدى عمله على الوجه الأكمل حقًا إلا إذا كانت أجزاؤها جميعًا فى حالة جيدة متعاونة فى سبيل الصالح العام.

ويجب أن نلاحظ أنها لا بد من أن تتعاون ليس فيما بينها. وحسب بل كذلك مع سائر أجزاء الجسم الأخرى جميعها التى تحظى معها بخدمات جوهرية النفع.

والرئتان فى مأمن من خطر أى إصابة تأتيها من الخارج وذلك بفضل الضلوع التى تحميها فضلاً عن عظمة القفص والجزء العلوى من السلسلة الفقرية وحزمة من العضلات متينة تفصل بين الصدر والبطن.

ولكن هذا القفص ليس هيكلاً صلبًا كما أننا لا نحتمل أن يكون كذلك فمن الواجب أن يكون مرنًا مرونة المنفاخ والاكورديون. حتى يسمح بأن تتم عمليتا الشهيق والزفير.

٤ ـ نعمة خلق الجهاز العصبى

هو أدق وأعقد أجهزة الجسم الإنسانى.

«فكل أنواع النشاط البدنى يجرى تنسيقها بواسطة الجهاز العصبى»[(١)].

وقد بدا لى أن أترك الحديث عنه حيث لم أجد آية قرآنية تتحدث عنه صراحة أو حديثًا نوبيًا شريفًا. ورسالتى بالدرجة الأولى فى التفسير.

ولكن ما كان يمكن لى أن أترك الحديث عن هذا الجهاز العجيب. الذى هو من أجل نعم الله على خلقه.

وقد صرح القرآن الكريم بأن نعم الله لا تحصى. قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا**﴾.

والجهاز العصبى من أجل نعم الله على الإنسان.

من هنا استبحت لنفسى أن أتحدث عن نعمة الجهاز العصبى. لدخولها فى عموم هذه الآية:

«ولقد تحدثت الموسوعة الطبية عنه فقالت:

«كل أنواع النشاط البدنى يجرى تنسيقها بواسطة الجهاز العصبى الذى ينقسم وظيفيًا إلى جزءين. أحدهما جثمانى والآخر مستقل الأداء.

كما ينقسم تشريحيًا إلى جهاز عصبى مركزى. يتكون من الدماغ والنخاع الشوكى وجهاز عصبى طرفى. يتضمن الأعصاب الموردة التى تمد الجهاز العصبى المركزى بالمعلومات. والأعصاب المصدرة التى ترسل التعليمات من المخ والنخاع الشوكى إلى الجسم.

والجهاز الجثمانى يؤثر فى الوظائف التى تخضع للتحكم الإرادى.

---

(١) الموسوعة الطبية

أما الجهاز المستقل الأداء فيسيطر على العضلات. والملمس والقلب والغدد. وهو يؤثر فى الأعضاء الداخلية وسوائل الجسم. ودرجة الحرارة.

مثلاً إذا ما وخز أصبع بدبوس أحدث ذلك فعلاً انعكاسيًا معقدًا.

فالنيورونات الحساسة التى يحدث تنبيهها تنقل المؤثرات خلال العصب الشوكى إلى الحبل الشوكى. حيث ترحل فى اتجاه علوى إلى الدماغ. مجتازة المخيخ فالدماغ الأوسط إلى قشرة المخ. حيث تتصل بنيورونات محركة ورابطة تنبه استجابات واسعة النطاق فى جميع أنحاء الجسم. وتشمل إدراك الألم. وتنبه عضلات الذراع واليد لجذب الأصبع بعيدًا عن الدبوس. وتنبه كذلك العضلات التى تحفظ التوازن[1].

(١) المصدر السابق .

٥- نعمة خلق العظام

يقول تعالى مشيراً إلى نعمة خلق العظام:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾(١).

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسيره:

«فمرحلة كسوة العظام باللحم يذكر القرآن أنها تجىء متأخرة عن خلق العظام».

وهنا يقف الإنسان مدهوشًا أمام ما كشف عنه القرآن الكريم من حقيقة فى تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا أخيرًا بعد تقدم علم الأجنة التشريحى. ذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم. وقد ثبت أن خلايا العظام هى التى تتكون أولاً فى الجنين.

ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام وتمام الهيكل العظمى للجنين. وهى الحقيقة التى يسجلها النص القرآنى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾(٢).

وقال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾. يعنى شكلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها. وقال ابن عباس: هو عظم الصلب. وفى الصحيح من حديث ابن الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»(٣).

---

(١) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٤ ص٢٤٥٩.

(٣) ابن كثير جـ٣ ص٢٤٠.

وكلام ابن كثير الذى رواه عن ابن عباس. وعن سيدنا رسول الله ﷺ. وبه يفسر العظام فى الآية بعجب الذنب. وهو آخر عظم فى أسفل العمود الفقرى لا يستقيم مع نص الآية.

حيث يتسع نص الآية لجميع العظام كما ذكر الأستاذ سيد قطب فى تفسيره.

ولقد إشارت السنة الصحيحة. وهى شارحة القرآن ومبينته. إلى نعمة خلق العظام مع وجوب شكرها. وذكر طريقة شكرها.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كل سلامى من الناس عليه صدقة. كل يوم تطلع فيه الشمس. تعدل بين اثنين صدقة وتعين الرجل فى دابته فتحمله عليها. أو ترفع له عليها متاعه صدقة. والكلمة الطيبة صدقة وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة. وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[١].

وفى تفسير السلامى:

«قال أبو عبيد: السلامى فى الأصل عظم يكون فى فرس البعير. قال: فكأن معنى الحديث: على كل عظم من عظام ابن آدم صدقة. يشير أبو عبيد إلى أن السلامى اسم لبعض العظام الصغار التى فى الابل. ثم عبر عنها عن العظام فى الجملة بالنسبة إلى الأدمى وغيره. فمعنى الحديث عنده: «على كل عظم من عظام بنى آدم صدقة»[٢].

وخرج مسلم من حديث عائشة عن النبى ﷺ قال:

«خلق الله ابن آدم على ستين وثلثمائة مفصل . فمن ذكر الله وحمد الله وسبح الله وعزل حجرًا عن طريق المسلمين أو عزل شوكة أو عزل عظمًا أو أمر

---

(١) رواه البخارى ومسلم. البخارى جـ٥ ص٢٣٦ ومسلم كتاب الزكاة باب بيان ان اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف جـ٢ ص٦٩٩.

(٢) جامع العلوم والحكم ص٢٣٧.

بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة امسى من يومه وقد زحزح نفسه من النار»(١).

هذا حديث القرآن الكريم وإشاراته لنعمة خلق العظام.

وحديث السنة النبوية المطهرة عنها:

وهنا يأتى دور العلم الجديث للكشف عن هذه النعمة. ومدى إبداع القدرة الإلهية فى خلقها.

تقول الموسوعة الطبية:

«العظم هو النسيج الصلب الذى يكون الجزء الأكبر من الهيكل البشرى. ويتكون الجهاز الهيكلى للإنسان من ستة ومائتين من العظام المستقلة. يربط بعضها إلى بعض عند المفاصل «أربطة» ويدفعها إلى الحركة «عضلات» تثبتها فى العظام «أوتار» فالعظام والأربطة والعضلات والأوتار هى أنسجة الجسم المسؤولة عن ثباته وحركته.

ولبعض العظام وظيفة رئيسية هى حماية ما تحتها. ومثال ذلك الجمجمة التى تحتوى الدماغ والعينين والأذن الداخلية. وبعضها الآخر مثل الحوض بنيان دعامى فى أساسه وعظام أخرى كالفك وعظام الأصابع تختص أصلا بالحركات. ويقوم نخاع العظام بعمل هام هو صنع خلايا الدم (كرياته) أما العظام أنفسها فهى مخزن للكلسيوم الذى يجب أن يحافظ الدم على نسبة خاصة منه ليؤدى الجسم وظائفه الكيميائية بصورة سوية.

ليس العظم متجانسًا فى بنيانه بل يتكون من عدد من الطبقات من مواد مختلفة فالطبقة الأولى من خارج أى السمحاق غشاء رقيق قوى من النسيج الليفى ويدعم السمحاق الأوتار التى تربط العضلات بالعظام كما يقوم بوظيفة حماية العظم.. ويغطى السمحاق جميع العظام إلا عند المفاصل حيث تحل محله طبقة

---

(١)رواه مسلم جـ٧ ص٩٢ كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف.

من «الغضروف» وهو النسيج القوى المرن نفسه الذى نراه فى صيوان الأذن والمنخرين.

وتلى السمحاق طبقات كثيفة صلبة من النسيج العظمى المعروف «بالنسيج الأصم» وبناؤه ليفى غير شديد الصلابة مما يعطى العظم مرونته وتغلف هذه الطبقات النسيج الذى يكون الجزء الأكبر من العظام ويسمى «النسيج الاسفنجى» لاحتوائه على عدد من الفجوات الصغيرة التى تشبه الاسفنج. والجزء الداخلى للعظم تجويف ملىء بالنخاع. وتخترق الأوعية الدموية طبقات العظام كلها تحمل إليها الغذاء والأكسجين وتخلصها من المخلفات والنفايات ويشتمل النسيج العظمى على عدد كبير من الأعصاب كذلك.

والأساس الكيمائى للعظم. الذى يعطيه الصلابة والقوة. هو فوسفات الكالسيوم.

أنواع العظام :

للعظم نوعان رئيسان: العظام الطويلة مثل عظام الذراعين والرجلين والعظام المسطحة كعظام الجمجمة والصلب والحوض وتغلظ العظام الطويلة عند أطرافها وهو تنظيم يفيد فى انتقال الوزن والجهد من قصب العظام إلى المفاصل. وتتكون الأطراف الغليظة أكثر ما تتكون من النسيج الاسفنجى أما العظام المسطحة فيغلب أن تكون منحنية لتهيىء سطحًا واسعًا لاتصال العظام بها.

تطور العظام :

أصل معظم العظم فى الجنين غضروف مما يسمح لهيكل الطفل بمزيد من المرونة والانثنائية ثم تتجمع فوسفات الكالسيوم تدريجيًا فى الغضروف فتزيد من صلابته ويتكسر كثير من الخلايا الغضروفية فتتكون ممرات فى داخل العظم تدخل فيها الأوعية الدموية حاملة معها خلايا النسيج الضام الصغيرة.

فيتحور بعضها إلى «خلايا عظمية» أى خلايا مكونة للعظم الأصيل ثم تأخذ الخلايا العظمية فى تكوين طبقات من العظم الصلب فى الغضروف المتكلس الذى

يبدأ فى التآكل والتقوض بفعل خلايا أخرى تعرف «بناقصات العظم» لتفسح الطريق أمام العظم الجديد وتستمر هذه العملية طوال عمر الإنسان غير أنها تبطىء تدريجيًا مع تقدم العمر.

وبالطريقة نفسها ـ من تكون الغضروف واحلال العظم محله ـ تنمو العظام فى الجسم ففى مدة نمو العظام ينمو الغضروف على أطراف العظام ثم تتصلب هذه الطبقة الغضروفية بترسب فوسفات الكالسيوم بها. ثم تنمو على سطحها طبقة غضروفية جديدة تتحول بدورها إلى عظم وهكذا حتى يصل الجسم إلى تمام نموه وتنمو العظام الطويلة بالطريقة نفسها إذ تتكون طبقة غضروفية فوق أطراف العظام ثم «تتعظم» هذه الطبقة وتنمو على سطحها طبقة جديدة كما سبق وصفه[1].

(١) الموسوعة الطبية جـ١٠ ص١٣٩٨، ١٣٩٩.

٦ ـ نعمة خلق الأذنين

لقد ذكر السمع فى أكثر من آية قرآنية مقرونا بالأبصار والأفئدة.

وهذا الذكر إنما جاء فى مقام التمنن والتفضل وتوجيه الإنسان الى آيات الله فى نفسه لينظر اليها ويتفحصها. ويشكر الله عليها.

ونستطيع أن ندرك مدى ما فى هذه الأعضاء من آيات بينات تدل على عظيم إبداع الله فينا إذا عرفنا أن الطبيب يقضى قسما كبيرا من حياته فى الدراسة والتخصص فى عضو واحد منها وليته يستطيع أن يحيط بذلك علما.

يقول تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** (٢٣) ﴾[١]..

فقدم سبحانه السمع على البصر والفؤاد، وجعلهما جميعا من دواعى شكر الله على نعائمه.

ويقول تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾[٢]..

كما يقول تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** (٧٨) ﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** (٩) ﴾[٤].

---

(١) الملك: ٣٢.
(٣) النحل: ٧٨.
(٢) المؤمنون: ٧٨.
(٤) السجده: ٩.

« فالبصر مع السمع يشكلان نافذة الإنسان على العالم الخارجى ويعتبران جهاز التمييز والإدراك مع الفؤاد عند الإنسان » .

ولو نظرنا إلى طبيعة خلق هذين الجهازين الصغيرين لرأينا العجب العجاب في كمال الخلق ودقة التركيب .

فمدخل الأذن المتعرج الدقيق لا يسمح بدخول الأجسام الغريبة بسهولة.

وهو محاط للوقاية من الأخطار بصيوان الأذن. وبقطعتين لحميتين موجودتين فى فوهة مجرى الأذن.

كما يوجد الشعر والغدد الخاصة الى تقوم بتنقية الوارد الى الاذان من ذرات الغبار الدقيقة التى يحملها الهواء[1].

يقول الأستاذ سيد قطب مشيرا الى نعمة السمع وغيرها من الحواس:

لو تدبر الإنسان خلقه وهيئته. وما زود به من الحواس والجوارح.

وما وهبه من الطاقات والمدارك لوجد الله. ولاهتدى اليه بهذه الخوارق الدالة على أنه الخالق الواحد.

فما أحد غير الله بقادر على إبداع هذه الخلقة المعجزة فى الصغير منها والكبير.

هذا السمع وحده وكيف يعمل؟

كيف يلتقط الأصوات ويكيفها؟

إن مجرد معرفة طبيعة هذه الحواس والقوى وطريقة عملها. يعد كشفا معجزا فى عالم البشر فكيف بخلقها وتركيبها على هذا النحو المتناسق مع طبيعة الكون الذى يعيش فيه الإنسان ذلك التناسق الملحوظ الذى لو اختلفت نسبة واحدة من نسبه فى طبيعة الكون أو طبيعة الإنسان لفقد الاتصال.

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ ١ ص ١٩٤ .

فما استطاعت أذن ان تلتقط صوتا، ولا استطاعت عين أن تلتقط ضوءا.

ولكن القدرة المدبرة نسقت بين طبيعة الإنسان وطبيعة الكون الذى يعيش فيه فتم هذا الاتصال.

غير أن الإنسان لا يشكر على النعمة «قليلا ما تشكرون»[1].

ولقد لفت هذا الإبداع الإلهى فى خلق الاذان نظر الدكتور «وينكر شامبرز».

وكاد أن ينتقل به من الإلحاد الى الإيما ن، ولكن شيطانه حال بينه وبين الإيمان فهوى يروى فى كتابه الشهادة: أنه بينما كان ينظر الى ابنته الصغيرة استلفت نظره أذنها. فأخذ يفكر أنه من المستحيل ان يوجد شيء معقد دقيق كهذه الأذن بمحض اتفاق إذ لا بد أنه وجد نتيجة إرادة مدبرة.

ولكنه- كما يقول- طرد هذه الوسوسة من قلبه حتى لايضطر أن يؤمن. لان ذهنة لم يكن على استعداد لتقبل هذه الفكرة الأخيرة[2] «هذا وللأذن قدرة كبيرة على تمييز الأصوات، إذ على الرغم مما يقال: إن لكل إنسان صوته الخاص به. فان الأذن تستطيع التمييز بين هذه الأصوات جميعا.

والمعلومات التى بين أيدينا عن كيفية فهم الكلمات المسموعة، وكيفية تمييز الأصوات العديدة مازالت لاتجد جوابا عليها.

ولقد قال أحد أساتذة الطب وهو يشرح كيفية انتقال الصوت وحدوث السمع.

إننا نعرف كيف يتم هذا الأمر. أما كيف تدركه الخلايا العصبية وتفهمه فلا نتدخل فى هذا البحث[3].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٤ ص ٢٤٧٦.

(٢) الإسلام يتحدى ص ٣٩

(٣) الطب محراب الإيمان جـ١ ص ١٩٢ بتصرف.

ومن ابداع الله عز وجل فى خلق الأذنين.

«أن الأذنين تسمع بهما الأصوات الآتية من مختلف الجهات ولهما حدود للسمع يسمع الإنسان بهما ما يعنيه من الأصوات، وما هو بحاجة اليه.

ولا يسمع الأصوات ذات الترددات العالية جدا أو المنخفضة جدا .

إذ يتراوح مجال سمع الأذنين بين (١٦- ٢٠) ألف ذبذبة[١].

ويقول صا حب كتاب الإعجاز الطبى. مشيرا الى إبداع المولى عز وجل فى خلق الأذنين أداة السمع :

«يوجد فى الأذن عشرة آلاف خلية سمعية. ومن خلال نظام معقد تتم عملية حفظ التوازن. بطريقة ديناميكية فسيولوجية. فى منتهى التطور والروعة بواسطة القنوات النصف هلالية[٢].

وتفصل الموسوعة الطبية القول فى إبداع المولى عز وجل فى خلق الأذنين . أداة السمع فتقول: ينقسم عضو السمع وهو الاذان الى ثلاثة أجزاء الأذن الخارجية.

وهى النتؤ الخارج عن الرأس والمغطى بالجلد، ويتضمن صماخ الاذان أو قناة السمع الخارجية.

والأذن الوسطى: التى تشتمل على غشاء طبلة الاذن. والقناة السمعية، والعظيمات الثلاث. المعروفة بالمطرقة والسندان والركاب.

والأذن الداخلية: التى تحتوى على المتاهة العظمية. التى بداخلها المتاهة الغشائية وتتركب المتاهة العظمية. من القوقعة التى تختص بالسمع ومن الدهليز و القنوات نصف الدائرية التى تختص بالتوازن.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الإعجاز الطبى.

وتنقسم القوقعة الى ثلاث قنوات تحتوى على سائل. وترتبط قناة القوقعة بالعضو الحلزونى« تحت الغشاء القاعدى. وهذا العضو هو أداة التلقى السمعى. وبوساطة الأذن الخارجية يتجمع الصوت ويرسل عن طريق صماخ الأذن الى داخل الأذن. حيث تحدث ذبذبات فى الطبلة تنقلها العظمات على شكل موجات من الضغط تسرى فى سائر القوقعة وتؤثر فى الأعضاء الحلزونية. محدثة اندفاعات. منبهة لعصب السمع، تنقل الى منطقة الدماغ المختصة بإدراك الصوت وتفسيره»[1].

ويتناول صاحب قصة الإيمان. هذا الموضوع. موضوع تفصيل القول فى إبداع القدرة الإلهية فى خلق الأذنين، أداة السمع.

ويتناول هذا الموضوع بأسلوبه الأدبى الخلاب مع تسليط الضوء على حكمة خلق كل جزء من أجزاء الأذنين، على النحو الذى هو عليه.

يقول صاحب قصة الإيمان:-

«أننا نعلم أن الأصوات تأتى إلينا بتموجات الهواء، وأن هذه التموجات فيها الشديد الحاد القاسى. ومنها الضعيف الواهى اللين.

ومنها مايقع عموديا. ومنها ما يأتى جانبيا، فخلق «صيوان الاذان» وجعل غضروفيا بين العظم واللحم.

وجعل فيه طيات وليات ليتلقى أمواج الصوت ويعكسها من طية الى لية ويوصلها الى الصماخ.

ونعلم أن الريح التى تحمل الصوت قد تكون عنيفة هوجاء. وقد تحمل معها المؤذيات من غبار وتراب وحشرات، فجعل الصماخ معوجا متقوسا نحو الأعلى «وجعل فى فمه سياجا من الشعر» وفى باطنة صماخا أصفر شمعيا ليتقى بعوجه صدمه الرياح. وبسياجه وصماخة المؤذيات. فلا تصل الى غشاء الطبلة الرقيقة الواهن.

---

(١) الأنعام: ٤٦.

ونعلم أن بعض الأصوات تكون همسا. فجعل من الصماخ بشكله الكهفى المملوء بالهواء وسيلة لتقوية الصوت. ومضاعفته «بالتصدية» على النحو الذى نسمعه فى الحمامات والكهوف. من تضخيم الصوت الضعيف فيرجع الصدى.

ونعلم أن الغشاء المتوتر كالطبل هو أفضل الأجسام الصلبة فى إيصال الصوت، فخلق غشاء الكوة البيضية والأغشية الأخرى فى الأذن الداخلية من أغشية متوترة.

ونعلم أنه إذا ثبت جسم صلب صغير فى طرف غشاء مسدود متوتر أوصل الاهتزازات الصوتية على وجه أفضل.

فلذا خلقت سلسلة العظيمات الثلاثة، وربط بين غشاء الطبلة وغشاء الكوة البيضية.

ونعلم أن كل جسم صلب محاط بوسط مختلف عنه فى الجوهر يرسل الاهتزازات فى جوهره، بأبعد مما يرسلها فى الوسط المحيط به.

فجعلت العظيمات الثلاثة معلقة فى الهواء، يحيط بها ويفصلها عن عظام الرأس وفعل مثل ذلك فى الصفيحة اللولبية بإحاطتها بسائل مختلف عنها فى الجوهر، كى لاتنقل الاهتزازات السارية فى العظيمات والصفيحة اللولبية. إلى عظام الخوذة وتتبدد فيها.

ونعلم أن سلسلة العظيمات قد تصاب بما يعطل عملها فى نقل الصوت من غشاء الطبلة الى غشاء الكوة البيضية.

فخلق الكوة المستديرة وغطاها بغشاء يساعد على إرسال الصوت من الأذن الداخلية.

وجعل لكل كرة من الكرتين طريقا فى داخل القوقعة.

ونعلم أن الشكل الحلزونى اللولبى هو الشكل الأصلح لانتشار الألياف العصبية السمعية. على مساحة متسعة. ضمن جسم صغير فى حيز ضيق فخلق

القوقعة وجعل فيها القناة اللولوبية سلمين مستطرقين. يصعد احدهما الدهليز فى الكوة البيضية. وينزل ثانيهما الطبلة الى الكوة المستديرة.

وجعل فى القناة اللولبية هذه الصفيحة اللولبية العظمية الغشائية التى تفرز سائل اللمفا.

ونعلم أن بعض الأصوات تأتى من الخوذة فخلق القنوات الهلالية لتساعد على جمع التموجات الصوتية الآتية من الخوذة، وتوجه سير الأصوات بحسب اتجاه تجاويفها المنحنية، وتوصلها الى أعصاب السمع المنتشرة فى سوائلها وسوائل القوقعة.

وخلق تعالى الزقين الغشائين المملوئين باللمفا، وجعل فى أحدهما الحجرين المتبلورين ليزيدا بصداهما شدة الهزات الصوتية.

وخلق تعالى تلك الخلايا العاقلة المدركة أن للهواء ضغطا خارجيا عنيفا طاغيا يؤذى غشاء الطبلة إن لم يقابل من داخل الأذن الوسطى بهواء يعادله ويقاومه ويحفظ الموازنة فى ضغط الهواء وحرارته.

كما نعلم ذلك من حالة التنفس. إذا حصل لنا زفير أو شهيق غائر طويل، وكان الأنف والفم مسدودين فيتوتر الغشاء الطبلى، ويتحدب نحو الخارج عند الزفير، ونحو الباطن عند الشهيق فيتشوش السمع. فخلق تعالى بوق «اوستاكيوس» وأدخل منه الهواء الى الاذن الوسطى. وجعل من هذا البوق فى الوقت نفسه موضحا للأصوات كما توضح ثقوب الآلة الموسيقية أصواتها.

وجعله سبحانه وتعالى منفذا للمخاط الذى يفرز من باطن الطبلة[1].

هذا حديث العلم عن نعمة السمع.

وهو يفصل اشارات القرآن الى دقائق هذه النعمة وأهميتها.

---

(١) قصة الايمان ص ٣٩٦ وما قبلها.

أ - تكرار مادة السمع فى القرآن
ب - اقتران السمع والبصر فى القرآن
جـ - اقتران السمع والعلم فى القرآن

وقد جاءت مادة السمع. بصيغ مختلفة كثيرا فى القرآن الكريم.

للإشادة بهذه النعمة والحث على شكرها، والتحذير من كفرانها والتهديد بزوالها عمن لايعرف شكرها.

قال تعالى مهددا المشركين بأخذ سمعهم وأبصارهم.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾[١].

وقد بلغ عدد هذه الصيغ (١٨٣) صيغة.

وكثيرا ما يقترن السمع بالبصر فى القرآن الكريم، و إذا اقترنا قدم السمع على البصر للإشادة بنعمة السمع، وتقديمها على نعمة البصر.

ويشهد لتقدم نعمة السمع على نعمة البصر «أن الذى يفقد بصره يمكن أن يتعلم، وأن يصل الى درجة من النبوغ كما هو معلوم.

ولكن الذى يفقد سمعه منذ ولادته فإنه من الصعوبة بمكان أن يرتقى فى سلم المعرفة»[٢].

وقديما قيل: إن الذى يفقد سمعه قبل النطق لاينطق وهى حقيقة علمية أقرها العلم الحديث.

---

(١) الأنعام: ٤٦.

(١) الطب محراب الإيمان جـ ١ ص ٢٠٣.

ويلفت النظر ايضا أن المولى عز وجل حين يصف ذاته المقدسة بالسمع والبصر يقدم السمع على البصر. يقول تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝٧٥﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

وحين يصف ذاته المقدسة بالسمع والعلم.

يقدم السمع على العلم أيضا. يقول تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦﴾[3].

ويقول ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4].

---

(١) الحج: ٧٥.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الدخان: ٦.

(٤) الحجرات: ١.

ارتباط خلق السمع بالشكر

وقد لفت نظرى تصريح القرآن برجاء الشكر - من العباد على خلق نعمة السمع لهم تارة يقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

يقول الأستاذ سيد قطب:

«والشكر يبدأ بمعرفة واهب النعمة «وتمجيده بصفاته» ثم عبادته وحده.. ومن عبادته التى هى تمام شكره استخدام هذه الحواس والطاقات فيما خلقت له»[2].

كما لفت نظرى كذلك تصريح القرآن بقلة شكر العباد لهذه النعمة تارة أخرى قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾[3].

وفى تصريح القرآن برجاء الشكر من العباد على خلق نعمة السمع لهم. وتصريحه بقلة شكر العباد لهذه النعمة.

فى تصريحه بهذا وذاك إشارة الى مزيد طلب الشكر على هذه النعمة وإشارة إلى عظمها.

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٤ ٢٤٧٦ بتصرف.

(٣) السجده: ٩.

٧ ـ نعمة خلق العينين

ذكر الله تعالى امتنانه على عبادة بنعمة البصر فى الكثير من آيات القرآن الكريم. مرتبطة بنعمة السمع، ونعمة العقل.

يقول تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴿٧٨﴾﴾[2].

كما يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾[4].

وذكر نعمة البصر منفردة فى مقام الحث على الاعتبار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[5].

ويقول تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾[6].

ودعانا الى تصور فقد هذه النعم الثلاثة. نعم السمع والبصر والعقل.

لندرك آنذاك مدى قيمة هذه النعم

---

(١) الملك: ٢٣.
(٢) المؤمنون: ٧٨.
(٣) النحل: ٧٨.
(٤) السجده: ٩.
(٥) آل عمران: ١٣.
(٦) النور: ٤٤.

فإن الإنسان لا يدرك قيمة النعمة غالبا إلا إذا فقدها أو جزءا منها.

وإدراكه لقيمتها عند فقدها أتم من ادراكه لقيمتها عند فقد جزء منها . ويشير الى هذه القاعدة المثل السائر القائل:

«الصحة تاج على رءوس الأصحاء لايراه الا المرضى»

دعانا سبحانه وتعالى إلى تصور فقد هذه النعم لندرك قيمتها.

فقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ** ﴾[1].

وقد صرحت السنة النبوية كذلك بالإشادة بنعمة البصر والحث على شكرها.

عن جابر بن عبدالله رضى الله عنهما عن البنى صلى الله عليه وسلم «أن جبريل أخبره:

«أن عابدا عبدالله على رأس جبل فى البحر خمسمائه. ثم سأل ربه أن يقبضه وهو ساجد. قال: فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا ونجد فى العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدى الله عز وجل فيقول الله عز وجل: «ادخلوا عبدى الجنة برحمتى» فيقول العبد: «يارب بعملى» ثلاث مرات ثم يقول الله للملائكة «قايسوا عبدى بنعمتى عليه وبعمله».

فيجدون نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة سنة. وبقيت نعم الجسد له فيقول: «ادخلوا عبدى النار» فيجر الى النار.

فينادى ربه: برحمتك أدخلنى الجنة، برحمتك أدخلنى الجنة، فيدخله الجنة قال جبرائيل إنما الأشياء برحمة الله يا محمد»[2].

فهذا الحديث النبوى الشريف يذكر أن نعمة البصر أحاطت بعباده خمسمائة

---

(١) الأنعام: ٤٦

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك جـ٤ص٢٥٠- ٢٥١. بسياق أطول وصححه وأقره الذهبى. تم تخريجه فى ص ٤ من الملحق

سنة من عابد انقطع لعبادة الله هذه المدة، مما يوحى أنه لامعصية له تستنفد طاعته ومن هنا بقيت عبادته له كاملة.

ومع هذا لم تف هذه العبادة بشكر نعمة البصر كما صرح الحديث بذلك.

وروى أبو الدرداء عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال:

«على كل نفس فى كل يوم صدقه. قيل: فإن كان لايجد شيئا؟

قال: أليس بصيرا شهما فصيحا صحيحا؟ قال: بلى

قال: فيعطى من قليله وكثيره.

وان بصرك للمنقوص بصره صدقه. وان سمعك للمنقوص سمعه صدقه[1]

وبتدبر هذا الحديث نجد البصر من النعم التى يمتن الله بها على عباده. ويقدم على غيره من النعم كالشهامة والفصاحة والصحة.

وأنه من الواجب شكر هذه النعمة. ومن شكرها إعانة المنقوص بصره ببصرك له. فيدخل فى ذلك إرشاده الى الطريق. والقراءة له. الى غير ذلك.

وعن يونس بن عبيد أن رجلا شكا اليه ضيق حاله. فقال له يونس: أيسرك أن لك ببصرك هذا الذى تبصر به مائة الف درهم؟

فقال الرجل: لا

قال: فبيدك مائة ألف درهم.

قال فرجليك؟ قال: لا.

قال: فذكره بنعم الله عليه . فقال يونس: أرى عندك مئين من الألوف وأنت تشكو الحاجة[2].

وروى ابن أبى الدنيا بإسناده عن سلمان الفارسى:

---

(١) الطبرانى فى الأوسط. باسناد ضعيف. ففيه مجهول راجع التيسير. شرح الجامع الصغير جـ٢ ص ١٣٤.
(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٢٩.

«أن رجلا بسط له من الدنيا فانتزع مافى يديه فجعل يحمد الله عز وجل ويثنى عليه، حتى لم يكن له فراش الا بؤرى.

وبسط لآخر من الدنيا، فقال لصاحب البؤرى: أرأيتك أنت علام تحمد الله عز وجل؟.

قال: أحمد الله على مالو أعطيت به ما أعطى الخلق لم أعطهم اياه.

قال: وماذاك؟

قال: أرأيت بصرك؟. أرأيت لسانك؟ أرأيت يديك؟ أرأيت رجليك؟[1].

وكذا نرى فى النصين السابقين البصر يتصدر النعم التى يشكر كل منهما الله عز وجل عليها.

هذا حديث القرآن الكريم. والسنة النبوية المطهرة وأقوال سلف هذه الأمة الصالح عن نعمة البصر. وقدرها، ووجوب شكرها، وصور من كيفية شكرها.

وتفصل الموسوعة الطبية القول فى نعمة البصر. فتكشف لنا عن إبداع القدرة فى خلق البصر.

فتقول: «العينان هما عضوا الإبصار والجفون و الرموش وقاء لهما».

ودمعهما الذى تفرزه الغدتان الدمعيتان يحفظ سطح المقلتين رطبتين نظيفتين ولكل من المقلتين ست عضلات تربطها لتثبتها فى مكانها وتتيح لها الحركة.

وتتناسق حركات العينين بحيث يتسنى لكل منهما ان يضبط بؤرته على مجال بصرى بذاته والمقلة كرية الشكل تقريبا، ويتكون جدارها من ثلاث طبقات.

الطبقة الخارجية الليفية: وتشمل الصلبة والقرنية وهما كثيفتان ومعتمتان ويكفلان للمقلة شكلها.

والطبقة الوسطى: وتسمى العنبية، وهى تحتوى على الأوعية الدموية التى

---

(١) المصدر السابق.

تغذى العين. وتشمل المشيمة التى تقلل انعكاس الضوء والجسم الهدبى الذى يدعم العدسة ، والقزحية التى تتيح للضوء أن ينفذ من البؤبؤ، وهو الفتحة الواقعة فى وسطها.

والطبقة الداخلية العصبية أو الشبكية : وتحتوى القضبان والمخروطات وهى خلايا حساسة لمختلف أنواع الأشعة الضوئية .

وتتصل بالعصب البصرى. وتقع العدسة خلف البؤبؤ والقزحية ويقع وراءها تجويف العين، الذى تملؤه مادة هلامية تسمى الجسم الزجاجى وتنفذ أشعة الضوء الى العين خلال البؤبؤ.

وتضبط العدسة انكسارها بحيث تقع بؤرتها على الشبكية، حيث تبعث منها اندفاعات تنتقل خلال العصب البصرى الى المنطقة من الدماغ التى يجرى فيها إدراك الضوء والشكل واللون. وتفسيره[1].

ويتحدث كتاب الأستاذ محمد عبدالمقصود النادى عن تكيف العين بحسب ما يراد رؤيته من قرب أو بعد فيقول:

«عندما ننظر الى جسم بعيد فإننا نراه بوضوح. وعندما تنقل النظر إلى جسم قريب فإننا أيضا نراه بوضوح «يفسر هذا على النحو التالى»

عند النظر الى جسم بعيد تكون العضلات الحلقية مرتخية ويكون للعدسة أقل تحدب ممكن فتتكون صورة الجسم البعيد على الشبكية ومن هنا يرى هذا الجسم بوضوح وعندما يأخذ الجسم فى الاقتراب. تعمل العضلات الحلقية على زيادة تحدب العدسة وبالتالى زيادة قوتها ينتج عن ذلك أن تقوم العدسة مع القرنية بتكوين صورة الجسم باستمرار على شكبية العين وطالما أن الصورة تتكون على الشبكية فإن الجسم يرى بوضوح[2].

ويزيد أمر البصر وضوحا كتاب الطب محراب الإيمان فيقول:

---

(١) الموسوعة الطبية جـ٥ ص٨٣٩.

(٢) الفزيقا للصف الثانى الثانوى ص ٤٤ للأستاذ / محمد عبدالمقصود النادى.

العين عضو جهاز الإبصار فى الإنسان فإنها محاطة من الأخطار كما هو الحال فى الأذن، ولوقايتها هناك الحاجب والبروز العظمى للجبهة من الأعلى وارتفاع الوجنه وأعلى الأنف. وهذا بالإضافة إلى وجودها فى تجويف عظم الجمجمة مستقرة على وسائد شحمية لراحتها وهى مغطاة بجفنين يفتحان ويغلقان بمنتهى السرعة، وإذا اتصل الجفنان ببعضهما تداخلت الأهداب فتستر الأعين كأحسن مايكون، وهناك غشاء رقيق شفاف وغدد دمعية تستطيع التقاط الأجسام الغريبة كذرات الغبار وبعض الجراثيم وتطهر العين منها.

(وللعين هذه مقدار محدد للرؤية فهى لا تستطيع أن ترى كل شىء فى هذا الوجود وكثيرًا ما يمارس عليها بعض ألوان الخداع البصرى وسبب ذلك أن مجال الرؤية فى العين محدود بكل مخلوق بما يهمه ويعنيه، قال تعالى: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾**﴾[1].

فالماشية والقطط والكلاب لاترى الألوان مطلقا إلا الأبيض والأسود والظلال الرمادية بينما نرى البوم والخفاش لايناسبه إلا النور الأبيض الضعيف لأنهما ينشطان ليلا. فسبحان الذى سهل لخلقه طرق عيشهم وركب فيهم ما هو من طبعهم وما هم بحاجة اليه.

ولقد ذكر القرآن الكريم بعض أعضاء الإنسان فى مقام المنة والتفضل والإرشاد إلى مافى هذه الأعضاء من آيات ناطقة بكمال الله عز وجل وجلاله وعظمته قال تعالى:

﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾**﴾[2].

ويشير صاحب الإعجاز الطبى إلى مزيد من إبداع القدرة الإلهية فيقول: « فى عين الإنسان الواحد قرابة المائة والثلاثين مليون من الخلايا الضوئية الحساسة وفى كل شبكية عين عشر طبقات من العقد والخلايا العصبية الحساسة للضوء متصلة بعضها بالبعض)[3].

---

(١) الحاقة: ٣٨ـ ٣٩.

(٢) البلد: ٨ـ ٩.

(٣) الإعجاز الطبى د/ سيد الجميلى ص ٦٦

٦ - نعمة خلق الأنف

يقول تعالى: ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

فى هذه الآية إجمال لنعم الله عز وجل فى خلق الإنسان. يتسع لكل نعمة ظاهرة. وكل نعمة خفية فى خلق الإنسان.

ولايزال العلم يكتشف فى كل يوم جديدا فى خلق الإنسان يقف العلماء أمام إبداع الله فيه مبهورين.

والأنف هى جزء من الإنسان وهو يعمل عملين فهو من ناحية مدخل الهواء لجسم الإنسان، وحاجة الإنسان للهواء سبق الحديث عنها فى موضوع نعمة الجهاز التنفسى.

وهناك ركزت الحديث عما عدا الأنف من أجزاء الجهاز التنفسى.

والآن أفصل القول فى نعمة خلق الأنف من ناحية كونها جزءا من الجهاز التنفسى من جهة.

وكونها أداة الشم فى الأنسان. فهى من هنا إحدى الحواس الخمس أما من حيث كونها أداة الشم فيتضح ذلك غاية الوضوح، إذا علمنا أنا بدون الأنف لاسبيل لنا إلى شم الروائح الطيبة أو الخبيثة، أو غير ذلك فلا نستطيع بذلك التمميز بين المشمومات.

وحاجتنا إلى التمييز بين المشمومات ماسة ملحة. فبذلك نستطيع التمييز بين صالح الطعام والشراب وفاسده.

كما أن بنعمة الشم نستطيع الاستمتاع بالروائح الطيبة والابتعاد عن مصادر الروائح الخبيثة. وضرر الاقتراب منها واضح معلوم.

وأما من حيث كونها مدخل الهواء للجهاز التنفسى فهى نعمة جليلة.

يقول البروفيسور جون لينهان، أستاذ الفيزياء الأكلينيكة بجامعة جلاسجو:

«ان الصعوبات التى تصادفنا فى تكوين أنف صناعى تذكرنا دائما بأن الأنف الطبيعى من وجهة النظر الهندسية أو التكنولوجية هو النظام الأمثل فى تكييف الهواء وبدرجة رائعة جدا»[1].

ولايفوتنا أن نذكر أن انتقال الهواء الخارجى إلى الرئة الحساسة.

لو دخل على علاته لكاد يهلكنا، فالإنسان الذى يعيش قرب القطب قد يستنشق هواء تصل درجة حرارته إلى ٤٠ْم تحت الصفر. والذى يعيش فى المناطق الحارة يستنشق هواء قد تصل درجة حرارته إلى ٤٥ْم فوق الصفر ولابد من تسخين الهواء البارد، وتبريد الهواء الساخن ليلائم درجة حرارة الجسم ولقد ذكر انه اثناء الحرب العالمية الثانية فقد أحد الطيارين غطاء طيارته وظل يطير مدة ساعتين فى درجة ٣٠ْم تحت الصفر، وتعرض لتيار بارد سرعته ٤٠٠كيلو متر فى الساعة وأدى ذلك الى تهتك أنسجة وجهه ولكنه ظل يستنشق الهواء بدرجة حرارته المنخفضة ولم تدمر انسجة رئتية الحساسة لان أنفه كان يكيف درجة الحرارة من ٣٠ْم تحت الصفر إلى ٣٧ْم فوق الصفر.

وعندما هبط لم يحس إلا بألم طفيف فى حلقه[2].

فإن دل هذا علي شيء فإنما يدل على أن الخالق عندما اختار هذا المخلوق ليعيش فى الأرض قد زوده بطاقات وإمكانات عظيمة تساعده على ذلك.

هذا وإذا كان الهواء الذى نستنشقه رطبا مشبعا ببخار الماء أو جافا فإن الأنسجة الرقيقة المبطنة للأنف تعمل على تكيف هذا الهواء الذى نستنشقه.

كما تنقى الهواء مما يحمله من كثير من الأدران والميكروبات والغبار.

وإذا علمنا أننا نستهلك من الهواء للتنفس كميات هائلة. إذ أننا نتنفس فى اليوم الواحد بمعدل ٣٢ ألف مرة، ويدخل رئتينا من الهواء مامقداره ٤٤ ألف متر مكعب فى العام.

---

(١) عالم الفكر. مجلد ٩ عدد ٣ ص ٦٢٠.

(٢) عالم الفكر، مجلد ٩ عدد ٣ ص ١١.

وهذه تحتوى من الغبار والميكرونات مابين نصف رطل ورطل كامل[1] وخاصة فى المدن التى يثار غبارها.

ومعنى ذلك أن الإنسان الذى يعيش من ٧٠ إلى ٨٠ سنة يستنشق حوالى ٢٠ كيلوجراما من هذه الأدران.

ولكن ذلك لايحدث بطبيعة الحال. لأن الإنسان مزود بكل ما هو بديع ومتقن من المرشحات والمرطبات والمكيفات ومداخل للهواء ذات تجاويف.

فعندما يدخل الهواء فى الرئتين يدخل مصفى من الأدران والشوائب فهناك على مدخل فتحتى الأنف شعيرات تصفى الهواء من بعض ماعلق به.

وكلما تعمق الهواء اصطدام بحواجز وثنيات وتجاويف منتظمة ومتآلفة بكفاءة رائعة بحيث يؤدى ذلك الى اندفاع الهواء فى تيارات ملتوية متعرجة[2] فينتج عن ذلك كسر حدتها وفقدها لبعض سرعتها، فيعطيها ذلك فرصة أكبر لملامسة الأغشية المبطنة فيسخن الهواء إن كان باردا وتلطفه إن كان ساخنا وترطبه إن كان جافا، وتجففه إن كان رطبا وتصطاد بعض مايعلق به من ميكروب وغبار.

ثم يمر الهواء الى الحلق والقصبة الهوائية ثم إلى الرئتين وقد سبق الحديث عن عمل الرئتين.

إن من يتفكر فى هذا الإبداع الإلهى فى خلق الأنف يدرك عظمة التوجيه القرآنى للتفكير فى النفس الإنسانية والكشف وراء هذه الأسرار الدقيقة فى تكوين كل جزء منها كما هو الحال فى خلق الأنف.

وفى كل جزء وخلية فى الجسم البشرى إبداع عجيب، يوجب علينا أن نشكر الله عز وجل عليه.

ولقد عنى الإسلام بالأنف عناية كبيرة، فلقد سن لنا صلى الله عليه وسلم الاستنشاق ثلاثا فى كل وضوء. حفاظا على نظافة الأنف.

---

(١) الطب محراب الإيمان جـ٢ص ٥٩٨.

(٢) عالم الفكر. مجلد ٩ عدد ٣ ص ٦١٩.

قال ﷺ: «إذا توضأ أحدكم فليجعل فى أنفه ماء ثم لينتثر»[١].

ومن هديه ﷺ حب الطيب من الروائح قال ﷺ: «حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[٢].

وقد أشار الإسلام إلى عظم نعمة الأنف بأن جعل ديتها تعادل دية النفس فمن اعتدى على أنف إنسان«فأزال ما لان من الأنف وخلا من العظم. فعليه دية نفس كاملة. لخبر عمرو بن حزم بذلك ولأن فيه جمالا ومنفعة، وهو مشتمل على الطرفين المسميين بالمنخرين وعلى الحاجز بينهما»[٣].

«ولاتدخل دية الشم فى دية الأنف، بل يستقل ذهاب الشم بدية كاملة.

قال صاحب الإقناع: وتكمل دية النفس فى ذهاب الشم من المنخرين كما جاء فى خبر عمرو بن حزم، ولأنه من الحواس النافعة فكملت فيه الدية كالسمع[٤].

---

(١) متفق عليه. نيل الأوطارجـ١ص ١٧٧ .

(٢) رواه الجامع الصغير جـ١ ص ٢٥٠ عن أنس . .

(٣) الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع جـ٢ص١٦٤ .

(٤) المصدر السابق جـ٢ص١٦٧

٩ـ نعمة خلق اللسان

قال تعالى مشيرا إلى تلك النعمة:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾[١].

وقال ﷺ مشيرا لها أيضا فيما رواه فى الحديث القدسى:

يا بن آدم قد أنعمت عليك نعما عظاما لاتحصى عددها، ولاتطيق شكرها، وان مما أنعمت عليك أن جعلت لك عينين تنظر بهما، وجعلت لهما غطاء فانظر بعينك إلى ما أحللت لك، وإن رأيت ماحرمت عليك فأطبق عليها غطاءهما، وجعلت لك لسانا، وجعلت له غلافا، فانطق بما أمرتك وأحللت لك، فإن عرض عليك ما حرمت عليك فأغلق عليك لسانك، وجعلت لك فرجا وجعلت لك سترا، فأصب بفرجك ما أحللت لك، فان عرض عليك ما حرمت عليك فأرخ عليك سترك، ابن آدم انك لاتحتمل سخطى ولا تطيق انتقامى[٢].

ومحل الشاهد فى هذا الحديث القدسى.

أمتنان الله عز وجل على ابن آدم. بنعمة خلق اللسان. وتعليمه الشكر العملى لهذه النعمة ، وحثه له على هذا الشكر العملى.

وتصديره تعالى لهذا الحديث القدسى بما يفيد أن اللسان من النعم العظام وأن الإنسان مهما شكر المولى عز وجل فإنه لايستطع ايفاء نعم الله حقها، ويختم تعالى هذا الحديث القدسى. بالتحذير من التقصير فى شكر النعم.

وهذه النعمة نعمة خلق اللسان، ان شكرها الإنسان أدخلته الجنان، وإن قصر فى شكرها واستعملها فى غير ماخلقت له وعصى بها ربه أدخلته النار.

قال ﷺ وقد سئل : «وانا لمؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا؟ فقال: ويحك.

---

(١) البلد: ٨ ـ ٩. .

(٢) رواه الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أبى الربيع الدمشقى عن مكحول- تفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥١٢ .

وهل يكب الناس فى النار على وجوهم أو قال على مناخرهم إلا حصائد السنتهم»[1].

وقال ﷺ«وان العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لايلقى لها بالاً يهوى بها فى النار سبعين خريفا»[2].

هذا ويكشف العلم الحديث عن الكثير من إبداع القدرة الإلهية فى خلق اللسان« مما يجعلنا ندرك عظمة هذه النعمة أكثر.

يقول صاحب الطب محراب الإيمان.

«يستطيع اللسان أن يقوم بالمساعدة فى المضغ بتقليب الطعام فى الفم ويساعد فى البلع وذوق الطعام بالإضافة الى النطق.

وعلى سطحه يوجد تسعة آلاف نتوء ذوقى لمعرفة طعم الحلو والحامض والمر والمالح»[3].

«فاللسان شاء له المولى عز وجل أن يكو آلة الذوق وآلة المضغ والبلع والهضم وآلة للحس واللمس وآلة للتكلم» .

فمن أجل أن يكون آلة للذوق شاء الله أن يغرس سطحه وجانبيه بحليمات تمتص الطعوم وتؤديها إلى الأعصاب المنتشرة فى باطنها.

وشاء الله أن يكون صنفان من هذه الحليمات للذوق خاصة، دون اللمس كى لايختلط فيتعطل أحدهما عند فقد الآخر. فقد يفقد الحس العام عند الإنسان وتدوم له حاسة الذوق. أو يفقد الذوق ويدوم له الحس العام.

ومن اجل أن الحليمات لا تمتص الطعوم إلا إذا كانت ذائبة محلولة وإلا إذا كان اللسان رطبا شاء الله تعالى أن يزود اللسان بغشاء مخاطى فية أجربه وغدد

---

(١) ا لترغيب والترهيب جـ٤ص٣٠٧ والمسند جـ٥ ص ٢٣١ .

(٢) رواه الجامع الصغير وقال رواه البخارى عن أبى هريرة والحديث صحيح حـ٨ ص ١٢٥ كتاب الرقاق باب حفظ اللسان.

(٣) جـ٢ ص ٣٠٤ بتصرف.

تفرز المخاط. وأن يزود من تحته بغدة تفرز اللعاب فوق ماتفرزه الغدد اللعابية الأخرى، ولولا ذلك ما استطاع اللسان أن يتذوق الطعوم وماكان يحدث له سوى الإحساس بمس الطعام.

كما تعرف ذلك من نفسك إذا كان لسانك جافا من الزكام مثلا فانه لايتذوق الطعوم ولو كانت مذابة ومن أجل أن الطعوم مختلفة المذاق ولها فى تلاقيها تآلف وتنافر على نسب معينة كتآلف الألوان والأصوات وتنافرها.

فقد شاء المولى عز وجل أن يخلق الحليمات الذواقة مختلفة بعضها عن بعض شيئا قليلا فى تذوقها وقى قدرتها على الاحتفاظ بطعم بعض المواد حتى بعد زوالها وعلى هذا يقوم الطهاة المهرة فى خلط الأطعمة ومزجها.

ومن أجل أن اللسان مفتقر بحكم مركزه ووظائفه إلى أن يكون حساسا قوى الإحساس ليلوك اللقمة ويدور بها من حنك إلى حنك ومن سن إلى ضرس ويستقصى أصغر أجزائها فى مطاوى الفم وثنايا الأضراس ويتقى بإحساسه المرهف كل مايدخل الفم من المؤذيات من كاو ومحرق ولاذع وشائك وجارح.

فشاء المولى عز وجل أن يكون له حليمات للحس وللمس خاصة كما سبق القول وأن تكون هذه الحليمات (الخيطية) مرهفة جداً فى رأس اللسان وجانبيه لايساويها فى دقة الإحساس إلا طرف البنصر.

ومن أجل أن اللسان آلة للمضغ والبلع فقد شاء عز وجل أن تكون هذه العضلة قوية نشيطة لعوبا تلعابة لعابية مخاطية ولولا ذلك ماتم مضغ ولا بلع فاللسان هو الذى يلاعب اللقمة ويلوكها ويعجنها عجنا باللعاب حتى إذا اكتمل مضغها وأصبحت سهلة للبلع لفها بمخاطه وضغطها بين سطحه وسقف الحلق ودفعها بقوته وزلقها حتى تعبر قوس «اللهاة» فيكون البلع بعد ذلك بغير إرادة الأكل.

ومن أجل أن اللسان آلة للهضم فقد شاء الله سبحانه وتعالى: أن يكون هضم الأطعمه مختلفا مكانه باختلاف عناصرها: فهناك مايهضم فى المعدة ومنها مايهضم

فى الأمعاء ولكن شيئا واحدا منها، وهو النشاء لا يهضم فى المعدة بل إن عصارات المعدة تعيق هضمه وتبطل تحويله ولذلك شاء الله تعالى أن يكون الوسط الوحيد الصالح لتحويل النشائيات إلى سكر وهضمها هو اللعاب ولولا هذا اللسان التلعاب الذى يمزج العاب باللقمة ويعجنها لما تم هضم النشاء وهو من أهم عناصر الغذاء.

ومن أجل أن اللسان آلة للتكلم. ومن أجل أن الأصوات تخرج من الحنجرة كما تعلم ومن أجل أن الحنجرة لاتستطيع توليد الحروف كلها بل يقتصر عملها على توليد الحروف الصوتية المعروفة بحروف العلة دون الحروف الآخرى المعروفة بحروف الصحة التى لابد لتولديها من تقطيع مجرى الهواء الذى يحمل الصوت من الحنجرة فقد شاء الله تعالى: أن يخلق هذا اللسان مع الشفتين ليكون وسيلة لتقطيع الهواء وإخراج حروف الصحة ولولا ذلك ما كان لنا كلام فصيح بل كنا نكون كالحيوانات نطلق أصواتا نمدها مدا فلا نحسن إلا عواء ونعيقا أو صفيراً أو صهيلاً ونهيقا(1).

وتحدثنا الموسوعة الطبية. عن طرف آخر من إبداع المولى عز وجل فى خلق اللسان فتقول:

«ان اللسان وهو عضو الزوق والأنف وهو عضو الشم يتلقيان إحساساتهما كيميائيا بالاستجابة للمواد الكيميائية المذابة ويحدث تنيههما غالبًا فى وقت واحد ومؤازرة أحدهما الآخر. وثمة أربعة مذاقات أساسية وهى المر والحامض والملح والحلو.

واحساسات الذوق الأخرى تتألف من اقترانات بين هذه الإحساسات الأساسية ومن ارتباطات بالشم. وأعضاء التلقى لإحساسات الذوق هى براعم تتكون من حزم من الخلايا الضئيلة لها فروع شعرية الشكل منضودة فى مجموعات تسمى الحلمات، وتوجد بصفة رئيسية على اللسان ولكنها توجد أيضا فى البلعوم

(1) من كتاب قصة الايمان ص ٤٠٣ .

والقلصحة وهى الجزء الشبيه بالغطاء الذى يغطى مدخل الحنجرة والحنك (أى سقف الفم) ولكل من أنواع المذاقات الأساسية براعمه الخاصة التى تتخذ لها مواضع معينة من سطح اللسان.

وجزئيات المواد المذابة فى سائل أو فى اللعاب تنفذ إلى المسام المذاقية فى الحلمات وتنبه، تلك الشعرات المذاقية بالبراعم التى تنقل المؤثرات المذاقية خلال العصبين الوجهى واللسانى والبلعومى إلى منطقة الدفاع التى يحدث فيها ادراك المذاق.

ومنتهيات الأعصاب بالأنف هى التى تتلقى تأثيرات الروائح وحينما يلتقى الهواء البارد المستنشق بالهواء الدافئ فى داخل الأنف تستثار بتلاقيهما تيارات تنقل المواد ذوات الرائحة فى شكل غازى إلى أقصى الأنف حيث تمتزج جزئياتها بالمخاط السائل وتنبه خلايا تلقى الشم التى ترسل مؤثرات خلال العصبين الشميين إلى الدماغ[1].

(١) الموسوعة الطبية ص٥ جـ٥.

١٠ـ نعمة خلق اليد والقدم

إن إبداع المولى عز وجل فى خلق اليدين والقدمين يفوق وصف الواصف المتخصص واليد مظهر القدرة فى الإنسان، وبها ينجز جل أعماله.

وقد عنى الاسلام باليدين فأمر بغسلهما فى الوضوء

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾[١].

وتشير مجلة العلوم الانجليزية إلى إبداع المولى عز وجل فى خلق اليدين. فتقول «إن يد الإنسان هى مقدمة العجائب الطبيعية الفذة وأنه من الصعب جدا بل من المستحيل أن يبتكر الإنسان آلة تضارع اليد البشرية من حيث البساطة والقدرة وسرعة التكيف.

فحينما تريد قراءة كتاب تتناوله بيدك، ثم تثبته فى الوضع الملائم للقراءة وهذه اليد هى التى تصحح وضعه تلقائيا.

وحينما تقلب إحدى صفحاته تضع أصابعك تحت الورقة وتضغط عليها بالدرجة التى تقلبها بها.

ثم يزول الضغط بقلب الورقة.

وتمسك اليد القلم وتكتب به. وتستعمل كافة الآلات التى تلزم الإنسان وتفتح النوافذ وتغلقها.

وهى تشتمل على سبع وعشرون عظمة وتسع عشرة مجموعة من العضلات لكل منها[٢].

---

(١) المائدة: ٦.

(٢) نقلا عن. فى ظلال القرآن جـ١ص٤٩١.

«ولذلك لم يكن عبثا قولهم: إن اليد هى صانعة المدنية» وليس العقل وحده ومعلوم أن عملية القبض على القلم وحدها تحتاج إلى جهاز معقد من العضلات وتنبيهات عصبية سريعة موجهة إلى هذه العضلات تأمرها بالقبض أو البسط حسب الحاجة(١).

«كما أن إبهام الإنسان يستطيع وحده مقابلة باقى أصابع اليد.

وهذه ميزة لاتوجد فى غيره من الحيوانات إذ أن الذى يساعد الإنسان فى استعمال يده كل هذه الاستعمالات الدقيقة، بالإضافة إلى كثرة عظام يده وعضلاتها وكثرة مفاصلها وجود الابهام فى وضع مقابل لأصابع تلك اليد، مما يجعل فى استطاعته التحكم فى باقى أصابع اليد(٢).

«وهذه الملاحظة موجودة فى إبهام القدم ايضا، إذ عليه يتوقف ارتكاز الإنسان واتزانه.

والإبهام يكون فى الحيوانات منفرجا عن باقى الأصابع بينما نجده فى الإنسان مضموما إلى باقى أصابع القدم فيساعد الإنسان فى حركته وتوازنه أثناء سيره على الأرض(٣).

ومع كل ماقدمت مما ذكره العلم الحديث فى الإشارة إلى إبداع المولى عز وجل فى خلق اليدين والقدمين، فإن دقائق الإبداع الإلهى فى خلقها تفوق ماذكرت ولاسبيل للإحاطة بها.

وبحسبى هذا للإشارة إلى نعمة خلق اليدين والقدمين على الصورة التى خلقنا عليها.

مما يستوجب مزيداً من الشكر للمولى عز وجل.

---

(١) النشأة الأولى، ص٧. د. أحمد كنعان، محمد كمال شرشره. الوكالة العامة للنشر، دمشق..

(٢) كوكبنا النابض بالحياة ص ١٧٤.

(٣) تاريخ الحياة. محمد كامل ص١٠١.

١١ـ نعمة الصحة العامة

الصحة العامة من أجل النعم التى أنعم الله بها على عباده.

ولكن الكثير من الناس يغفل عن الإحساس بها، إلا إذا افتقد شيئا منها، ولذا قيل فى المثل: الصحة تاج على رءوس الأصحاء لايراه إلا المرضى.

ويصرح ﷺ بأن الصحة نعمة جليلة، غير أن الكثير من الناس لا يدرك عظم هذه النعمة، وبالتالى لايشكر الله عز وجل عليها باستعمالها فيما خلقت له.

قال ﷺ: «نعمتان مغبون فيها كثير من الناس الصحة والفراغ»[١].

ويشير القرآن الى نعمة الصحة العامة ووجوب شكرها بقوله تعالى:

﴿ ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾[٢].

قال ابن كثير فى تفسيره: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك ماذا قابلتم به نعمة من شكره وعبادته[٣].

ويصرح ﷺ بأن الصحة مع التقوى خير من الغنى. فيقول وقد خاض الصحابة أمامه فى ذكر الغنى.

«لابأس بالغنى لمن اتقى الله. والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم»[٤].

ويصرح ﷺ بأن أول ما ياسأل عنه العبد يوم القيامة من النعم الصحة.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه. فى أول كتاب الرقاق ض١١ص١٩٦ج٨ص١٠٩ طبعة الشعب.

(٢) التكا ثر: ٨.

(٣) تفسير ابن كثير جـ٤ص٥٤٥..

(٤) رواه ابن ما جه، والحاكم فى المستدرك واحمد فى المسند عن يسار بن عبيد وصححه السيوطى فى الجامع الصغير ج٢ ص٣٥٣.

فيقول: «إن أول ما يسأل عنه العبد - يعنى يوم القيامة- من النعيم. «أن يقال له: ألم نصح لك بدنك ونروك من الماء البارد[1].

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ قال صحة الأبدان والأسماع والأبصار. يسأل الله العباد فيما استعملوها وهو أعلم بذلك منهم[2].

وروى ابن أبى الدنيا بإسناد فيه ضعف عن أنس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى بالنعم يوم القيامة وبالحسنات والسيئات فيقول الله لنعمة من نعمه خذى حقك من حسناته. فما تترك له حسنة إلا ذهبت بها.

وبإسناده عن وهب بن منبه قال: عبدالله عابد خمسين عاما فأوحى الله عز وجل أنى قد غفرت لك.

قال: يارب وما تغفرلى؟ ولم أذنب، فأذن الله عز وجل لعرق فى عنقه فضرب عليه، فلم ينم ولم يصل، ثم سكن وقام، فأتاه ملك فشكا اليه مالقى من ضربات العرق.

فقال الملك: إن ربك عز وجل يقول: عبادتك خمسين سنة تعدل سكون ذلك العرق[3].

ومارواه الطبرانى صحيح من حيث المعنى. وإن روى بإسناد ضعيف.

ويصرح ﷺ بأن صحة الأبدان مع الأمن ووجود القوت تساوى حيازة الدنيا جميعها.

ويقدم الصحة على حيازة القوت. فيقول:

«من أصبح منكم آمنا فى سربة. معافى فى جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»[4].

---

(١) رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه.

(٢) ابن كثير جـ٤ ص٥٤٧.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن رجب تحقيق الدكتور الا حمدى أبو النور ص ١٢١- ١٢٢.

(٤) رواه البخارى فى الأدب والترمذى، وابن ماجه الجامع الصغير جـ٢ص٢٨١ وحسنه السيوطى

١٢ - نعمة العقل

العقل من أجل نعم الله على عباده، وبه امتاز الإنسان عن سائر الحيوانات، وهو مناط التكليف، فلا تكليف على غير عاقل.

قال صلى الله عليه وصلم: رفع القلم عن ثلاث، عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يكبر وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق[١].

وقد ذكرت مادة عقل فى القرآن الكريم تسعا وأربعين مرة.

تارة بلفظ عقلوه، وتارة بلفظ تعقلون وتارة بلفظ نعقل وتارة بلفظ يعقلها، وأخرى بلفظ يعقلون.

وقد أتت بلفظ تعقلون، أربعا وعشرن مرة، وبلفظ يعقلون. اثنين وعشرين مرة.

وجاءت فى الصيغتين مقرونة تارة بالاستفهام الإنكارى، لعدم استعمال العقل، فقال تعالى ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

وتارة أخرى مقرونة بلعل: رجاء استعمال العقل، وحثا على استعماله فيقول تعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

وأما يعقلون «فتارة تأتى منفية «لايعقلون» ينعى فيها المولى عز وجل على من لايستخدم عقله.

وتأتى تارة أخرى مرتبطة بآيات الله حثا على التفكير فيها. مثل ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾[٣].

---

(١) رواه أحمد وأبو د اود، والنسائى وابن ماجه والحاكم وصححه السيوطى الجامع الصغير ج٢ ص٣٨.

(٢) النحل: ٦٧. .

(٣) العنكبوت: ٣٥.

هذا حديث الإسلام من قرآن وسنة عن العقل ومكانته.

وللعلم حديث آخر عن العقل. إنه يبصرنا الإبداع الإلهى فى خلق العقل ووظائفه تقول الموسوعة الطبية:

«قشرة المخ، أو المادة السنجابية تتخذ شكل الأطواء أو التلافيف وتتيح للمخ رقعة كبيرة من المساحة السطحية، وتفصل بين هذه التلافيف أخاديد أو شقوق.

وتغلف الدماغ والحبل الشوكى أغشية ثلاثة هى. الأم الجافة، والعنكبوتية. والأم الحنون، وبين العنكبوتية والأم الحنون فضاء يحتوى السائل المخى الشوكى وهو سائل رائق ضئيل اللزوجية بمثابة وسادة مائية واقية.

وتتصل الأعصاب الجمجمية بالمدماغ، وتنفذ من خلال الجمجمة، وهى اثنا عشر زوجا متماثلة الترتيب على الجانبين، ومعظمها يؤدى عدة وظائف وهى تسمى باعتبار وظائفها.

١- عصب الشم.

٢- العصب البصرى

٣- العصب محرك العين.

٤- العصب البكرى.

٥- العصب التوأمى الثلاثى.

٦- العصب البعد.

٧- العصب الوجهى.

٨- العصب السمعى.

٩- العصب اللسانى البلعومى.

١٠- العصب الحائر.

١١- العصب الإضافى.

١٢- العصب تحت اللسان.

والجهاز العصبى المستقل الأداء:

يتحكم فى الأعضاء الداخلية للجسم، وينقل من هذه الأعضاء اندفاعات من شأنها أن تجعل الجسم يؤدى وظائفه بطريقة صحيحة، وحتى ولو كانت هذه الاندفاعات لاتصل الى مستوى الوعى.

وهو ينقل أيضا أنواعا من الإحساسات مثل الجوع والغثيان والإحساسات الجنسية والألم .

وتقع مراكزه فى منطقة تحت المهاد والنخاع المستطيل.

بالاضافة الى العقد الشوكية التى تؤدى دور الطرق المتقاطعة.

وذلك الجهاز قسمان هما: جنيب السمبثاوى، السمبثاوى، وكلاهما يؤثر فى جميع الأعضاء تقريبا.

ولكن تأثيريهما متعارضان: فمثلا العصب الحائر «وهو جنيب السمبثاوى» يؤدى إلى إبطاء ضربات القلب. بينما تؤدى الضفيرة القلبية السمبثاوية إلى إسراعها.

والجهاز العصبى الجسمانى:

يتضمن اثنى عشر زوجا من الأعصاب الجمجمية. وواحدا وثلاثين زوجا من الأعصاب الشوكية.

ولكل من هذه الأعصاب عدة فروع. وتجرى هذه الشبكة من الأعصاب فى جميع أنحاء الجسم، وهى تؤدى عملها على العضلات والهيكل العظمى والجلد، وتختص بصفة رئيسية بالحركات الإرادية.

وهى تتلقى المؤثرات الخارجية وتنقلها.

فاذا ما وخز إصبع بدبوس أحدث ذلك فعلا انعكاسيا معقدا.

فالنيورونات الحساسة التى يحدث تنبيهها تنقل المؤثرات خلال العصب

الشوكى إلى الحبل الشوكى. حيث ترحل فى اتجاه علوى الى الدماغ، مجتازة المخيخ، فالدماغ الأوسط إلى قشرة المخ، حيث تتصل بنيورونات محركة ورابطة تنبه استجابات واسعة النطاق فى جميع أنحاء الجسم، تشمل ادراك الألم، وتنبه عضلات الذراع واليد لجذب الأصبع بعيدا عن الدبوس، وتنبه كذلك العضلات التى تحفظ التوازن.

ورجفة الركبه تمثل نوعا من أبسط أنواع المنعكسات. فعندما نضرب الركبة بطريقة معينة تنبعث من الخلايا العصبية التى تنبهها الضربة اندفاعات تنتقل مباشرة الى النخاع الشوكى، ثم ترسل منه بشكل قوسى منفرد إلى تلك الخلايا العصبية التى تعمل على انقباض العضلات الباسطة للساق، وبذلك تثبت الساق.

وتحتوى قشرة كل من نصفى الكرة المخية على مسلك حسى. وهو منطقة يجرى فيها تلقى المؤثرات من الجسم فى صورة معلومات وعلى مسلك حركى، ترسل منه المؤثرات الى الجسم فى صورة تعليمات.

ونظراً لأن أعصاب الإحساس، التى تسمى أيضا الأعصاب الصاعدة أو الموردة وأعصاب الحركة. التى تسمى الأعصاب النازلة أو المصدرة تتقاطع فى الحبل الشوكى. فإن تأثير الدماغ فى الجسم يكون متعاكسا.

مثال ذلك:

أن منطقة الحركة فى نصف الكرة الأيسر من القشرة المخية تتحكم فى عضلات الجانب الأيمن من الجسم، والعكس بالعكس.

والمنبه الذى يحدث فى الإبهام اليسرى يقع إدراكه فى منطقة الإحساس بنصف الكرة المخية الأيمن. و العكس بالعكس.

هذا ويحتوى المخ على نصفى كرة. ينقسم كل منها إلى خمسة فصوص.

هى الجبهى والجدارى والصدغى والمؤخرى و الجزيرة، التى لاترى على السطح.

والطبقة الخارجية للمخ بأكمله هى المادة السنجابية التى تسمى قشرة المخ.

والمناطق المختصة بالإحساسات الحسية والحركية - للبصر والسمع واللمس والضغط ودرجة الحرارة. تتخذ مواضعها مزدوجة فى قشرة كل من نصفى الكرة والمناطق الباقية وهى المناطق الارتباطية، تحتوى على مراكز للكلام ولفهم الكلام[١].

ويزيد عمل المخ وابداع المولى عز وجل فى خلقه وضوحا الدكتور السيد الجميلى فى كتابه الإعجاز الطبى فيقول:

ينقسم الجهاز العصبى: إلى جهاز عصبى مركزى: يشكل المخ والمخيخ.

وجهاز عصبى ذاتى: وهو يخضع لتأثير المخ.

إلا أنه به مراكز خاصة به، والقائم عليها أساسا الجهاز العصبى المركزى.

وينقسم المخ إلى مساحات ومناطق مختلفة، لكل منها فوائده فى الإشراف على سلوك وأعمال الجسم المختلفة.

فهناك مساحة تتحكم فى التفكير، وأخرى فى الزكاء، وثالثه فى الحركة ورابعة للإحساس وخامسة للإبصار.

وينقسم المخ إلى قسمين أو نصفين متماثلين، النصف الأيمن يمثل الشق الأيسر من الجسم، والنصف الأيسر يمثل الشق الأيمن من الجسم.

ويتمثل جسم الإنسان مقلوبا فى المخ.

فالمساحات العليا السطحية من القشرة المخية تتحكم فى الوجه والجبهة والعينين من ذلك تلخص إلى أن صورة الإنسان مقلوبة فى عقله.

وكل سم مكعب من المخ يحتوى على آلاف مؤلفة من المراكز والخلايا والقنوات العصبية المتوازيه حيناً والمتقاطعة حيناً آخر، ولكل منها مجرى وسلوك معين.

---

(١) الموسوعة الطبية: جـ٥ ص ٦ بالملحق بآخر الجزء. ملحق اللوحات.

والجهاز العصبى الذاتى

يتكون من جهازين: السمبتاوى والباراسمبتاوى «ولكل منهما عمله المضاد للآخر المعاكس له».

عندما يستريح السمبتاوى يعمل الباراسمبتاوى. عندما ينشط الأول يستريح الثانى، وعندما يستريح الثانى يعمل الأول. فالعمل بينهما فى ورديات وبالتناوب.

السمبتاوى: يقوم بالعمل أثناء النهار، وهو مسئول عن النشاط والحركة وهو يهدم الطاقة، ويهدر المختزن منها، ويرفع ضغط الدم ويزيد من التوتر والخفقان والقلق.

والباراسمبتاوى: يقوم بالعمل أثناء الليل، وهو مسئول عن الهدوء والسكينة يختزن الطاقة ويدخرها ويهدئ ضغط الدم كما يقلل من التوتر ويبطئ من خفقان القلب.

يتبادل الجهازان العمل فى ورديات، حين ينشط الأول يهدأ الثانى.

وفى لحظات التسليم والتسلم ينتقل الإنسان من حال إلى حال دون أن يشعر بأى تغيير فسيولوجى بائن.

ويظهر فى استواء بالغ وادارة محلية حكيمة مدبرة.

لا يجتمع العصبان معا، ولايجمعها عمل واحد إلا فى حالة الجماع وافراز الغدد اللعابية، وعند الجماع يساعد كل منهما الاخر ويشد أزره.

السمبتاوى يقوم بتوتر العضلات وتقلصها حتى ينتج عن ذلك قوة دافعة دافقة يتدفق معها السائل المنوى.

أما الباراسمبتاوى فإنه منشط لإفراز الغدد التناسلية الجنسية ومن ثم يساعد كل منهما الآخر[١].

---

(١) الإعجاز الطبى ص٦٠ - ٦١

«هذا والعقل يكمن فيه الذكاء، ومنه تكون القدرة على الاستقراء والمقدرة على الاستنباط والتمييز.

والذكاء يختلف من شخص لآخر.

فقد عرف «لامبروزو» الذكاء بأنه مقدرة الشخص وكفاءته فى أن يعمل مايعجز عنه الآخرون.

ووصفت مدرسة لامبروزو الشخص الذكى بأنه يكون طويلا بائن الطول. أو قصيرا بائن القصر، غزير الشعر أو نذيره، يكتب بيده اليسرى أو كلتا يديه.

مرهف الحس، متوقد الشعور. لديه فضول شديد، وولع لمعرفة مالا يعرفه[1].

ويقول شتيرن: إن الذكاء هو القدرة على التكيف مع المواقف الجديدة، ويعرفه فيرمان بأنه: القدرة على التفكير المجرد.

ويصفه كلفن: بأنه القدرة المعرفية على التعلم.

ويراه برت: أنه القدرة المعرفية الفطرية العامة.

ويفيدنا ثورنديك: أن الزكاء هو المتوسط الحسابى والمحصلة العامة لكل القدرات والطاقات للفرد[2].

ويتحدث الشيخ نديم الجسر عن العقل حديث العالم المسلم الذى بهره إبداع المولى عز وجل فى خلق العقل البشرى فيقول:

هذا العقل الذى حارت كل العقول. ومازات حائرة فى أسراره.

كيف نفهم؟ كيف ندرك؟ كيف نعقل؟ كيف نحفظ؟ كيف نختزن ملايين الملايين من المعارف؟ وأين نختزنها؟ وكيف نستخرجها من مخازنها عند الحاجة وكيف نتذكر وكيف نقارن، وكيف نعلل وكيف نستنتج، وكيف نحكم.

---

(١) عبقرية الصديق. لعباس العقاد.

(٢) الشخصية بين الانحراف والسواء، للدكتور مصطفى فهمى.

وما هى هذه القطعة من اللحم والشلة من الأعصاب التى علمنا بها الخالق الأسماء كلها وجعلنا بها فوق الملائكة.

ما هذا الجهاز العصبى العجيب المدهش الذى نسيطر عليه ويسيطر علينا من حيث ندرى ومن حيث لاندرى فنتحكم بجانب منه فى بعض أعضائنا بإرادتنا ويتحكم هو بجانب آخر من خيوطه فى أعظم أعضائنا خطرا بل فى كل خلية من جسمنا بإرادته الخاصة المطلقة بدون علم منا كأنما فى هذا الجهاز عقلان مستقلان الواعى وغير الواعى الذى هو أحق وأجدر أن يوصف بالوعى، لأن ذلك الواعى قد يخطئ وهذا لايخطئ أبدا ولأن الواعى لايعى أعمال زميله ولايتدخل فيها أبدا ولو رعاها وتدخل فيها لأفسدها أما غير الواعى فيشعر بكل أعمال الواعى.

ويتدخل سرا بتنسيقها وإذا سكن الواعى أو تعطل فكل الذى ينتج عن سكونه أو تعطيله أن عضلاتنا تتوقف عن الحركة ودماغنا يكل عن التفكير الصحيح ويصبح حالنا أشبه بحال النائم وأما اذا تعطل غير الواعى فالقلب يختل والمعدة تختل والكبد يختل والسمع يختل والبصر يختل بل كل شىء فينا يختل ويكون مصيرنا الموت المحتم.

ماهذه المادة المخية المحتوية على أكثر من ١٢ مليون خلية تتصل إحداها بالأخرى بليف عصبى ذى فروع لاتعد ولاتحصى فتعمل بدقة عجيبة وتناسق مدهش كأنها خلية واحدة.

وما هذا السحاء الدماغى الذى كأنه مركز قيادة فى كل بيت من بيوته ضابط يتلقى من الخارج ألوف الرسائل الواردة من طريق الحواس ويخبر بها القيادة العليا؟

ما هو هذا القائد الأعلى الذى يتولى تنسيق تلك الرسائل العديدة فيقر هذه ويؤخر هذه ويطرح تلك فى الأعماق ثم يقارن ويعلل ويصحح ويعدل حتى يستنتج ويكون من الأحاسيس الجديدة والقديمة المخزونه إدراكا عقليا عجيبا، يخرج به هذا الحيوان الأعجم السافك للدماء عن بهيميته حتى يسمو أحيانا الى عتبة ذلك الذى جعله فى الأرض خليفة وكرمه بالقلم علمه[1].

(١) قصة الايمان لنديم الجسر ص ٤٣٩.

١٣ـ نعمة الدين

الدين أجلّ نعمة أنعم الله عز وجل بها علينا.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[١].

نزلت هذه الآية فى الأعراب الذين يمنون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول صلى الله عليك وسلم. فرد الله عليهم بقوله: قل لاتمنوا على إسلامكم فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم. ولله المنة عليكم فيه[٢].

ولقد أعترف الأنصار بأن المنة لله ورسوله عليهم. لما عاتبهم صلى الله عليه وسلم حينما وجدوا فى أنفسهم عندما فرق غنائم حنين.

فقال لهم صلى الله عليه وسلم: «يامعشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بى؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بى؟ كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن».

وروى الحافظ أبو بكر البزار بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: جاءت بنو أسد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالوا : يارسول الله أسلمنا وقاتلتك العرب ولم نقاتلك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فقههم قليل. وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم ونزلت هذه الآية[٣].

ولقد امتن الله عز وجل على المؤمنين بالإسلام ونبى الإسلام بقوله «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم أياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين».

---

(١) الحجرات: ١٧ .

(٢) ابن كثير جـ ٤ صـ ٢١٩ .

(٣) المصدر السابق جـ ٤ صـ ٢١٩ .

يقول الأستاذ سيد قطب: تتحدث هذه الآية عن شخص الرسول ﷺ ورسالته وعظم المنة بها على المؤمنين.

ودورها فى إنشاء هذه الأمة وتعليمها وتربيتها وقيادتها. ونقلها من الضلال المبين الى العلم والحكمة والطهارة.

والمنة العظيمة فى الرسالة التى جاء بها ﷺ تبدو فى ظلها غنائم الأرض كلها وأسلاب الأرض كلها، وأعراض الأرض كلها شيئا تافها زهيدا، لايذكر ولايقدر. شيئا تخجل النفس المؤمنة أن تذكره. بل تستحى أن تفكر فيه. فضلا عن أن تشغل به.

أنها المنة العظمى أن يبعث الله فيهم رسولا، وأن يكون هذا الرسول من أنفسهم.

إن العناية من الله الجليل بإرسال رسول من عنده الى بعض خلقه هى المنة التى لاتنبثق إلا من فيض الكرم الإلهى. المنة الخالصة التى لايقابلها شىء من جانب البشر.

وإلا فمن هم هؤلاء الناس. ومن هم هؤلاء الخلق حتى يذكرهم الله هذا الذكر. ويعنى بهم هذه العناية؟

ويبلغ من حفاوة الله بهم أن يرسل لهم رسولا من عنده يحدثهم بآياته سبحانه وكلماته. لولا أن كرم الله يفيض بلاحساب، ويغمر خلائقه بلا سبب منهم ولا مقابل؟ وتتضاعف المنة بأن يكون هذا الرسول «من أنفسهم».

لم يقل منهم: فان للتعبير القرآن «من أنفسهم ظلالا عميقة الإيحاء والدلالة. إن الصلة بين المؤمنين والرسول هى صلة النفس بالنفس لاصلة الفرد بالجنس فليست المسألة أنه واحد منهم وكفى. إنما هى أعمق من ذلك وأرقى. ثم انهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصلة بالرسول. ويصلون إلى هذا الأفق من الكرامة على الله فهو منة على المؤمنين فالمنة مضاعفة. ممثلة فى ارسال الرسول، وفى وصل أنفسهم بنفس الرسول ونفس الرسول بأنفسهم على هذا النحو.

ثم تتجلى هذه المنة العلوية فى آثارها العملية، فى نفوسهم وحياتهم وتاريخهم الإنسانى.

«يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة».

تتجلى هذه المنة فى أكبر مجاليها، فى تكريم الله لهم بإرسال رسول من عنده يخاطبهم بكلام الله الجليل ﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾.

ولو تأمل الإنسان هذه المنة وحدها لراعته وهزته حتى مايتمالك أن ينصب قامته أمام الله حتى وهو يقف أمامه للشكر والصلاة.

ولو تأمل أن الله الجليل سبحانه يتكرم عليه فيخاطبه بكلماته يخاطبه ليحدثه عن ذاته الجليلة وصفاته وليعرفه بحقيقة الألوهية وخصائصها ثم يخاطبه ليحدثه عن شأنه هو- هو الإنسان- هو العبد الصغير الضئيل وعن حياته وعن خوالجه وعن حركاته وسكناته يخاطبه ليدعوه إلى مايحييه ـ وليرشده الى مايصلح قلبه وحاله، ويهتف به إلى جنة عرضها السموات والأرض.

فهل هو إلا الكرم الفائض الذى يجرى بهذه المنة، وهذا التفضل وهذا العطاء؟

إن الله الجليل غنى عن العالمين وإن الإنسان الضئيل لهو الفقير المحوج ولكن الجليل هو الذى يحفل بهذا الضئيل ويتلمسه بعناية ويتابعه بدعوته والغنى هو الذى يخاطب الفقير ويدعوه ويكرر دعوته فيا للكرم، وياللمنة وياللفضل والعطاء الذى لاكفاء له من الشكر والوفاء.

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾.

يطهرهم ويرفعهم وينقيهم، يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، يطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة و الأسطورة وما تبثه فى الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة مزرية بالإنسان وبمعنى إنسانيته. ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم.

وقد كان لكل جا هلية من حولهم أرجاسها، وكان للعرب جاهليتهم وأرجاسها ومن أرجاسها هذا الذى وصفه جعفر بن ابى طالب وهو يحدث نجاشى الحبشة فى مواجهة رسول قريش إليه وقد جاء إليه ليسلمه المهاجرين من المسلمين عنده. يقول جعفر:

«أيها الملك - كنا قوما أهل جاهلية. نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش. ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله وحده لنوحده ونعبده. ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان. وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله ولانشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

وكان المخاطبون بهذه الآية أميين جهالا. أمية القلم وأمية العقل سواء وماكان لهم من المعرفة شيء ذو قيمة بالمقاييس العالمية للمعرفة فى أى باب من الأبواب وما كان لهم فى حياتهم من هموم كبيرة تنشئ معرفة ذات قيمة عالمية فى أى باب من الأبواب فاذا هذه الرسالة تحيلهم أساتذة الدنيا وحكماء العالم وأصحاب المنهج العقيدى والفكرى والاجتماعى والتنظيمى الذى ينقذ البشرية كلها من جاهليتها من النواحي الأخلاقية والاجتماعية، وتصور أهداف الحياة الإنسانية وغايتها كذلك. على الرغم من فتوحات العلم المادى والانتاج الصناعى والرخاء الحضارى.

﴿وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ضلال فى التصور والاعتقاد وضلال فى مفهومات الحياة وضلال فى الغاية والاتجاه وضلال فى العادات والسلوك. وضلال فى الأنظمة والأوضاع وضلال فى المجتمع والأخلاق.

والعرب الذين كانوا يخاطبون بهذه الآية كانوا يذكرون- ولاشك- ماضى حياتهم وأوضاعهم ويعرفون طبيعة النقلة التى نقلهم اليها الإسلام وماكنوا ببالغيها بغير الإسلام وهى نقلة غير معهودة فى تاريخ بنى الإنسان.

كانوا يدركون أن الإسلام ـ والإسلام وحده ـ هو الذى منحهم وجودهم القومى ووجودهم السياسى ووجودهم الدولى. . وقبل كل شىء وأهم من كل شىء وجودهم الإنسانى، الذى يدفع إنسانيتهم ويكرم آدميتهم ويقيم نظام حياتهم كله على أساس هذا التكريم الذى جاءهم هدية ومنة من لدى ربهم الكريم والذى أفاضوه هم على البشرية كلها بعد ذلك. وعلموها كيف تحترم «الإنسان» وتكرمه بتكريم الله، غير مسبوقين فى هذا لا فى الجزيرة العربية ولا فى أى مكان وفى اللفته السابقة «الشورى» طرف من هذا المنهج الإلهى الذى كانوا يدركون فيه عظم المنة عليهم من الله.

وكانوا يدركون أن الإسلام والإسلام وحده - هو الذى جعل لهم رسالة يقدمونها للعالم ونظرية للحياة البشرية ومذهبا مميزا للحياة الإنسانية، والأمة لاتوجد فى الحقل الإنسانى الكبير إلا برسالة ونظرية ومذهب تقدمه للبشرية. لتدفع بالبشرية إلى الأمام.

وقد كان الإسلام. وتصوره للوجود ورأيه فى الحياة وتشريعه للمجتمع وتنظيمه للحياة البشرية ومنهجه المثالى الواقعى الإيجابى لإقامة نظام يسعد فى ظله «الإنسان».

كان الإسلام بخصائصه هذه هو «بطاقة الشخصية» التى تقدم بها العرب للعالم فعرفهم واحترمهم. وسلمهم القيادة.

ولقد كانت المنة الالهية على هذه الأمة بهذا الرسول وبهذه الرسالة عظيمة عظيمة وما يمكن أن يصرفها عن هذه المنة إلا شيطان. وهى مكلفة من ربها بمطاردة الشيطان[1].

وللدين الذى أمتن الله عز وجل علينا به منازل.

وقد عبر الإمام الغزالى عنها: بمنازل الهداية، بقوله:

---

(١) فى ظلال القرآن ـ سيد قطب ص٥١٢ وما قبلها جـ١.

وللهداية[*] منازل ثلاث: الأولى: معرفة طريق الخير والشر، المشار اليهما بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾[1].

وقد أنعم الله تعالى بها على كافة عباده، بعضها بالعقل وبعضها على لسان الرسل ولذلك قال تعالى ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2].

فأسباب الهدى هى الكتب الإلهية والرسل وبصائر العقول.

وهى مبذولة لجميع النا س. ولايمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا.

والأسباب التى تعمى القلوب لاتعمى الأبصار.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[3].

ومن جملة المعميات الإلف والعادة، وقد أشار تعالى اليهما بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[4].

فهذه المعميات هى التى منعت الاهتداء.

والهداية الثانية: وراء هذه الهداية العامة.

وهى التى يمد الله عز وجل بها العبد حالا بعد حال. وهى ثمرة المجاهدة.

وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ۝٦٩﴾[5] وبقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[6].

والهداية الثالثة: وراء الثانية.

وهى النور الذى يشرق فى عالم النبوة، والولاية بعد كمال المجاهدة فيهتدى بها إلى مالا يهتدى إليه بالعقل الذى يحصل به التكليف.

(*) يقصد الغزالى بالهداية هنا ومنازلها، درجات نعمة الدين الذى امتن الله عز وجل علينا بها.

(١) البلد: ١٠ .

(٢) فصلت: ١٧.

(٣) الحج: ٤٦.

(٤) الزخرف: ٢٣.

(٥) العنكبوت: ٦٩.

(٦) محمد: ١٧.

وهو الذى اشار إليه تعالى بقوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1].

وبقوله ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[2].

هذا ومن درجات الدين العالية درجة الرشد.

ونعني به العناية الإلهية التى تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على مافيه صلاحه. وتفتره عما فيه فساده، ويكون ذلك من الباطن، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾[3].

فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها.

ومن درجات الدين العالية. درجة التسديد.

وهى توجيه حركات العبد إلى الصواب وتيسيرها عليه، حتى يتم المراد[4].

ولقد وفق الغزالى فيما ذكره من تقسيم منازل الدين.

فإن الإيمان يزيد وينقص وليس إيمان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزلته فى الدين، كإيمان العوام ومنزلتهم فى الدين.

قال تعالى مشيرا إلى زيادة الإيمان: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[5].

والذى يقبل الزيادة يقبل النقصان، وهذا هو مذهب أهل السنة.

ومن عجب أن يعترف المشركون بأن الدين نعمة. بل هو أجل النعم لكنهم لايؤمنون به لسبق الفقراء والضعفاء والعبيد إليه. مما شككهم فى صحة ما جاء به.

---

(١) الأنعام: ١٢٢.

(٢) الزمر: ٢٢.

(٣) الأنبياء: ٥١.

(٤) إحياء علوم الدين جـ٤ ص١٠٨ بتصرف

(٥) آل عمران: ١٧٣.

يحكى الله عز وجل ذلك بقوله حاكيا حالهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾[١].

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير هذه الآية:-

يقول المتكبرون والمستنكرون: كيف يمكن أن يختص الله من بيننا بالخير هؤلاء الضعاف الفقراء؟

انه لو كان ماجاء به محمد خيرا ماسبقونا اليه، ولهدانا الله به قبل أن يهديهم، فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا ويتركنا نحن أصحاب المقام والجاه. وكانت هذه هى الفتنة التى قدرها الله لهؤلاء المتعالين بالمال والنسب والذين لم يدركوا طبيعة هذا الدين وطبيعة الدنيا الجديدة التى يطلع بها على البشرية مشرقة الآفاق مصعدة بهذه البشرية إلى تلك القمة السامقة.

التى كانت يومذاك غريبة على العرب. وعلى الدنيا كلها وماتزال غريبة فيما يسمونه الديمقراطيات على اختلاف أشكالها وأسمائها.

ويرد السباق القرآنى على هذا الاستفهام الإنكارى من المشركين.

أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا.

يرد عليهم هذا الرد الحافل بالإيحاءات والايماءات.

انه يقرر ابتداء أن الهدى جزاء يجزى به الله من يعلم من أمرهم أنهم سيشكرون هذه النعمة التى لاكفاء لها من شكر العبيد.

ويقرر أن نعمة الإيمان لاتتعلق بقيمة من قيم الأرض الصغيرة التى تسود فى الجاهليات البشرية، إنما يختص بها الله من يعلم أنهم سيشكرون عليها.

لايهم أن يكونوا من الموالى والضعاف والفقراء. فميزان الله لامكان فيه لقيم الأرض الصغيرة التى تتعاظم الناس فى الجاهليات[٢].

---

(١) الأنعام: ٥٣.

(٢) فى ظلال القرآن جـ٧ ص١١٠١.

عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال: قام النبى صلى الله عليه وسلم حتى انتفخت قدماه فقيل له: يانبى الله تكلف هذا وقد غفر لك فقال: أفلا أكون عبدا شكوراً[١].

وسمع بكر بن عبدالله المزنى يقول: «ماقال عبد: الحمد لله إلا وجبت عليه نعمة بقوله: «الحمد لله» قيل له: فما جزاء تلك النعمة؟ قال: جزاءها أن تقول: الحمد لله فتجئ نعمة أخرى.

فلا تنفد نعم الله تعالى[٢].

ويشير المولى عز وجل إلى نعمة فعل الطاعات وشكرها وثواب الله عز وجل على شكرها بقول ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[٣] وبقوله ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[٤] ولاتتم الطاعة إلا بالشكر على نعمة الطاعة.

قال سفيان: رأي وهيب قوما يضحكون يوم الفطر، فقال: إن كان هؤلاء تقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الشاكرين. وإن كان لم يتقبل منهم صيامهم فما هذا فعل الخائفين»[٥].

ومما يتصل بنعمة الدين أوثق اتصال إرساله عز وجل الرسل من جنس البشر.

يتفقون مع سائر الناس فى أخص أوصاف البشرية، حتى يتيسر التلقى عنهم وتقليدهم فيما يقولون ومايفعلون.

غير أن المولى عز وجل قد اختصهم بنوع من الصفات صاروا بها أهلا لتلقى

---

(١) الحديث فى بكائه فى صلاة الليل- اخرجه ابو الشيخ، رواه مسلم فى صحيحه والبخارى ص ٢ ص ٦٣ باب قيام النبى صلى الله عليه وسلم حتى ترم قدماه.

(٢) كتاب الشكر لابن أبى الدنيا ص٣٩.

(٣) النور: ٥٤.

(٤) الفتح: ١٦.

(٥) كتاب الشكر ص٣٩

وحى الله عن ملائكته. والاحتفاظ بما تلقوه كما تلقوه. والقيام بتبليغه للناس وقيادتهم لهم فى التطبيق والعمل به فى الحياة.

فكانوا بذلك مبلغين عن الله معصومين عن الخطأ فيما يبلغون، وكانوا أسوة لأقوامهم وإلى بشريتهم وكونهم من جنس المرسل إليهم يشير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(1).

وبقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾(2).

كما يشير إلى امتيازهم بما يؤهلهم للنبوة والرسالة. بعد اشتراكهم مع أقوامهم فى أخص أوصاف البشرية. يشير إلى امتيازهم بقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾(3).

ومما يتصل بنعمة الدين. تعاقب الرسالات على الإنسانية، بحيث لم تخل أمة من الأمم من نذيز. قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(4).

«ذلك أن رقى الإنسان الروحى الذى به انتظام شئونه فى الدنيا ووقوعها على وجه الحكمة والصواب هو هدف الحكمة الإلهية من الرسالات إليه.

والإنسان من مبدأ أمره هو المخلوق الذى وضع فى مكان الصدارة من الخلق.

وركبت فيه قوتا الخير والشر. ولذا كان إرسال الرسل إليه متواصلا فى جميع الأزمنة والأمكنة تقوية لجانب الخير فيه.

وكانت أصول رسالاتهم وعقائدهم واحدة، لاتختلف رسالة عن رسالة فى ذلك.

قال تعالى مشيرا إلى ذلك: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾(5).

---

(1) النحل: ٤٣.

(2) الأنبياء: ٨.

(3) الأنعام: ١٢٤.

(4) فاطر: ٢٤.

(5) الشورى: ١٣.

وقد كان الرسل بذلك- كما صورهم سيدنا رسول الله ﷺ - بناة بيت واحد يؤسس سابقهم للاحقهم. ويشيد لاحقهم على أساس سابقهم، واخذ الله عليهم فى ذلك العهد والميثاق. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾(١).

ومن هنا طلب القرآن الإيمان بجميع الرسل. كما طلب الإيمان بما أنزل عليهم جميعا وكان الإيمان بالبعض دون البعض فى الإسلام خروجا عن دين الله وهديه.

قال تعالى مشيرا إلى وجوب الإيمان بجميع أنبياء الله ورسله وكتبه.

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) ﴾(٣).

وجاء فيمن يؤمنون بالبعض دون البعض:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) ﴾(٤).

وجاء فى الذين يؤمنون بالجميع قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (١٥٢) ﴾(٥)و(٦).

---

(١) آل عمران: ٨١.

(٢) البقرة: ٤.

(٣) البقرة: ١٣٦.

(٤) النساء: ١٥٠ ـ ١٥١.

(٥) النساء: ١٥٢.

(٦) كتاب الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت. ص ٣٣

ومن تمام نعمة الدين ختم رسالات السماء برسالة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبين والمرسلين، وإتمام الدين بها، الذى صرح فى الحديث النبوى أن الأنبياء بناة بيت واحد، ختموا بسيدنا محمد ﷺ.

وجعلها عامة للإنس والجن، وخالدة إلى قيام الساعة.

يقول الشيخ شلتوت مشيرا إلى ذلك «وكما طلب الإسلام الإيمان بجميع الرسل.

طلب الإيمان بأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين والمرسلين وأن رسالته تضمنت الإرشاد إلى ما به كمال الإنسانية، وفتحت لها جميع النوافذ التى تستطيع أن تصل منها إلى كل ماينفعها روحا ومادة.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[2].

وكما قرر تعالى أن الرسالات الإلهية ختمت برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خاتم الأنبياء.

قرر أيضا أن رسالته عامة، بمعنى أنها موجهة إلى جميع الناس على اختلاف أجناسهم ولغاتهم الموجودين منهم وقت حياته والموجودين منهم بعد مماته الى يوم الدين.

قال تعالى مشيرا إلى ذلك:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[4].

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) الأنعام: ١٩.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾[2].

وقد حكى القرآن رسالات غيره ممن تقدم بعنوان القومية الخاصة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[6].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[7][8].

---

(١) الأنبياء: ١٠٧.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأعراف ٥٩.

(٤) الأعراف: ٦٥.

(٥) الأعراف: ٨٥.

(٦) الأ عراف: ٨٠..

(٧) الأعراف: ١٠٣.

(٨) كتاب الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص٣٣ ومابعدها بتصرف.

١٤ ـ نعمة الزوجة الصالحة

قال تعالى مشيرا الى نعمة الزوجة الصالحة:

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾[١].

«جعل سبحانه الزوجة نعمة فى ذاتها، والزوجية هى صلاحية الأفراد من الناس عن طريق الذكورة والأنوثة للمزاوجة والالتقاء فى علاقة بينهما.

كما جعل مايخرج عن الزوجية من البنين والحفدة نعمة أخرى. وهى نعمة مشتركة بين الرجل والمرأة. وأخيراً جعل الرزق منه سبحانه وتعالى للأزواج رجالا ونساء معا من الطيبات نعمة ثالثة»[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾[٣].

وهذه الآية تنبه الرجل والمرآة إلى أنه من أعظم دلائل قدرة الله وآيات كرمه أن خلق للرجل زوجة من جنسه ليسكن إليها.

والسكون النفسى المذكور فى الآية هو تعبير بليغ عن شعور الشوق والحب الذى يشعر به كل منهما نحو الآخر. والذى يزول به أعظم اضطراب فطرى فى القلب والعقل.

والذى لا ترتاح النفس وتطمئن فى سريرتها بدونه.

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى فى تصوير هذه العلاقة.

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[٤].

---

(١) النحل: ٧٢.

(٢) الفكر الإسلامى. والمجتمع المعاصر. مشكلات الأسرة والتكافل. محمد البهى.

(٣) الروم: ٢١.

(٤) البقرة: ١٨٧.

فهذه الآية شبهت كلا من الزوجين باللباس لأن كلا منهما يستر الآخر ويحميه فحاجة كل منهما إلى صاحبه كحاجته إلى الملبس، فان يكن الملبس لستر معايب الجسم ولحفظه من عاديات الأذى وللتجمل وللزينة. فكل من الزوجين لصاحبه كذلك.

يحفظ عليه شرفه ويصون عرضه ويوفر راحته.

وبذلك يحدد القرآن الكريم فى مجمل آياته أن الهدف الأسمى من عقد الزواج هو السكنى.

والسكنى بمعنى الاستقرار والأطمئنان فى الحياة[1].

وحتى تكون المرأة زوجة صالحة. ونعمة جليلة فقد وجهتنا الشريعة الإسلامية إلى مايؤدى إلى ذلك «فلم تترك الشريعة الناس يخبطون فيما يبغونه فى المرأة من الأغراض عند تخير الزوجة بل وجهتهم إلى الطريق السوى.

من ذلك توجيه من يريد الزواج إلى مراعاة الاستقامة على الدين والخلق الكريم فى المرأة التى يتخيرها. وأن يكون هذا هو أهم مايقصده منها.

فالدين يرعى الحقوق ويحفظها. ويعصم النفس من الطغيان والتردى.

والخلق الحميد ينشر المودة والمحبة.

فتستقيم الحياة الزوجية وتدوم العشرة بين الزوجين.

أما الجمال وحده أو المال أو الحب وغير ذلك من الأمور الزائلة فكثيرا ما تكون مبعثا للتنغيص، بما تحمل عليه من الزهو والتعاظم. وما يجر وراءه من المتاعب الكثيرة، التى تكون سببا فى تداعى بناء الأسرة.

لذلك حذر صلى الله عليهم وسلم من هذا الاتجاه فى التخير، وحض على ماتنبغى مراعاته بقوله: «لا تزوجوا النساء لحسنهن، فعسى حسنهن أن يرديهن.

---

(١) نفس المرجع السابق

ولاتزوجوهن لأموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن. ولكن تزوجوهن على الدين. ولأمة سوداء ذات دين أفضل»[١].

وشدد فى التحذير من التزوج بالمرأة ذات الخلق السئ بقوله ﷺ: «اياكم وخضراء الدمن قيل وما خضراء الدمن؟ قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء»[٢].

وفصل ﷺ مايرغب فى المرأة بسببه ثم حث على نكاح ذات الدين فقال: «تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»[٣].

هذا ويمكن معرفة ماعليه المرأة من الخلق والدين من سمات الأسرة التى نشأت فيها وعاداتها، فان عادات القوم فى الغالب تكون غالبة على أفرادهم، حتى تكون كالجبلة فيهم. والإنسان يتأثر بالبيئة التى يعيش فيها.

ومن توجيهات الإسلام أن يتخير الرجل المرأة الودود الولود حتى يتحقق المقصد الأهم من الزواج وهو التناسل الذى يبقى على النوع الإنسانى.

وبه تكون الكثرة التى يباهى بها سيدنا رسول الله ﷺ يوم القيامة كما قال: «تزوجوا الودود الولود فإنى مكاثر بكم الأمم يوم القيامة»[٤].

ومن تمام نعمة الزوجة الصالحة.

أن يتحقق تبادل الحقوق والواجبات بين الزوجين على السواء.

ولذلك حدد الإسلام لكل من الزوجين حقوقه وواجباته، وألزم كلا بما عليه نحو الاخر. حتى يسعد كل منهما بصاحبه. تلك السعادة التى أشار اليها ﷺ

---

(١) منتقى الأخبار مع شرحه نيل الأوطار جـ٦ص٣٣ من حديث عبدالله بن عمرو عند ابن ماجه والبزار والبيهقى رفعه.

(٢) المصدر السابق

(٣) رواه الشيخان فى صحيحهما. جـ١ص٢٢٩ الجامع الصغير

(٤) إحياء علوم الدين جـ٤ص٨١ رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط واسناده حسن مجمع الزوائد جـ٤ ص٢٥٨

بقوله: «الدينا متاع. وخير متاعها المرأة الصالحة. إن نظر إليها سرته. وأن أمرها أطاعته وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله»[1].

وحتى تكون المرأة حبيبة إلى نفس الرجل، ذلك الحب الذى أشار اليه ﷺ بقوله: «حبب إلىّ من دنياكم الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[2].

ومن تلك الحقوق والواجبات التى عليها تقوم الحياة الزوجية.

أن يكون كل من الزوجين أمينا مع صاحبه فلا يخونه فى قليل ولاكثير إذ الزوجان أشبه بشريكين. فلا بد من توافر الأمانة والنصح والصدق والاخلاص بينهما فى كل شىء فالأمانة هى أساس إبقاء شعور المودة والرحمة وسلامة روح الحياة الزوجية. ولهذا أعظم ثواب الزوجة الطيعة لزوجها.

حتى بشرها الإسلام بدخول الجنة بسبب ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها. قيل لها: أدخلى الجنة من أى أبواب الجنة شئت»[3].

واعظاما لوجوب طاعة المرأة لزوجها يقول ﷺ: « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

ولو أن رجلا أمر امرأته أن تنقل من جبل احمر إلى جبل اسود ومن جبل أسود إلى جبل أحمر لكان عليها أن تفعل»[4].

وفى رواية عن عبدالله بن أبى أوفى قال : لما قدم معاذ من الشام سجد للنبى صلى الله عليه وسلم. قال ماهذا يامعاذ؟

قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم. فوددت فى نفسى أن نفعل ذلك بلك.

---

(١) إحياء علوم الدين جـ٤ص٨١.

(٢) رواه الجامع الصغير جـ١ ص ٢٥٠ حديث حسن. .

(٣) مسند الامام أحمد جـ١ ص ١٩١ ، رواه الطبرانى فى الكبير عن عبدالرحمن بن حسنه وهو صحيح، الجامع الصغير جـ١ص٤٨ .

(٤) راجع سنن ابن ماجه جـ١ص٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فلا تفعلوا فإنى لو كنت آمرا أحدا أن يسجد لأحد غير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. والذى نفس محمد بيده لاتؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها، ولو سألها و هى على قتب لم تمنعه[1].

وجماع القول فى حقوق كل من الزوجين على الآخر ماذكره تعالى فى قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[2] وبمحافظة كل من الزوجين على مايجب عليه نحو الآخر يوجد البيت السعيد، والحياة الزوجية المباركة.

ويشعر كل من الرجل و المرأة بنعمة الحياة الزوجية.

فالإسلام يعترف بالآداب المتبادله بين الزوج وزوجته.

فحق الرجل أن يفسح صدره لآراء زوجته، وأن يستشيرها فى تسيير دفة حياتهما الأسرية ، كما أن حق المرأة أن تسمع آراء زوجها بغير أنانية. وأن لاتخرج من بيته إلا بإذنه.

فالبيت هو المكان الطبيعى لرسالة المرأة، وله حق منعها من الخروج إذا رأى فى خروجها أنه يلحقها به ضرر أو يخشى على هدم الاستقرار للمعيشة الزوجية.

إلا لزيارة أبويها فإن لها هذا الحق ولو لم يأذن لها، لأن ذلك من صلة الرحم الواجبة بشرط أن يكون فى حدود الاعتدال وماجرى به العرف.

قال الامام الشافعى رحمه الله، وللزوج منع زوجته من الخروج إلى المساجد وغيرها لما روى ابن عمر رضى الله عنه قال: «رأيت امرأة أتت إلى النبى ﷺ وقالت يارسول الله ماحق الزوج على زوجته؟

قال حقه عليها أن لا تخرج من بيتها إلا بإذنه فإن فعلت لعنها الله وملائكة الرحمة وملائكة الغضب حتى تتوب أو ترجع. قالت. يا رسول الله وإن كان لها ظالما؟ قال: وإن كان لها ظالما».

---

(١) سنن ابن ماجه جـ١ص٥٩٥ كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة.
(٢) البقرة: ٢٢٨.

ولأن حق الزوج واجب فلا يجوز تركه بما ليس بواجب ويكره منعها من عيادة أبيها إذا (أثقل وحضور مواراته إذا مات لأن منعها من ذلك يؤدى إلى النفور ويغريها بالعقوق)[١].

أما الخروج لتتعلم علما دينيا إذا كان زوجها قادرا عليه وسيقوم به فيمكن أن يمنعها عن الخروج من بيته وإلا فقد وجب عليها الخروج لتحصيل الضرورى من العلم الدينى كمعرفة العقيدة والعبادات المفروضة وغيرها.

قال الإمام الغزالى رحمه الله: فإن كان الرجل قائما بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء. وإن قصر علم الرجل ولكن ناب عنها فى السؤال فأخبرها بجواب المفتى فليس لها الخروج فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ومهما تعلمت ماهو من الفرائض فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه ومهما أهملت المرأة حكما من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل خرج الرجل معها وشاركها فى الإثم[٢].

أما الخروج للعمل الذى يؤدى إلى نقصان حقه أو ضرره فحقه منعها من الخروج إلا إذا كان قد شرط لها من بداية العقد ولم يترتب عليه ضرر مادى أو أدبى فعليه الوفاء وكذلك إذا اشترطت الزوجة فى عقد النكاح شرطا فيه منفعة لها ولاينافى مقاصد النكاح كأن لا ينقلها إلى بلد غير بلدها صح الشرط ووجب الوفاء.

قال الإمام الغزالى رحمه الله فينبغى للمرأة أن لا تخرج إلا لمهم فإن الخروج للنظارات والأمور التى ليست مهمة تقدح فى المروءة وربما تفضى الى الفساد[٣] ولاتصوم نفلا إلا بإذنه ما لم يكن مسافرا فلعله يحتاجها لنفسه فى وسط النهار إلا إذا أذن لها هو فى الصيام.

---

(١) المهذب فى فقه مذهب الإمام الشافعى جـ٢ ص٦٦ الحديث اخرجه البيهقى- الحا فظ العراقى على احياء علوم الدين ج٢ص٥٧

(٢) إحياء علوم الدين جـ٢ ص ٤٩.

(٣) إحياء علوم الدين جـ٢ ص ٤٩..

وان لاتمنعه نفسها إذا دعاها لفراشه مالم يكن عذر شرعى كحيض أو نفاس أو مرض أو صيام مفروض.

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة عن النبى ﷺ «الا تصوم المرأة وبعلها شاهد إلا بإذنه»[1].

وفى رواية أخرى :

روى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال «إذا أوى الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء فبات غضبان لعنتها الملائكة حتى تصبح»[2] أى إذا دعاها الزوج لقضاء حاجته معها وجب عليها أن تجيبه ولا تتخلف لحظة مهما كان العمل الذى تفعله. فان أبت لعنتها الملائكة حتى تصبح وعليها أن تحافظ على ماله وسائر شئون منزله ولا تعطى أحدا منه شيئا إلا بإذنه ولا تقدم طعاما لأحد من أقاربها أو لسائل إلا بعد وثوقها من رضاه.

فليس من العدل أن تقدم يدها لأقاربها وأسرتها بينما لاتقدم شيئا لأقارب زوجها. فلابد من أن هذا العمل الصغير سيصبح حقدا يعكر الجو بين العائلتين، وعليها أن تحافظ على عرض الزوج وعلى شرفها ورعاية أولاده وأن لاتدخل بيته أحداً إلا بإذنه ولو كان محرما أو قريبا من ناحيته أو من ناحيتها.

أو امرأة اجنبية أو غير اجنبية وخاصة مادام زوجها يكره ذلك هذا وقد تكون هناك أسباب جوهرية لهذا الكره يرى الزوج بسببها قطع الصلة بهذا الإنسان أو بتلك الإنسانة إبقاء على سعادته الزوجيه.

وقد يكون الرجل المحرم أو الأقارب من النوع الذى ينقل أسرار البيوت فيوغر صدر الزوجة على زوجها بصورة قد تكون سببا فى هدم استقرار هذا البيت أو على الأقل فى عدم طمأنينيته.

---

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح جـ٧ ص ٣٩ .

(٢) صحيح البخارى كتاب النكاح جـ٧ ص ٣٩

وكذلك قد تكون هذه المرأة التى كرهها زوجها من المفسدات للعلاقات الزوجية ولهذا كان من الحكمة تنفيذ رغبة الزوج فى عدم الإذن بدخول مثل هؤلاء المفسدين بينه وبينها.

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ. قال: «لايحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ولا تأذن فى بيته إلا بإذنه وما أنفقت من غير أمره فإنه يؤدى اليه شطره»[1].

وعليها أن تخفف أعباء حياته وتشجع روح التفاؤل والبهجة والأمل فى نفسه ومؤازرته ومعاونته والوقوف بجانبه فى بأساء الحياة وسرائها وتفتح أمامه آفاق الأمل فى مشاريعه وأعماله وتهيئ له مناخ الاستقرار الذى ينشط فيه للعمل الصالح المثمر وحين ترى بعض آماله عسيرة التحقيق بالنسبة إلى إمكانياته المحددة ففى استطاعتها أن تشجعه على الوصول إلى الأهداف القريبة دون أن تلقى فى روعه أنه شخص مغرور أو أن تحقيق أمله ضرب من الخطأ أو نوع من المحال.

ولقد دلت تواريخ الأمم كم من الرجال الناجحين فى الرياسة سياسية كانت أو غيرها بسبب أن ورائهم امرأة مشجعة وحكيمة لتحقيق آمالهم.

وكان من أسباب نجاح رسول الله ﷺ فى دعوته تشجيع أمهات المؤمنين واشتراكهن فى الكفاح.

وعليها أن تتزين لزوجها وحده بما أحل الله لها. حتى لايتطلع إلى سواها وهذه هى الزوجة النعمة الزوجة الصالحة التى تستوجب شكر الله عليها[2].

وعن ابن عباس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أربع من اعطيهن فقد اعطى خير الدنيا والاخرة، قلب شاكر ولسان ذاكر وبدن على البلاء صابر وزوجة لاتبغيه فى نفسها ولا ماله»[3].

---

(١) صحيح البخارى كتاب النكاح حـ٧ ص ٣٩.

(٢) رسالة عتيقة نور على الأنور وموضوعها «البر والصلة».

(٣) حديث حسن، أنظر الجامع الصغير جـ ١ ص ٦٠.

عن أبى برده قال: «قدمت المدينة فلقيت عبدالله بن سلام. فقال الا تدخل بيتا دخله رسول الله ﷺ ونطعمك سويقا وتمرا؟ ثم قال:

إن الله عز وجل إذا جمع الناس غدا ذكرهم ما أنعم عليهم فيقول العبد بآية ماذا؟ فيقول: إنه ذاك إنك كنت فى كربة كذا وكذا فدعوتنى فكشفتها عنك وانه ذاك. إنك كنت فى سفر كذا فاستصحبتنى فصحبتك قال ويذكره حتى يذكر فيقول إنه ذاك. إنك خطبت فلانة بنت فلان وخطبها معك خطاب فزوجتك ورددتهم[(١)].

وروى مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ انه قال: «من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة»[(٢)].

وعنه صلى الله عليه وسلم فى فضل المرأة قال:

«من سعادة ابن آدم ثلاثة. ومن شقوة ابن آدم ثلاثة.

من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة. والمسكن الصالح ، والمركب الصالح. ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء. والمسكن السوء. والمركب السوء[(٣)].

وهكذا يصرح ﷺ وسلم بأن من سعادة ابن آدم المرأة الصالحة ، ومن شقوته المرأة السوء.

والقرآن الكريم يذكر امتنان الله عز وجل على سيدنا زكريا بصلاح زوجه. قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾[(٤)].

فذكر تعالى من نعمه على سيدنا زكريا إصلاح زوجه له.

---

(١) السابق ص ١٩.

(٢) رواه مسلم جـ ص

(٣) رواه احمد جـ١ ص ١٦٨، الترغيب والترهيب جـ٣ ص ٤٣ مجمع الزوائد للهيثمى جـ ٤ ص ٢٧٢ ، كتاب النكاح باب فى المرأة الصالحة . .

(٤) الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠. .

وتواصل السنة النبوية الثناء على الزوجة الصالحة، وفى ذلك إشارة إلى أنها نعمة من جلائل النعم.

عن يعلى بن منية[1] أن رجلا كانت له امرأة صالحة وكانت إذا دخل عليها قالت مرحبا بسيدنا وسيد أهل بيتنا إن كان همك لآخرتك فزادك الله هما، وإن كان همك الدنيا فإن الله عز وجل سيرزقك ويحسن إليك فجاء إلى النبى ﷺ فأخبره فقال رسول الله ﷺ.. لها نصف أجر المجاهد فى سبيل الله وهى عامل من عمال الله[2].

وعن كثير بن مرة عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ ان فجور المرأة الفاجرة كفجور ألف فاجر وإن بر المرأة المؤمنة كعمل سبعين صديقا»[3].

وعن على عليه السلام قال: النساء أربع- القرقع- والوعوع وغل لا ينزع وجامعة تجمع فأما القرقع[4] فالسمحة، و أما الوعوع فالصخابة، وأما الغل الذى لاينزع- فالمرأة السوء للرجل منها أولاد- لايدرى كيف يتخلص منها وأما الجامعة التى تجمع: فهى التى تجمع الشمل وتلم الشعث.

وعن زيد[5] بن مرة قال: «المرأة الفاجرة كألف فاجر، و المرأة الصالحة يكتب لها عمل مائة صديق»

---

(١) وهو يعلى بن منية من المهاجرين وأمة منية نسب اليها وهى كنية بنت الحرث بن جابر واسم أبيه أمية بن أبى عبيدة، ولاه أبو بكر اليمن وتزوج بنت الزبير بن العوام وبنت ابى لهب، ووقف مع عائشة رضى الله عنها يوم الجمل. انظر المعارف لابن قتيبة الدينورى ص ١٢٠ وتهذيب التهذيب جـ١٢ص ٣١٢ وكذا فى الإصابة جـ ٣ ص ٦٦٨.

(٢) عن كثير بن مرة الحضرى الرهاوى ابو شجرة ويقال ابو القاسم الحمصى تا بعى من أهل الشام وكان ثقة. انظر تهذيب التهذيب جـ٨ص٤٢٨.

(٣) قال السيوطى فى الفتح الكبير جـ٢ ص ٢٦٤ رواه ابو الشيخ عن ابن عمر

(٤) وفى النهاية: الفرقع: البلهاء. أنظر النهاية جـ٤ ص ٣٥ وترتيب القاموس المحيط جـ٣ ص ٥٨٣.

(٥) هو زيد بن الحوارى العمى البصرى قاضى هرارة وهو مولى زياد بن ابيه انظر: تهذيب التهذيب جـ٣ ص٤٠٧ وقال السيوطى فى الفتح الكبير جـ٢ ص ٢٦٤ من رواية ابى الشيخ عن ابن عمر.

١٥- نعمة الأولاد

الأولاد من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على عباده، وامتن عليهم بها وخاصة البررة منهم وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، قال تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴿٧٢﴾ ﴾[١].

يقول ابن كثير: «يذكر الله تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجا من جنسهم وبشكلهم ، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ماحصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بنى آدم ذكورا وأناثا. وجعل الإناث أزواجاً للذكور ثم ذكر تعالى انه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين[٢] والأولاد قرة أعين للآباء.

قال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا** ﴿٧٤﴾ ﴾[٣].

قال ابن كثير: «يعنى الذين يسألون الله أن يخرج من أصلابهم من ذرياتهم من يطيعه ويعبده وحده لاشريك له، قال ابن عباس: يعنون من يعمل بطاعة الله فتقر به أعينهم فى الدنيا والآخرة وقال عكرمة لم يريدوا بذلك صباحة ولاجمالا ولكن ارادوا ان يكونوا مطيعين وسئل الحسن البصرى عن هذه الآية فقال: أن يرى الله العبد المسلم من زوجته ومن أخيه ومن حميمه طاعة الله، ولا والله لا شىء أقر لعين المسلم من أن يرى ولدا أو ولد ولد أو أخا أو حميما مطيعا لله عز وجل وقال ابن جريح: «معناها يعبدونك فيحسنون عبادتك ولايجرون علينا الجرائر. وروى الأمام أحمد فى مسنده عن عبدالرحمن بن جبير بن نفير عن أبيه قال: جلسنا الى المقداد بن الأسود يوما، فمر به رجل فقال: طوبى لهاتين العينين اللتين رأيا رسول الله ﷺ لوددنا أنا رأينا مارأيت وشهدنا ماشهدت.

---

(١) النحل: ٧٢.

(٢) ابن كثير جـ ٢ صـ٥٧٧.

(٣) الفرقان: ٧٤.

فاستغضب المقداد، فجعلت أ عجب لأنه ماقال إلا خيرا.

ثم أقبل إليه فقال: مايحمل الرجل على أن يتمنى محضرا غيبه الله عنه، لايدرى لو شهده كيف يكون فيه.

والله لقد حضر رسول الله ﷺ أقوام أكبهم الله على مناخرهم فى جهنم لم يجيبوه ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذا أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعرفون إلا ربكم مصدقين بما جاء به نبيكم قد كفيتم البلاء بغيركم؟

لقد بعث الله النبى ﷺ على أشر حال بعث عليها نبيا من الأنبياء فى فترة جاهلية مايرون أن دينا أفضل من عبادة الأوثان.

فجاء بقرآن فرق به بين الحق والباطل، وفرق بين الوالد وولده، إن كان الرجل ليرى والده وولده كافراً، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان، يعلم إنه إن هلكا دخل النار فلا تقرعينه وهو يعلم أن حبيبه فى النار .

وأنها التى قال الله تعالى: ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾ «وهذا إسناد صحيح ولم يخرجوه»[1].

وهكذا نرى من جملة النصوص التى رواها ابن كثير فى نصه هذا ان الأولاد البررة من أجل النعم التى يمن الله عز وجل بها على عباده والتى يطلبها صالحوا المؤمنين من الله عز وجل كما صرحت به الآية: ﴿ **رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ** ﴾.

ومن هنا دعا سيدنا زكريا ربه أن يرزقه الذرية الطيبة قائلا ماحكاه القرآن عنه: ﴿ **رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً** ﴾[2] كما حكى عنه مرة أخرى قوله: ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا** (٤) **وَإِنِّي خِفْتُ**

(١) جـ٣ص٣٣٠

(٢) آل عمران: ٣٨ .

الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾[١].

فزكريا عليه الصلاة والسلام يسأل الله عز وجل الولد، ويسأله عز وجل أن يكون الولد صالحا.

ويستجيب الله عز وجل دعاءه ويرزقه سيدنا يحيى ويمتن عليه بنعمة الولد. ونعمة صلاح الولد.

يقول تعالى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ ﴾[٣].

وهكذا تتعدد الآيات التى تبين نعمة الذرية الصالحة كمطلب للأنبياء ومنة من الله عز وجل، وقد ترجم الإمام البخارى باب «طلب الولد» «وباب الدعاء بكثرة الولد مع البركة».

وساق أحاديث كثيرة تبين أن طلب الولد مطلب فطرى، وتضعه فى إطاره الصحيح من القيم والمثل العليا[٤].

ومن هذه الأحاديث ماروواه البخارى بسنده عن جابر قال:

«كنت مع رسول الله ﷺ فى غزوة فلما قفلنا تعجلت على بعير قطوف فلحقنى راكب من خلفى فالتفت فإذا أنا برسول الله ﷺ. قال ما يعجلك.

قلت: إنى حديث عهد بعرس. قال: فبكرا تزوجت أم ثيبا؟

قلت: بل ثيباً . قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك.

---

(١) مريم: ٤ ـ ٦ .
(٢) مريم: ٧ .
(٣) مريم: ١٢ ـ ١٤.
(٤) أضواء على نظام الاسرة فى الاسلام ص ٢٠- ٢١ للدكتورة سعاد صالح

فلما قدمنا ذهبنا لندخل. فقال: أمهلوا حتى تدخلوا ليلا أى عشاء، لكى تمتشط الشعثة وتستحد المغيبة.

قال: وحدثنى الثقة أنه قال فى هذا الحديث: الكيس الكيس ياجابر «يعنى الولد»[١].

وروى النسائى وابن حبان فى صحيحه واللفظ له بسنده عن أنس أن النبى ﷺ قال : «اذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»[٢].

وعن أبى سلمى أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: بخ بخ - وأشار بيده- لخمس ما أثلقهن فى الميزان . سبحان الله . والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر والولد الصالح يتوفى للمرء المسلم فيحتسبه»[٣].

وهكذا تمتد نعمة الولد الى مابعد مما ته، فحياته نعمة لأبيه حيا كان أبوه أم ميتا.

وموته فى حياة أبيه نعمة له كذلك، حيث يجد ثواب ذلك فى ميزانه.

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه جـ٧ ص٥٠ الأحاديث تم تخرجها فى الملحق .

(٢) رواه أحمد بن حنبل فى مسنده، وورواه البيهقى فى شعب الإيمان- الجامع الصغير جـ١ص ٤٩ .

(٣) البخارى فى الأدب ومسلم فى صحيحه عن أبى هريرة جـ١١ ص ٨٥ كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد موته .

ج) نعمة الإمداد بالنعم الآفاقية

«تسخير جميع مافي الكون للإنسان»

١- تسخير الأرض والجبال والأنهار والبحار

٢- تسخير الليل والنهار

٣- تسخير أنواع المزروعات

٤- تسخير الحيوانات

٥- تسخير النار

٦- تسخير الشمس والقمر والكواكب

٧- تسخير الحفظة لحفظ الإنسان

١- تسخير الأرض والجبال و الأنهار و البحار

أ- تسخير الأرض

تكرر ذكر الأرض كثيرا فى القرآن الكريم فى معرض الامتنان بخلقها وخلق مافيها وما عليها من نعم جليلة.

من ذلك قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا﴾[١].

قال ابن كثير: شرع تبارك وتعالى فى تعداد نعمه الظاهرة والباطنة.

بأن جعل لهم الأرض فرشا. أى مهدا كالفراش مقدرة موطأة[٢].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا﴾[٣].

وعلمنا تعالى أن نحمده على خلق السموات والأرض. شكراً على نعمة خلق السموات والأرض فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ﴾[٤].

وأمتن علينا تعالى كذلك بخلقه السموات والأرض بالحق. أى بالعدل.

فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾﴾[٦].

والمهاد: الفراش الموطأ[٧].

وقال الزمخشرى فى تفسيره: إن معنى جعلها فراشا ومهادا أنها لهم كالمهد للصبى وهو مايمهد له فينام عليه. ويتقلب فيه[٨].

ومن إبداع الله فى خلق الأرض أن جعلها مبسوطه. تسهل الحركة عليها.

قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾﴾.

---

(١) البقرة: ٢٢. (٢) جـ١ صـ٥٧. (٣) غافر: ٦٤.

(٤) الأنعام: ١ (٥) الأنعام: ٧٣. (٦) النبأ: ٦.

(٧) القاموس جـ١ صـ٣٣٩. (٨) الكشاف جـ٤ صـ٢٠٢

«أى بسطها ومهدها للسكنى. وقد فسر هذا التمهيد بما لابد منه فى تيسير سكنها من أمور المأكل والمشرب وامكان القرار والسكون عليها ، واخراج الماء والمرعى وارساء الجبال حتى تستقر ويستقر عليها الناس[1].

وعن ابن عباس. دحاها: أخرج منها الماء والمرعى وشق فيها الأنهار وجعل فيها الجبال والرمال والآكام ليستقر أهلها عليها . وكل ذلك متاع لخلقه . ولما يحتاجون اليه من الأنعام التى يأكلونها ويركبونها فى حياتهم الدنيا[2].

وهذا ما أثبته العلم الحديث. إذ أن دحو الأرض وانباتها إنما كان فى مرحلة متأخرة عن خلقها وايجادها»[3].

«والدحو فى أصل اللغة دحرجة الأشياء القابلة للدحرجة كالجوزة والحصى ورميها. ويسمون المطر الداحى لأنه يدحو الحصى، وكذا اللاعب بالجوز»[4].

وفى نفس المعنى وهو دحو الأرض «بمعنى تمهيدها وبسط قشرتها بحيث تصبح صالحة للسير عليها، وتكون تربة صالحة للانبات.

يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾[5]...

أى خلقها لكم لتستقروا عليها. وتسلكوا فيها أين شئتم من نواحيها وأرجائها وأقطارها. وكل هذا مما ينبههم به نوح عليه السلام على قدرة الله وعظمته فى خلق السموات والأرض ونعمه عليهم فيما جعل لهم من المنافع السماوية والأرضية»[6].

---

(١) الكشاف جـ٤ صـ٢١٥.
(٢) ابن كثير جـ٤صـ٤٦٩.
(٣) جواهر القرآن. للشيخ طنطاوى جوهرى جـ٢٥ص ٣٨.
(٤) تفسير المنارجـ ١ صـ ٢٤٨.
(٥) نوح: ١٩، ٢٠.
(٦) ابن كثير جـ٤ ص ٤٢٦.

وفى نفس المعنى يقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾[4].

والآية الأخيرة فى نفس المعنى السابق للدحو ، والمد للأرض. فوضعها للأنام هو بمعنى «دحاها» وبمعنى «مددناها».

ويقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير وضع الأرض للأنام.

ونحن لطول استقرارنا على هذه الأرض. وألفتنا لأوضاعها وظواهرها ولوضعنا كذلك عليها. نحن لهذا كله لا نكاد نحس يد القدرة التى «وضعت» هذه الأرض للأنام. وجعلت استقرارنا عليها ممكنا ميسورا. إلى الحد الذى لانكاد نشعر به.

ولا نتنبه الى ضخامة معنى الاستقرار. وعظمة نعمة الله علينا فيه إلا بين الحين والحين حين يثور بركان أو يمور زلزال فيقلق هذه الأرض المطمئنة من تحتنا فتضطرب وتمور.

عندئذ نتذكر معنى الاستقرار الذى نستمتع به على هذه الأرض بفضل الله والبشر خليقون أن يتذكروا هذه الحقيقة فى كل لحظة لو أنهم ألقوا باللهم إلى أن أرضهم هذه التى يركنون إليها ان هى إلا هباءة سابحة فى فضاء الله الواسع. هباءة تسبح فى هذا الفضاء المطلق. تسبح حول نفسها بسرعة نحو ألف ميل فى الساعة.

---

(١) ق: ٧.

(٢) الحجر: ١٩.

(٣) الرعد: ٣.

(٤) الرحمن: ١٠.

وتسبح مع هذا حول الشمس بسرعة (٦٠) ألف ميل فى الساعة بينما هى والشمس. والمجموعة الشمسية كلها تبعد بجملتها فى هذا الفضاء بسرعة (٢٠) ألف ميل فى الساعة متجهة فى اتجاه واحد نحو برج الجبار فى السماء.

أجل لو أنهم ألقوا بالهم الى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة التى تنهب الفضاء نهبا بهذه السرعة معلقة فى أجوازه بغير شىء إلا قدره الله لظلوا أبدا معلقى القلوب والأبصار.

واجفى الأرواح والأوصال. لايركنون إلا للواحد القهار. الذى وضع الأرض للأنام، وأقرهم عليها هذا الإقرار[١].

هذا ومما ساعد على استقرار الأرض وثباتها .

« تثبيتها بالجبال» :

قال تعالى مشيرا إلى ذلك: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾[٦].

وغير ذلك من الآيات الدالة على تثبيت الأرض بالجبال كثير.

هذا والمد هو البسط والتسوية. ويقول القرطبى: معنى «والجبال أرساها» «يعنى أثبتها فيها أوتادا لها[٧].

---

(١) فى ظلال القرآن. جـ٦ صـ ٣٤٥٠

(٢) النحل: ١٥.

(٣) النبأ: ٧.

(٤) النازعات: ٣٢.

(٥) الانبياء: ٣١.

(٦) الرعد: ٣.

(٧) جـ ٨ صـ ٦٩٩٦

يقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أى جبالا أرسى الأرض بها. وقدرها وثقلها. لئلا تميد بالناس، أى تضطرب وتتحرك. فلا يحصل لهم قرا ر عليها . لأنها غامرة فى الماء إلا مقدار الربع. فانه باد للهواء والشمس» .

ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات. والحكم والدلالات. ولهذا قال: ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ أى لئلا تميد.

وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلاً﴾ أى ثغرا فى الجبال يسلكون فيها طرقا من قطر الى قطر. وإقليم إلى إقليم كما هو المشاهد فى الأرض.

يكون الجبل حائلا بين هذه البلاد وهذه البلاد .

فيجعل الله فيه فجوة «ثغرة» ليسلك الناس فيها من ها هنا الى هاهنا .

ولهذا قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾(١).

هذا وللجبال جذور فى أعماق القشرة الأرضية.

يقول العالم الجيولوجى «فيشر» إن البحث يدل على أن تحت القشرة الأرضية طبقة سائلة تحوى غازات مذابة. وأن الجبال لها جذور غير منصهرة ذاهبة فى منصهر سائل. . مادته أثقل من مادتها»(٢).

وتقوم الجبال بعمل توازن على سطح الكرة الأرضية.

«والتوازن كائن فى اختلاف الكثافة. فالجبال على ارتفاعها يقابلها فى الطرف الآ خر فى أعماق المحيطات طبقات شديدة الكثافة. وبالتالى لابد من بروز هذه الجبال، لتحفظ التوازن. مع الطبقات الصخرية الكثيفة.

فكان وجود الجبال لتثقيل المناطق الموجودة بها. لان كثافة الصخور فيها أقل من الصخور الموجودة فى أسافل البحار.

---

(١) ابن كثير جـ٣ صـ١٧٧

(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ٢٩٣، محمد احمد الغمراوى. مطبعة السعادة. .

فكان وجودها لاستمرارية التوازن والتعادل بين تلك المناطق»[1].

وقشرة الأرض ميزان دقيق وحساس فكل مكان فيها متزن مع الآخر والمعروف أن الميزان الدقيق تتزن فيه الكفتان تماما. ويظل هذا الاتزان قائما مادامت الأثقال التى على إحدى الكفتين تساوى التى على الكفة الأخرى.

فاذا تغير الثقل على إحدى الكفتين اضطربت هذه الكفة وتأثرت المقابلة لها حتما»[2]..

«ذلك أن الأرض فى دورانها المستمر حول نفسها لها محور ثابت ومعلوم أن الجسم المتماثل فى الكتلة لايضطرب إذا دار حول محور والأرض لا تضطرب ولاتميد فى دورانها فلابد طبقا لذلك أن أى مستوى يقطع الأرض مارا بمحور التماثل. فانه يقسم الجسم إلى قسمين متماثلين فى الكتلة.

لكل جزء فى أحد القسمين نظير فى القسم الآخر يساوية فى الكتلة والوزن لافى الهيئة والحجم[3].

وكأن الجبال أثقال على كفتى ميزان تحفظ التوازن الدقيق على هذه الأرض التى يتصل عيشهم بها. وعليها يتوقف صفاؤهم.

ولاشك ان ثقل الجبال وارتفاعها له اثره فى الجاذبية بشكل من الأشكال، فهى تحافظ على الغلاف الجوى، وتثبته كالأوتار.

لو نقصت الأرض بقدر كتلة جبالها فربما تكون غير قادرة على الاحتفاظ بالغلاف الجوى المحيط بها[4].

«هذا وللجبال الكثير من المنافع غير تثبيت الأرض»

«فهى أكنان للانسان. وحواجز للرياح. ومعاقد للثلوج فى أعاليها ومراشح

(١) كوكبنا النابض بالحياة.. صـ٦٠.
(٢) الله والكون ص ٣٣٣.
(٣) الإسلام فى عصر العلم صـ٣٠١.
(٤) الإسلام فى عصر العلم ص ٢٩٠.

للمياه فى أواسطها، ومخازن فى أنانها ومغاورها وكهوفها ومنافذ للينابيع والأنهار فى أسفالها.

والعلم يقول: لولا الجبال ما كانت الينابيع الدائمة والأنهار التى تسقى اراضينا طيلة أيام السنة. ثم تصب فى البحر لترد إليه العارية.

فلو كانت الأرض كلها مهادا منخفضة أو مبسوطة لسقط المطر والثلج عليها وتفرق فيها مبددا مشتتا. أو تجمع فى المطمئن من الأرض. لاسبيل له إلى أن يجرى ينابيع فيها وأنهاراً تصب فى البحر فيختل بهذا الركود سقى الأرض. بل ربما اختلت عملية المطر من أساسها لولا هذه الجبال [1].

---

(١) قصة الإيمان صـ ٣٣٨ .

حديث العلم عن ابداع الله عز وجل
«فى خلق الأرض المسخرة لنا»

«إن حجم الأرض وموقعها وحركتها فى غاية الدقة فى التصميم بحيث لو أختل أى شىء من ذلك عما هو عليه لتعذرت الحياة على سطح الأرض.

فأى اختلاف فى موقعها. أو سرعة او تباطئ فى حركتها. أو زيادة أو نقصان فى حجمها. يؤثر فى الحياة عليها تأثيرا خطيرا، ويهدد حياة الإنسان عليها.

فلو كان قطرها ربع القطر الحالى لعجزت عن احتفاظها بالغلافين الجوى والمائى ولأصبحت درجة الحرارة تؤدى إلى الموت.

ولو زاد هذا القطر إلى الضعف لزادت مساحة الأرض الباردة فيها كثيرا ولتضاعف الضغط الجوى. وتناقصت الأرض الصالحة للسكنى نقصا ذريعا وأصبحت غير قابلة لمعيشة الإنسان عليها»[(١)].

وموقع الأرض بالنسبة للشمس لو تضاعف لتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض ولو نقص عما هو عليه إلى النصف لصارت الحياة على ظهر الأرض جحيما لاتطاق من شدة الحرارة»[(٢)].

كما يقول العلم: لو كان حجم الأرض أكبر مما هو أو أصغر. أو كان ثقلها وكثافتها أقل أو أكثر لاختل أمر الحياة أو تغير أو تشوه. لأن حجمها متناسب مع سرعتها ومع دورتها. وثقلها متناسب مع قوة جذبها. فلو زاد الحجم أو نقص لتغيرت السرعة والمدة.

ولو قل جذبها لأفلت الأكسجين منها، ولولا الدورة اليومية لما كان لنا ليل ونهار دائبان ثابتان.

---

(١) الله يتجلى فى عصر العلم ص ٨. ترجمة الدمرداش عبدالمجيد سرحان
(٢) قصة الايمان ص ٣١٧

ولو زادت سرعة دورانها حول نفسها عن ألف ميل فى الساعة أو قلت كما هو الحال فى بقية السيارات. فكانت مثلا «١٠٠» ميل فى الساعة لأصبح طول النهار (١٢٠ ساعة) واحترقت زروعنا فى لهيب النار، وذوت فى زمهرير الليل. ولاختل ميزان العمل فى النار. والراحة والنوم فى الليل.

ولكن هذه السرعة ثابتة. لايطرأ عليها تبديل ولو فى ثانية واحدة.

ولولا الجاذبية التى تربطنا بالأرض لطرنا على ظهرنا وانتشرنا انتشارا نحن وبيوتنا.

ولولا التعادل العجيب بين الجاذبية التى تلصقنا بالأرض. وقوة الطرد المركزى التى تطردنا عن سطحها. لالتصقنا بالأرض وعجزنا عن الحركة[1].

وعن إبداع الله عز وجل فى خلق الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس وما يحيط بها من الغلاف الجوى يحدثنا الأستاذ عبدالحميد سماحه وكيل مرصد حلوان فيقول:ـ

«الأرض كرة عظيمة يبلغ طول قطرها (٧٩٢٠) ميلا. ومحيطها (٢٤٨٨٠) ميلاً إلا أنها ليست كاملة الاستدارة إذ ينقص قطرها الواصل بين قطبيها عن قطرها الأستوائى بمقدار ٢٨ ميلا وإلى ذلك يشير القرآن الكريم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وهى تدور حول نفسها مرة فى كل يوم وفى نفس الوقت تسبح فى الفضاء حول الشمس بسرعة كبيرة تقدر بثمانية عشر ميلا ونصف فى الثانية الواحدة فتتم دورة كاملة فى زمن مقداره سنة ومسارها حول الشمس دائرى يبلغ طول نصف قطره ٩٣ مليون ميل. ومع أننا لانشعر شعورا مباشرا بهاتين الحركتين» ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[2] إلا اننا نستطيع دائماً تحقيقهما وقياسهما بما ينشأ عنهما من حركات ظاهرية للأجسام النائية كالنجوم والشمس ومثلنا فى ذلك المسافر فى القطار لايكاد يحس حركته المكتسبة

(١) قصة الايمان ص ٣٢٠ بتصرف.
(١) النمل: ٨٨.

من وجوده فى القطار المتحرك إلا بملاحظة حركة الأشجار وأعمدة التلغراف والقرى تجرى أمام ناظرية متلاحقة بسرعة تساوى سرعة القطار. ولكنها فى الاتجاه المضاد لاتجاه سيره وتطبيقا على هذا المثال تجد انه بسبب دوان الأرض حول نفسها من الغرب إلى الشرق، تتحرك الأجرام السماوية كلها من الشرق الى الغرب فتشرق الشمس والنجوم من تحت الأفق وترتفع فى السماء رويدا حتى تبلغ أقصى ارتفاعاتها عندما تعبر الخط الذى تنصف فيه السماء من الشمال الى الجنوب. ثم تنحدر غربا إلى أن تغيب تحت الأفق وتختفى إلى أن تعود إلى الظهور من الشرق فى اليوم التالى وينشأ عن هذه الحركة أهم الظواهر الفلكية فى حياة البشر وكل كائن حى على ظهر الأرض وهى ظاهرة الليل والنهار ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴿١٢﴾﴾[1].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾[2].

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾[3].

وتستغرق الأرض فى دورتها حول نفسها زمن ثابت الطول يساوى مجموع طول الليل والنهار فى أى وقت. ومع أن طول كل منهما على حدة يتغير على مدار السنة إلا أن مجموع طوليهما. وهو ما نسميه باليوم ثابت . وقد وجد أن هناك تغيرات فى طول اليوم بالزيادة أو بالنقص إلا أن مجموع الزيادة أو النقص غير المنتظمين فى أطوال الأيام أثناء سنة واحدة لايتعدى ثانية أو بعبارة أخرى جزء

(١) الأسراء: ١٢.
(٢) القصص: ٧١.
(٣) القصص: ٧٢، ٧٣.

من ثلاثة آلاف من الثا نية فى اليوم الواحد، هو مقدار طفيف جدا لايمكن تحقيقه بأدق الساعات المعروفة.

ومن هنا اعتبرت سرعة الأرض حول نفسها ثابتة ثبوتا تاما واتخذت هذه الحركة الساعة الطبيعية العظمى التى لايعادلها شىء آخر فى دقتها.

واستخدمت لمعايرة الساعات بكافة أنواعها فى المراصد لمعرفة الأخطار التى تتعرض لها بسبب تغير درجة الحرارة والضغط الجوى أو غير ذلك. ومن الناحية الآخرى نجد أن لحركة الأرض اليومية هذه نتائج أخرى لها أهميتها فهى العامل الرئيسى فى تكوين الحركات الدائرية فى الهواء والمحيطات.

ويحيط بالأرض غلاف رقيق من الهواء يبلغ سمكه حوالى ١٢٠ ميلا وتقل كثافته تدريجيا مع الارتفاع. فالهواء القريب من سطح الأرض يتكون من غاز الأزوت ٧٨٪ والأوكسجين ٢١٪ وغازات الأرجون وثانى أكسيد الكربون والأيدروجين والهليوم وغيرها بنسبة ١٪ وتبقى هذه النسب ثابتة بفعل التيارات الرئيسية وما تستهلكه الحياة الحيوانية من الأكسجين فى عملية التمثيل الضوئى. أما فى الطبقات العليا. فيتكون الهواء من الغازات الأخف وزنا كالأيدروجين والهليوم ويوجد على ارتفاع ٢٠ ميلا طبقة من غاز الأزوت تمتص الأشعة ذات الموجه القصيرة فى المنطقة التى فوق البنفسجية من أشعة الشمس ولو كانت كثافة الهواء فى جميع الطبقات تساوى كثافته عند سطح الأرض لبلغ سمك الغلاف الهوائى كله خمسة أميال.

وتقل درجة الحرارة كلما ارتفعنا عن مستوى سطح البحر. لأن الأرض تشع الحرارة التى تمتصها من الشمس. فيسخن الهواء الملامس لسطح الأرض ويتمدد فيخف وزنه ويندفع فى الطبقات العليا وتهبط درجة حرارته. وثلاثة أرباع الوزن الكلى للهواء تقع فى الطبقة القريبة من سطح الأرض والتى لايتجاوز سمكها سبعة أميال وتتكون السحب عادة على ارتفاعات أقصاها ستة أميلا.

ويحتوى الهواء عدا العناصر سالفة الذكر على بخار الماء الذى تختلف كميته باختلاف درجة الحرارة. وهو عامل مهم من عوامل تغير الطقس ومما يلاحظ أن

كثافة بخار الماء أقل من كثافة الهواء الذى يبلغ وزن المتر المربع منه ١٫٢٨ كيلو جرام عند درجة حر ارة الصفر المئوى وضغط يعادل وزن ٧٥٠ مم من الزئبق ويلعب بخار الماء دورا مهما فى حفظ التوازن بين ما تمتصه الأرض من حرارة أشعة الشمس وما تفقده بالتشعع من سطحها نحو الفضاء، فيساهم فى هذه العملية ويرد أشعة الشمس نحو الفضاء عندما يشتد الضغط نهارا كما يرد إلى الأرض ما تشعه من الحرارة عند الليل ولهذا نجد أن وجود السحب نهارا يخفف من حدة الحرارة فى الصيف ووجودها ليلاً أثناء الشتاء يخفف من حدة البرد والهواء لا لون له وهو مرشح عظيم لمركبات الضوء التى تقع على أعينا وإلى هذه الخاصية تعزى ظاهرة الشفق بدرجاته المخلتفة وفتنته ولو أننا صعدنا فى السماء إلى مافوق الغلاف الهوائى لرأينا الشمس كرة ساطعة الضوء فيها زرقة تشرق وتغيب فى سماء حالكة الظلام[1].

(١) كتاب فى أعماق الفضاء. للأستاذ عبدالحميد سماحة وكيل مرصد حلوان ص١٤- ١٨.

هذا ومن نعم الله على عباده التى تتصل بخلق الأرض تسخيره تعالى جميع مافى باطن الأرض لنا

قال تعالى مشيرا إلى هذه النعمة:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾[٣].

تفيدنا هذه الآيات وأمثالها أن باطن الأرض توجد به أشياء مخبوءة مسخرة لنا، يخرجها المولى بإذنه . وأن هنالك فى باطن الأرض خيرات عميمة النفع مسخرة للإنسان ، وأن على المسلم ان يوجه نظره اليها. وأن يكون سباقا إليها للانتفاع بها والشكر عليها.

والمخبوء من هذه المعادن يظهر العلم كل يوم منه جديدا. وأكثر المعادن أثرا فى عصرنا الحاضر هو عنصر اليورانيوم المشع الذى يتحول إلى رصاص بمعدل ثابت لايتغير ويلاحظ أن الرصاص الناشئ عن اليورانيوم يختلف عن الرصاص الأصلى .

فهو أقل منه وزنا. كما يختلف عنه فى خواصه[٤].

«والعناصر المشعة الموجودة فى صخور القشرة الأرضية تنجم عنها حرارة باطنة

---

(١) الحج: ٦٤ ـ ٦٥.

(٢) سبأ: ٢.

(٣) الحديد: ٤.

(٤) الإسلام يتحدى صـ ٧٠ وحيد الدين خان. المختار الاسلامى. القاهرة .

تقدر بأربعة أضعاف مستوى احتياجات العالم من الطاقة بكل أشكالها حسب احصائيات سنة ١٩٧٠[(١)].

ولاننسى البترول وأثره فى عالم اليوم ورقى الأمم. وذلك أمر لا يحتاج لحديث طويل فهو حديث اليوم بحيث يعرفه الخاص والعام.

ولاننسى المعادن المختلفة التى نحصل عليها من باطن الأرض من ذهب وفضة وحديد ونحاس ورصاص وغير ذلك مما لايتسع المقام لسرده، وذكر منافعه .

«هذا وللعلم الحديث حديث طويل عن باطن الأرض واستخداماته» .

فباطن الأرض ليست لدينا الأدلة المباشرة على ماهيته. والمناجم التى حصرت لاتعدو أن تكون خدودا صغيرة فى القشرة الأرضية.

وقد ثبت لدينا أن درجة الحرارة تزيد إلى الداخل بمعدل درجة مئوية لكل مائة متر تقريبا. ولاشك أن باطن الأرض ساخن كما تدل على ذلك البراكين، والينابيع الساخنة.

وتسجيل الزلازل والهزات الرضية التى تقع بين آن وآخر فى كثير من مراصد العالم يكفل لنا الوسيلة للتوسع فى دراسة باطن الأرض ومعرفة ماهيته.

وقد دلت الدراسات الطويلة للتسجيلات العديدة للزلازل.

على أن باطن الأرض يتكون من كرة ملتهبة مركزية، يبلغ طول قطرها أربعة آلاف ميل تقريبا. وكثافتها تعادل الحديد، وأغلب الظن أنها تتكون من المعادن الثقيلة كالحديد والنيكل.

ويعلو هذه الكرة طبقة من الصخور الثقيلة تبلغ كثافتها أربعة أمثال كثافة الماء ويعلو هذه الأخيرة طبقة من الصخور الأقل كثافة أهمها الجرانيت[(٢)].

---

(١) العلم ومشكلات الإنسان المعاصر ص ٢٤٩ .

(٢) فى أعماق الفضاء، للأستاذ عبدالحميد سماحه وكيل مرصد حلوان ص١٨ .

ومن نعم الله على عباده التى تتصل بخلق الأرض خلقه فيها قوة الجذب لما عليها ومايحيط بها

ولولا قوة الجذب هذه لتشتت جزئيات الغلاف الهوائى المحيط بالأرض فى الفضاء ولاستحالت الحياة على سطحها، ولكن الله العليم القدير. خلق هذه الجاذبية فى الأرض رحمة بما عليها ومن عليها، ولتتعادل مع قوة الطرد المركزى، فتثبت الأشياء على سطح الأرض. وكذلك يستطيع الإنسان الحياة على سطح الأرض فى يسر.

وهذا حديث العلم عن قوة الجاذبية.

والتى يعبر عنها بقانون الجاذبية العام:

«كلنا نعرف أن الأجسام القريبة من الأرض تنجذب إليها بما نسميه قوة الجاذبية فإذا حاولنا أن نقذف كرة رأسيا الى أعلى لاتلبث إلا قليلا حتى تعود إلى الأرض بفعل الجاذبية ويتحرك القمر حول الأرض بسرعة تقدر بحوالى ألفين وثلاثمائة ميل فى الساعة وينحنى مساره باستمرار نحو الأرض، ولكن دون أن يسقط على الأرض، ولولا هذا الأنحناء المستمر نحو الأرض لبعد القمر فى الفضاء. ولانتهى به سفر سنة واحدة الى مكان سحيق فى الفضاء يبعد عن الأرض بنحو عشرين مليون ميل. بدلا من بعده عن الأرض الثابت تقريبا وقدره (٢٤٠) ألف ميل.

ولقد عزا اسحق نيوتن هذا الانحناء المستمر فى مسار القمر نحو الأرض إلى التجاذب المتبادل بينهما.

ذلك التجاذب الذى هو شبيه فى نوعه بسقوط الأجسام نحو الأرض فى الأمثلة السابقة.

وقاده التفكير السليم الى أن هذا التجاذب من خاصية الأجسام كلها: مهما كان تركيبها الكيمائى أو الطبيعى.

وأنه موجود بالفعل بين جميع الأجسام.

ولو أننا فكرنا قليلا فى سر بقائنا على الأرض فى أى نقطة فيها، وفى أولئك الذين يعيشون عند القطبين، والذين عندما نتذكر أن الأرض كروية الشكل ، نشفق لأول وهلة ان يسقطوا منها فى محيط الفضاء الأعظم لولا ما أودعه الله فيهم وفى الأرض من قوة الجاذبية التى تحول فى كل وقت دون أن يفلتوا من قبضتها.

ولولا هذه القوة لتشتتت جزئيات الغلاف الهوائى المحيط بالأرض فى الفضاء و لاستحالت الحياة على سطحها . فقد تبلغ سرعة جزئيات الهواء مئات الأمتار فى الثانية غير أن قبضة جاذبية الأرض أقوى من أن تتيح لها الانتشار فى الفضاء.

ويقدر الرياضيون أن أى جسم يستطيع أن يتخلص من قوة الجاذبية على سطح الأرض إذا انطلق بسرعة لاتقل عن سبعة أميال فى الثانية.

ولقد وجد نيوتن أن قوة الجاذبية لجسم ما تزداد اطرادا بازدياد كتلته.

ولما كانت الأرض من الضخامة بحيث يحقر بجانبها كل شىء آخر مما نلقاه فى حياتنا العادية لم ندرك أثر الجاذبية فيما عداها من الأجسام.

وحسبنا دائما أن قوة الجاذبية من خصائص الأرض وحدها دون غيرها.

ومع ذلك فقد أمكن عمل التجارب لإثبات أن الجاذبية من خواص الأجسام كلها صغيرها وكبيرها، مهما كان تركيبها الكيمائى أو الطبيعى.

ولو أننا لا نكاد نلمس أثرها للأجسام الصغيرة لضآلة مقدارها.

والتجاذب المتبادل بيننا وبين الأرض يختلف باختلاف كمية الكتلة وهو مايعبر عنه بالوزن.

ولهذا السبب عينه نجد أنه لما كانت الأرض غير كاملة التكور وأن قطرها الواصل بين قطبيها أصغر من قطرها عند خط الاستواء. فقوة التجاذب بينْ جسم معين والأرض. وهو ما نسمية بالوزن يكون أكبر عند أحد القطبين منه عند أى نقطة من محيط خط الاستواء.

ولقد أمكن عن طريق قانون الجاذبية معرفة وزن الأرض.

ويقدر بحوالى ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٦ طن

ومن معرفتنا لحركة جسمين متجاذبين كالقمر والأرض. أو الأرض والشمس يمكن تحقيق قوة الجاذب العظيم بينهما. و التى تترتب عليها هذه الحركة الدائبة.

ومن معرفة وزن الأرض يمكن معرفة وزن الشمس

والتقديرات الحديثة تثبت أن وزن الشمس يعادل أكثر من ثلاثمائة ألف مرة وزن الأرض ومن أجل ذلك كانت قوة جذبها عظيمة، حتى على أبعد السيارات والمذنبات. التى تدور حولها فى مدارات دائرية.

فهذا الدوران للسيارات كلها والمذنبات هو من نتيجة التجاذب المتبادل بينها وبين الشمس. كما أن سقوط الأجسام الى الأرض دليل التجاذب بينها وبين الأرض.

ولولا هذه القبضة القوية للشمس على السيارات والمذنبات لانطلقت هذه فى الفضاء دون عودة[1].

ويشير قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

إلى قانون الجاذبية هذا. فكل يدور فى فلكه لايخطئه ولا يتعداه بفضل قانون الجاذبية هذا والله واعلم.

---

(١) فى أعماق الفضاء ص ٣٤ للأستاذ عبدالحميد سماحه وكيل مرصد حلوان .

ومن جلائل النعم تسخير البحار والأنهار

وقد صرح القرآن الكريم بأن الماء أصل كل حى. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وروى الإمام أحمد بسنده فى مسنده عن أبى هريرة قال: قلت: «يارسول الله إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عينى. فأنبئنى عن كل شىء. قال ﷺ: «كل شىء خلق من ماء» قال: فأخبرنى عن أمر إذا عملت به دخلت الجنة. قال: أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم الليل والناس نيام. ثم ادخل الجنة بسلام»(٢)، وهكذا يصرح القرآن والسنة النبوية بأن كل شىء خلق من ماء .

ولقد امتن القرآن الكريم علينا بخلق نعمة الماء. فمنه نشرب. .قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾(٣) وبه أخرج الله لنا من الثمرات رزقا.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا﴾(٤) وبه يحى الأرض الميته.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾(٥).

ويحدثنا تعالى عن نعمة الماء ويمتن علينا به فى كثير من آ يات القرآن الكريم. ويبث الحديث عنه بين آيات الكتاب الكريم.

وبحسبى هنا أن أذكر طرفا من تلك الآيات دون ذكر جميعها.

---

(١) الأنبياء: ٣٠ .

(٢) المسند ٢ / ٣٢٣ وصححه السيوطى الجا مع الصغير جـ١ص٨٠

(٣) الواقعة: ٦٩.

(٤) ابراهيم: ٣٢

(٥) فاطر: ٩.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (١٦)﴾[4].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾[5].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾[6].

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (٢٧)﴾[7].

هذا قليل من كثير من حديث القرآن الكريم عن الماء، وأمتنان الله عز وجل علينا به وطلب الشكر عليه.

والماء منه العذب وهو مايكون فى الأنهار والعيون. ومنه المالح وهو مايكون فى البحار وبينهما اتصال وثيق فكل مياه الأنهار والعيون وكل ماء عذب أصله من مياه البحار .

فقد شاء المولى عز وجل أن يجعل الماء المالح أصلا للماء العذب ومصدرا له وشاء عز وجل أن يحفظ الماء بالملح، باعتبار الملح مادة حافظة وقد ذكر الألوسى «فى حكمة جعل البحر الكبير مالحا أن لا ينتن بطول المكث، وتقادم الدهور، وفيه حكم أخرى الله أعلم بها».

---

(١) الأنعام: ٩٩.
(٢) الأعراف: ٥٧.
(٣) ق: ٩.
(٤) النبأ: ١٤ : ١٦.
(٥) فاطر: ٢٧.
(٦) الزمر: ٢١.
(٧) السجدة: ٢٧.

«وعملية المطر التى نراها عادية بسيطة. ونمر معرضين عما فيها من نظام عجيب وإحكام غريب. هذه القطارة السماوية التى خلقها الله ورتبها. وجعلها بفضل ذلك التنظيم وبسر نواميس الحرارة والتبخر والتكاثف والتميع تسير سيرا دوريا مطردا.

فى حلقة من التحول المتواصل المتجدد. الذى يسقى به بعضه بعضا. ويستعير بعضه من بعض. ويعود كرته فى كل عام. فيرد العارية ويؤدى الأمانة بلا تأخير فى مدة. ولاتخلف عن وعده. ولانقص فى قطرة،. ولا زيادة فى ذرة[1]. هذه العملية تقوم بتحويل مياه البحار الملحة إلى مياه عذبة تغذى بها الأنهار والعيون فالماء النازل من السماء إنما ينزل بقدر ويأتى علماء العصر الحديث ليقولوا: إن الماء النازل من السماء كل عام إنما هو بقدر. أى أن مجموع ماينزل من السماء من مياه كل عام بطريق المطر انما هو ثابت تقريبا. ولكن يختلف توزيعه من منطقة إلى أخرى[2].

هذا والمياه العذبة توجد فى الأنهار والعيون والآبار: والكل يستمد من ماء المطر الذى أصله مياه البحار .

وقد أمتن علينا بنعمة الماء العذب فقال عز من قائل:

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا ﴾[6].

---

(١) قصة الايمان ص ٣٣٤.
(٢) العلم فى دنيانا ص ٣٥.
(٣) ابراهيم: ٣٢. .
(٤) الرعد: ٣.
(٥) النحل: ١٥.
(٦) النمل: ٦١.

وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[1].

وإذا كانت الآيات السابقة تذكرنا بنعمة الله علينا بمياه الأنهار.

فقد أمتن تعالى علينا كذلك بمياه العيون. والكل يستمد من المطر.

قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧)﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤)﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦)﴾[5].

ورغم الصلة الوثيقة بين البحار والعيون والأنهار فلا يبغى بعضهما على بعض.

قال تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠)﴾[6].

والبحران المشار إليهما هما البحر المالح والبحر العذب ويشمل الأول البحار والمحيطات ويشمل الثانى الأنهار.

ومرج البحرين أرسلهما وتركهما يلتقيان. ولكنهما لايبغيان. ولايتجاوز كل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة. وبينهما برزخ من طبيعتهما من صنع الله.

وتقسيم الماء على هذا النحو فى الكرة الأرضية لم يجئ مصادفة ولاجزافا. فهو مقدر تقديرا عجيبا. الماء المالح يغمر نحو ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية. ويتصل بعضه ببعض. ويشغل اليابس الربع. هذا القدر الواسع من الماء المالح هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض. وحفظه دائما صالحا للحياة.

---

(١) نوح: ١٢.

(٢) الشعراء: ٥٧.

(٣) الشعراء: ١٣٤.

(٤) يس: ٣٤ .

(٥) الدخان: ٢٥.

(٦) الرحمن: ١٩ ـ ٢٠.

وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور ومعظمها سام. فإن الهواء باقى دون تلوث فى الواقع. ودون تغيير فى نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان وعجلة الموازنة العظيمة هى تلك الكتلة العظيمة من الماء - أى - المحيطات[1].

ومن هذه الكتلة الضخمة الواسعة تنبعث الأبخرة تحت حرارة الشمس وهى التى تعود فتسقط أمطارا. يتكون منها الماء العذب فى جميع أشكاله، وأعظمها الأنهار. والتوافق بين سعة المحيط وحرارة الشمس وبرودة طبقات الجو العليا والعوامل الفلكية الأخرى. هو الذى ينشأ عنه المطر الذى تتكون منه كتلة الماء العذب وعلى هذا الماء العذب تقوم الحياة من نبات وحيوان وإنسان.

وتصب جميع الأنهار تقريبا فى البحار وهى التى تنقل إليها أملاح الأرض فلا تغير طبيعة البحار ولاتبغى عليها.

ومستوى سطوح الأنهار أعلى فى العادة من مستوى سطح البحر.

ومن ثم لايبغى البحر على الأنهار التى تصب فيه. ولايغمر مجاريها بمائه الملح. فيحولها عن وظيفتها . ويبغى على طبيعتها. وبينهما دائما هذا البرزخ من صنع الله فلا يبغيان.

فلا عجب بذكر البحرين، وما بينهما من برزخ فى مجال الآلاء فبأى آلاء ربكما تكذبان؟[2].

«وليس المقصود من هذه الآية أن ماء النهر عندما يلتقى بماء البحر لايختلط أحدهما بالآخر، ولكن لا يطغى بعضها على بعض»[3].

وهناك رأى جديد فى فهم قوله تعالى: ﴿ **مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ (٢٠)** ﴾.

---

(٢) عن كتاب الإنسان لايقف وحده. تأليف: رئيس أكاديمية العلوم بنيويرك. ترجمة محمد صالح الفلكى، بعنوان« العلم يدعو إلى الايمان».

(٢) فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٤٥٢، ص ٣٤٥٣.

(٣) الله والكون. ص ٤٦٤ جمال الدين الفندى. الهيئة المصرية العامة للتأليف..

وخلاصة هذا الرأى أن مياه كل بحر تغاير مياه البحار الآخرى فى صفاتها الكيماوية مما يمنع اختلاط المياه والكائنات بعضها ببعض.

«فعندما احتل نابليون مصر وفكر فى شق قناة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض اعترض على ذلك. لأن ماء البحر الأحمر أعلى من مياه البحر الأبيض. وبالتالى فانه سيفيض ويغرق الدلتا كلها[1].

فلم يدركوا الأسرار التى يحويها قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَاَّ يَبْغِيَانِ﴾ إلا فى وقت متأخر حيث تم حفر القناة. ولم يحدث ماتوقعوا من فيضان لأن مياه البحار لايبغى أحدهما على الآخر، وان اتصلت.

فمياه البحر الأحمر والمحيط الهندى تلتقيان. ولكن مياه هذا لاتختلط بمياه ذلك والكائنات فى هذا البحر تغاير الكائنات فى ذاك البحر.

وإذا حدث وكان هناك مد أو ريح عاصفة فإن قليلا من مياه أحد البحرين يطفو على مياه الآخر. وعندما تنتقل هذه المياه فإنها تنتقل بكائناتها معا. وعندما يزول سبب انتقالها تعود المياه من جديد حاملة أحيائها معها، ولقد وجد أن مياه كل بحر تغاير مياه البحار الآخرى فى صفاتها الكيماوية مما يمنع اختلاط المياه والكائنات بعضها ببعض.

فلكل بحر درجة حموضة خاصة به. وكائنات خاصة كذلك وإن التقيا فانهما لايختلطان ولايبغى أحدهما على الآخر[2].

هذا ولايناقض هذا الرأى ماقبله بل هو إضافة جديدة.

فى فهم قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

فالأول فسر البحرين بالمالح والعذب وعدم بغى أحدهما على الآخر بسبب اختلاف سطح كل منهما.

(١) القرآن والعلم . أحمد محمود سليمان ص ٤٠ . .

(٢) القرآن والعلم- أحمد محمود سليمان ص ٤٠ وما بعدها.

والثانى فسر البحرين بالبحار المالحة وعدم بغى أحدهما على الآخر بسبب اختلاف مياه البحار فى صفاتها الكيماوية.

مما يمنع اختلاط المياه والكائنات بها بعضها ببعض.

وسبحان الخلاق العليم.

وهكذا تتعدد نعم الله علينا فى خلق المياه الملحة والعذبة. وعدم اختلاط بعضها ببعض. مع كمال اتصال بعضها ببعض. فى المجرى.

ومع كون مياه البحار أصل لمياه الأنهار. ومع عود مياه الأنهار إلى مياه البحار.

هذا ومن النعم التى أمتن الله عز وجل علينا بها. وتتصل بالماء العذب «اختزانه فى باطن الأرض».

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾(١).

قال ابن كثير: أصل الماء فى الأرض من السماء. كما قال عز وجل «وأنزلنا من السماء ماء طهورا» فإذا نزل الماء من السماء كمن فى الأرض. ثم يصرفه تعالى فى أجزاء الأرض. كما يشاء. وينبعه عيونا مابين صغار وكبار بحسب الحاجة إليها. ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

روى ابن أبى حاتم بسندة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ليس فى الأرض ماء إلا نزل من السماء»(٢).

هذا وقد أختزن المولى عز وجل الكثير من ماء الأمطار الذى يزيد عن حاجة الناس فى باطن الأرض. لاستخدامه عند الحاجة إليه.

«فما ينزل من ماء السماء. «مياه الأمطار» يخزن الكثير منه فى باطن الأرض ويظهر بعضه على شكل ينابيع، وما استفيد منه وظهر انما هو قدر بسيط بالنسبة لما استقر فى الأرض.

---

(١) الزمر: ٢١.

(٢) جـ٤ ص ٥٠.

ويأتى العلم ليؤكد هذه الحقيقة . ويقول: إن حوالى ٩٧٪ من مخزون العالم الإجمالى من الماء العذب موجود فى باطن الأرض ولاتدخل فى هذا الحساب المناطق القطبية.

ويعتقد أن نصف المياه الجوفية تقريبا يقع على عمق نصف ميل من السطح على وجه التقريب. ويمكن الحصول عليها بسهولة[١].

هذا ويقول الزمخشرى: «إن كل ماء فى الأرض فهو من السماء نزل. ثم يقسمه الله عيونا ومسالك ومجارى كالعروق فى الأجساد»[٢].

ويقول سعيد بن جبير وعامر والشعبى: إن كل ماء فى الأرض أصله من السماء»[٣].

---

(١) العلم فى دنيانا ص ٨٥. دار النهضة العربية بالقاهرة.

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٣٩٤.

(٣) ابن كثير جـ٤ص ٥٠.

٢ ـ من خواص الماء تلطيف الجو وتلك نعمة جليلة

إن للماء خواص فريدة يختلف فيها عن غيره من السوائل فعندما يتبخر ماء البحر فإن كل جرام أثناء تحوله من السيوله الى الغازية يحمل ٥٤٠ سعراً وهى كمية كبيرة ليس لها مثيل فى سائل من السوائل وهذا يعمل على تلطيف درجة الحرارة بامتصاص هذه الكمية الكبيرة من السعرات.

واذا ما تكاثف السحاب فى أيام البرد فإن كل جرام ماء يشع ٥٤٠ سعر فيعتدل الجو فى الشتاء وتصبح البروده فى تحمل الكائن الحى.

كما أن حرارة انصهار الماء مرتفعة أيضا فيلزمنا ٨٠ وحدة حرارية لكل جرام ماء لتحول الثلج إلى ماء فى نفس الدرجة.

وعندما ينصهر الثلج فإنه يمتص كمية كبيرة من الحرارة وبالتالى فعندما تقترب الشمس من الأرض وتزداد درجة الحرارة فإن هذا التأثير المميت يزول بمجرد ذوبان كمية بسيطة من المقدارين المتحدين لأن ذوبان كل جرام جليد يرافقه امتصاص ٨٠ وحدة حرارية[١].

ويعتبر الماء صاحب أعلى حرارة نوعية موجودة فى السوائل والجو أيضا ولو لم يكن الماء بهذه الصفة لكان الارتفاع أو الأنخفاض فى درجة الحرارة يمكن أن يقضى على الحياة على الأرض. لأن البحر يعمل لتلطيف جو الأرض فهو يبتلع كميات كبيرة من الحرارة ولا ترتفع درجة حرارته إلا مقدارا صغيرا. وعند البرودة فإنه يعطى كميات كبيرة من الحرارة دون أن تنخفض درجة حرارته كثيراً وإذا زادت الحرارة نهارا فإنه يختزنها وإذا قلت ليلا فإنه يقدمها.

أما ماء البحر الأجاج فيختلف فى درجة تجمده عن الماء العذب ويعتبر الماء صاحب أعلى حرارة نوعية موجودة فى السوائل. و الجوامد أيضا. ولو لم يكن

---

(١) المنطلق ص ٢٠، معجزة الماء عدد ٢ ربيع ثانى سنة ٣٩٨، الأستاذ لبيب بيضون ص ١٨- ٢٦.

كذلك لقضى على الحياة على الأرض. لأن البحر يعمل لتلطيف جو الأرض فهو يبتلع كميات كبيرة من الحرارة ولا ترتفع درجة حرارته إلا مقدارا صغيرا. وعند البرودة فإنه يعطى كميات كبيرة من الحرارة دون أن تنخفض درجة حرارته كثيرا اذا زادت الحرارة نهارا فإنه يختزنها وإذا قلت ليلا فإنه يقدمها أما ماء البحر الأجاج فيختلف فى درجة تجمده عن الماء العذب فماء البحر يتجمد على درجة أقل من الصفر لوجود الملح فيه فيؤدى ذلك إلى بقاء البحر سائلا حتى درجة ١٠مْ تحت الصفر تقريبا مما يسمح بسير السفن فيه بينما نجد مياه الأنهار والبحيرات قد تجمدت فوق هذه الدرجة والماء يخالف جميع أنواع السوائل فى كثافته فهو فى حالة الصلابة أخف منه فى حالة السيولة ولذلك من المعلوم أنه إذا وضع الثلج فى الماء فإنه يبقى ظاهرا على السطح ولا يغوص فى قعر الاناء[(١)].

---

(١) رسالة ماجستير محمد فريد. موضوعها ٠ إثارة الأرض وعمارتها) ص١٠٢

٣ ـ الماء عنصر رئيسى فى تركيب النبات والحيوات

فالماء يدخل فى تركيب النبات والحيوان بنسب كبيرة ففى بعض النباتات تصل نسبة تركيبه الى ٩٩٪ وفى الحيوان والإنسان قد تزيد عن ٧٪ والمخ يشكل ٨٠٪ من وزنه ماء[١].

والماء يعتبر موصلا لعناصر الغذاء فى خلايا الجسم ويحمل الافرازات الضارة خارج الجسم فهو الذى يعمل على حل غاز الفحم السام ونقله الى الرئتين ثم الى الخارج كما يعمل على تلطيف درجة حرارة الجسم وإذابة المواد الغذائية بعد هضمها حتى يتمكن الجسم من امتصاصها.

ويعتبر الماء أساس تكوين الدم والسائل اللمفاوى والسائل النخاعى وبينما يستطيع الإنسان أن يعيش أكثر من شهر بدون طعام فإنه لا يمكن أن يعيش بدون ماء أكثر من بضعه أيام[٢].

(ونستطيع أن ندرك مدى أهمية الماء للإنسان والحيوان والنبات إذا وضعنا جدولا بسيطا بينا فيه مقدار حاجة كل منها الى الماء على وجه التقريب فالإنسان يستهلك ٩٠٠ لتر ماء تقريبا فى السنة الواحدة)[٣].

ولإنتاج طن من القمح يلزمنا ١٥٠٠ طن ماء كما يلزم عشرة ؟ آلاف طن من الماء لانتاج طن واحد من الأرز.

ولانتاج بيضه فانه يلزمنا ١٤٠ غالون من الماء كما نحتاج لانتاج كيلو جرام من اللحم الى اكثر من ٧ آلاف غالون من الماء[٤].

ويعتبر الماء مذيبا جيدا للأكسجين ولذا فان الهواء المذاب فى الماء يحتوى على نسبة من الأكسجين أكثر منه فى الجو كما أنه يذيب غاز الفحم السام فيعمل على تنقية الهواء منه[٥].

---

(١) القرآن وإعجازه العلمى ص ٩٥. د ار الفكر العربى

(٢) نفس المرجع السابق

(٣) ثروات من البحار ص ٢٩٣.

(٤) المرجع السابق ص ٣٠.

(٥) العلم ومشكلات الانسان المعاصر ص ٧٩ زهير البكرى.

٤- تسخير البحار والأنهار لحمل السفن

من النعم الجليلة التى أنعم الله بها علينا، نعمة تسخير البحار والأنهار لحمل السفن.

ولقد أمتن المولى عز وجل على عباده بهذه النعمة فى كثير من آيات القرآن الكريم وطالبهم بشكرها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾[٤].

وغير ذلك كثير من الآيات القرآنية التى امتن فيها المولى عز وجل على عباده بنعمة تسخير البحار والأنهار لحمل السفن.

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسيره لقوله تعالى: «والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس» «أشهد ما أحسست مافى هذه اللفتة من عمق قدرة ماأحسست. ونقطة صغيرة فى خضم المحيط تحملنا وتجرى بنا. والموج المتلاطم والزرقة المطلقة من حولنا. والفلك سابحة متناثرة هنا وهناك، لاشىء إلا قدرة الله. وإلا رعاية الله. وإلا قانون الكون الذى جعله الله يحمل تلك النقطة الصغيرة على ثبج الأمواج وخضمها الرهيب[٥].

---

(١) الجاثية: ١٢..

(٢) يس: ٤١، ٤٢.

(٣) لقمان: ٣١..

(٤) البقرة: ١٦٤..

(٥) فى ظلال القرآن جـ١ ص ١٥٢.

ويقول ابن كثير فى تفسيرها: «أى فى تسخير البحر فى حمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس. والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم فى هذا الاقليم. ونقل ماعند هؤلاء إلى أولئك. وماعند أولئك إلى هؤلاء»[1].

ومن نعم الله عز وجل أن جعل الماء الذى يحمل السفن يغمر ثلاثة أرباع الكرة الأرضية. وجعله مفرقا بين القارات. ليتيسر حمل السفن إلى جميع أنحاء الأرض. فلو جعل الماء فى ناحية منعزلا غير مفرق بين القارات لما كان له نفس الأثر فى حمل السفن. ونفع الناس ونحن نعلم مدى ماتعانيه الدول التى ليس لها منافذ على البحار.

---

(١) جـ١ ص ٢٠١.

٥ - «ومن النعم التى لها صلة بالبحار والأنهار تسخير ما فى البحار والأنهار من لحم طرى»

يقول تعالى مشيرا إلى هذه النعمة. وممتنا على عباده بها حثا لهم على شكرهم: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[١] ويقول تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾[٣].

«والتعبير عن السمك باللحم الطرى إشارة إلى قلة عظامه بالنسبة لما يصطاد من الأنعام وقيل للتلويح بانحصار الانتفاع به فى الأكل واللحم الطرى يخرج من البحر العذب والمالح»[٤].

وفى وصف اللحم بالطراوة ايذان بكمال قدرته تعالى فى خلقه فالعذب الطرى فى ماء مالح لا يشرب»[٥].

وخيرات اللحم الطرى وحدها لو استغلت استغلال جيداً لسدت حاجة البشرية بأكملها إذ يكفى أن نعلم أن هناك عشرين الف نوع من الأسماك[٦] وتضع الانثى الواحدة من بعض الأسماك مايقرب من ٣:٥ ملايين بيضة فى المرة الواحدة»[٧].

ولقد بدأ الإنسان باستخدام أحواض فقس وحضانة فى المراحل الأولى للتغلب على تقلبات الجو والعوامل الأخرى فى البيئة[٨].

---

(١) النحل: ١٤.
(٢) المائدة: ٩٦.
(٣) فاطر: ١٢.
(٤) روح المعانى جـ١٣ ص ١١١.
(٥) المرجع السابق جـ١٤ ص١١٢.
(٦) ثروات من البحار ص ١٠٨.
(٧) المرجع السابق ص ١٣٥.
(٨) ثروات من البحار ص ١٤٠.

وعلى الرغم من وسائل الإنسان المختلفة فى استغلال هذه الثروات الغذائية إلا أن الاحصائيات العلمية تدل على أن الغذاء المستخرج من البحر عالميا فى أوائل السبعينات من هذا القرن لم يزد عن ١٪ من مجموع الغذاء المنتج عالميا(١).

بالإضافة إلى الثروة السمكية الهائلة هناك أعشاب البحر الغنية بالبروتين إذ تحتوى على ٥٠٪ من وزنها بروتين بينما نجد هذه النسبة فى اللحم ٢١٪ وتحوى معظم العناصر المعروفة للإنسان(٢).

وهناك الطحالب التى بدأ الإنسان المعاصر يوجه اليها همه لما لها من فوائد عظيمة فلقد ذكر بعض المهتمين بالاحصائيات ان نحوا من ثلاثمائة صناعة تدخل فيها الطحالب منها خلطها بعلف الحيوانات والدواجن لاحتواء الطحالب على كثير من الأملاح.

ويقدر ماجمع من الطحالب على سواحل كاليفورنيا فى أمريكا وحدها مازنته مائة مليون طن من العام الواحد.

ويعتمد سكان سواحل الصين واليابان على الطحالب كإدام رئيسى فى طعامهم لاحتوائها على الفيتامينات والأملاح المعدنية وفى بلاد النرويج وأمريكا يباع مسحوق الطحلب بأقراص مقوية فى الصيدليات وهذه الطحالب يكفيها فى نموها ضوء الشمس وبعض الأملاح المعدنية الذائبة وتجرى التجارب لإعداد وجبات للأطفال منها(٣)..

وهناك مواد عضوية أخرى فى البحار وبكميات هائلة وهى كائنات مجهرية دقيقة تسمى بالبلاتكنون ولقد قدرت الكمية التى يحويها البحار من هذه الكائنات مايعادل من ١٥- ١٥٥ ألف مليون طن فى السنة الواحدة وهذا وحده يطعم أضعاف سكان الكرة الأرضية وهى غنية بالمواد السكرية والنشوية والبروتينية والفسفور وغيرها(٤).

---

(١) العالم ومشكلات الانسان المعاصر ص ١٠٤.
(٢) دلائل الحق فى عظم الخالق ص ٧٤.
(٣) ثروات من البحار ص ٨٢.
(٤) ثروات من البحار ص ٦٩.

٦ - وتوجد فى البحار نعم أخرى غير اللحم الطرى «منها الحلى والمعادن المختلفة والعناصر المتباينة»

يشير إلى الحلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾(١).

ويعتبر اللؤلؤ من عجائب البحار إذ يملك شبكة دقيقة تسمح بمرور الماء والغذاء إلى جوفه وتحول بين الرمال والحصى وغيرها.

فإذا دخلت ذرة رمل أو أى شىء غريب صدفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها ثم تتجمد مكونة لؤلؤة(٢).

والمرجان يعيش فى البحار على أعماق تتراوح بين خمسة أمتار وثلاثمائة متر ويثبت نفسه بطرفه الأسفل بصخر أو عشب وفمه محاط بعدد من الزوائد فى أعلى جسمه يستعملها فى غذائه واذ لمست الفريسة هذه الزوائد فانها تصاب بالشلل فى الحال فتنكمش الزوائد وتنحنى نحو الفم حيث تدخل الفريسة إلى الداخل والجزر المرجانية الحية ذات الوان مختلفة والمرجان الاحمر الصلب المتبقى بعد فناء الأجزاء الحية من الحيوان(٣).

ولقد اكتشف أن البحر يحوى كميات كبيرة من الفوسفور والنيترات التى تستعمل كسماد للأرض وكميات من ملح الطعام وكميات كبيرة من الكوبلت والنيكل موجودة أكثر بكثير مما على الأرض(٤).

ويعتبر عنصر المغنسيوم من أهم العناصر لأنه يدخل فى كثير من الصناعات الحديثة وخاصة سبائك الطائرات لخفته ومتانته كما يستخدم فى صنع القنابل المضيئة وإشارات الاستغاثة التى تطلقها السفن والطائرات ليلا وفى صناعات دقيقة أخرى مثل حبر الصباغة والأدوية والتصوير الفوتوغرافى ويقدر ماتنتجه الولايات المتحدة من البحر من هذا المعدن مايقرب من نصف مليون طن سنويا(٥).

---

(١) فاطر: ١٢.

(٢) الله والعلم الحديث ص ١٠٥ عبدالرازق نوفل- دار الجيل القاهرة.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٧ ص ٦٨١.

(٤) ثروات من البحار ص ٢٣٤.

(٥) ثروات من البحار ص ٢٤٠.

٦ ـ استخدام الماء فى توليد الطاقة والاستشفاء

هذا الماء يسكن معظمه فى الأرض وكلما سكن فى عمق الأرض أزدادت حرارته ويقدر العلماء أن هناك غلافا مائيا ساخنا ببطن الأرض بقدر يوازى نصف حجم المحيطات والبحار تقريبًا[(١)].

وفى المناطق البركانية النشطة توجد الطبقات الساخنة فى الغالب بالقرب من سطح الأرض ويمكن استخدام هذه الأبخرة ذات الحرارة المرتفعة فى تشغيل المولدات الكهربائية.

ولقد تم اكتشاف بحر تحت الأرض فى سيبريا درجة حرارة مياهه ٢٥٠ْم وتجرى الدراسات الآن لإنشاء مولد ضخم للطاقة فى هذا الموقع ولقد تم انشاء مولدات كهربائية تعتمد على استخدام الطاقة تحت الأرض وتدير هذه مصنعا للأسماك ومنطقة سكنية فى ذلك الموقع فى الاتحاد السوفيتى[(٢)].

ولقد أمكن اقامة مولدات تعتمد على الاختلاف فى درجة الحرارة بين السطح والأعماق فى المياه الاستوائية. ولقد تمكن العلماء الفرنسيون من اقامة مولدات كهربائية فى ميناء أبيجان على ساحل العاج تدار بمثل هذه الطاقة[(٣)].

وتمكن المهندسون فى فرنسا من استغلال هذه الطاقة وتوليد طاقة كهربائية منها تكفى لمنطقة كبيرة من تلك المقاطعة.

وبلغ مقدار الكهرباء المستفادة من إحدى هذه المحطات ٦٢٤ مليون كيلو وات/ ساعة سنويا[(٤)].

ولو أمكن التوصل إلى الاستفادة من طاقة المد والجزر لسدت نصف احتياجات العالم[(٥)].

---

(١) دلائل الحق فى عظمة الخالق ص ١٥١ عزت خيرى المجلس الأعلى.
(٢) ثروات من البحار ص ٢٦٧.
(٣) المرجع السابق ص ٢٧٣.
(٤) الانسان والطاقة ص ٢٧٣.
(٥) المصدر السابق.

هذا حديث العلم عن استخدام الماء فى توليد الطاقة.

وأما استخدامه فى الاستشفاء. فيشير إلى ذلك قوله تعالى: «أركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب»[(١)].

يقول الأستاذ سيد قطب: «أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر منها عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ»[(٢)].

ولعل ذلك فيه إشارة إلى استخدامات المياه المعدنية التى تتفجر من باطن الأرض.

ولايزال الناس إلى عصرنا الحاضر يرتادون المياه المعدنية يستشفون بواسطتها من كثير من الأمراض لاحتواء هذه المياه على مواد كبريتية ومعدنية أخرى ذاتية فيها تقرب من ستين عنصرا بينها اليود واليروم والباريوم والليثيوم والخارصين وغيرها[(٣)].

---

(١) ص ٤٢.

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٣٠٢١.

(٣) دلائل الحق فى عظمة الخالق ص ١٥٤.

(٢) ومن النعم الآفاقية
تسخير الليل والنهار

لقد تكررت الإشارات القرآنية إلى نعمة تسخير الليل والنهار امتنانا بها على العباد وحثا لهم على شكرها.

قال تعالى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ (٣٣) ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾[4].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٦٤) ﴾[6].

---

(١) النازعات: ٢٩، ٣٣.
(٢) الإسراء: ١٢.
(٣) الزمر: ٥.
(٤) الأعراف: ٥٤.
(٥) الروم: ٢٣.
(٦) البقرة: ١٦٤.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً﴾[1].

وبتدبر هذه الآيات نرى فيها لفتا قويا لنا للتنبه لنعمة خلق الليل والنهار تلك النعمة الجليلة التى تعود علينا بأطيب المنافع.

والتى قد يغفل عنها الكثير بسبب اعتيادهم لها.

يقول الأستاذ سيد قطب مشيرا إلى غفلة الكثير من الناس عن الانتباه لهذه النعمة مع جليل خطرها: «اختلاف الليل والنهار، تعاقب النور والظلمة، توالى الاشراق والعتمة، ذلك الفجر وذلك الغروب، كم اهتزت لها مشاعر، وكم وجفت لها قلوب وكم كانت أعجوبة الأعاجيب ثم فقد الإنسان وهلتها وروعتها مع التكرار إلا القلب المؤمن الذى تتجدد فى حسه هذه المشاهد. ويظل أبداً يذكر الله فيها فيتلقاها فى كل مرة بروعة الخلق الجديد[2].

ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شىء فصلناه تفصيلا.

«يمتن الله على خلقه بآياته العظام فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا فى الليل وينتشروا فى النهار للمعايش والصنائع والأعمال والأسفار.

وليعلموا عدد الأيام والجمع والشهور والأعوام.

وليعرفوا مضى الآجال المضروبة للديون والعبادات والمعاملات والاجارات وغير ذلك. فانه لو كان الزمان كله نسقا واحدا أو أسلوبا متساويا لما عرف شىءمن ذلك.

ثم أنه تعالى جعل لليل آية. أى علامة يعرف بها. وهى الظلام وظهور القمر فيه وجعل للنهار علامة هى النور وطلوع الشمس النيرة فيه.

---

(١) يونس: ٦٧.
(٢) جـ ا ص ١٥٢.

وفاوت بين نور القمر وضياء الشمس ليعرف هذا من هذا.

وقال ابن جريج عن مجاهد: الشمس آية النهار، والقمر آية الليل.

ومحو آية الليل هو السواد الذى فى القمر[1].

ويقول ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل». أى سخرهما يجريان متعاقبين لا يفتران كل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا. كقوله تبارك وتعالى: «يغشى الليل النهار يطلب حثيثا»[2].

وفى آية النازعات بيان واضح أن تعاقب الليل والنهار ودحو الأرض وإخراج الماء كل ذلك من نعم الله على عباده لتستقر حياتهم فلو كان الوقت كله نهارا لما صلحت حياة العباد. وكذلك لو كان الوقت كله ليلا.

وإلى هذا أشار قوله تعالى: «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة مَنْ إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون»[3].

هذا التعاقب بين الليل والنهار من أكبر النعم على الإنسان وأجلها. ففى الليل يرتاح جسد الإنسان من كد النهار وأعبائه.

«وأكثر الأحياء من الإنسان والحيوان تترك العمل والسعى فى الليل. وتأوى إلى ساكنها للراحة. حيث تسكن خواطرها وترتاح أعضاءها.

فعند النوم يقل إفراز خلايا الجسم من السوائل والعصارات ويبطئ التنفس ويقل ضغط الدم فى الشرايين ويستريح الجهاز العصبى ويقل إخراج الفضلات وتستريح الأعضاء والدماغ ليتجدد نشاطها فى اليوم التالى»[4].

---

(١) ابن كثير جـ٣ ص ٢٦، ٢٧.

(٢) جـ ٤ ص ٤٥.

(٣) القصص: ٧١- ٧٢- ٧٣.

(٤) تفسير المنار جـ١ ص ٢١٠.

«والتناسق ظاهر بين الإنسان والكون فالإنسان يعمل ويكد ثم يحتاج إلى وقت يستريح فيه فيأتيه الليل لنومه ويكون النهار لعمله وسعيه.

ولم تكتف الآيات القرآنية ببيان الحكمة من تعاقب الليل والنهار بل وجهت الأنظار إلى البحث عن السر الكامن وراء تلك الظاهرة فتكوير الليل على النهار والنهار على الليل وإيلاج الليل فى النهار ، والنهار فى الليل بتعاقب منظم مدعاة للنظر والبحث لأصحاب الألباب ليتدبروا آيات الله فى الكون ويصلوا إلى أسرارها ومبادئها فيدركوا أن هذا التنظيم والابداع من صنع العليم الخبير فيفردوه بالعبودية ولايختاروا على حكمه وشرعه شيئا سواه.

ولو فصلت الآيات القرآنية للناس هذه الظواهر فبينت أسرار هذا التعاقب بين الليل والنهار وأن دوران الأرض حول نفسها ومقابلتها للشمس فى ذلك الدوران على محور ثابت مائل على خط الأفق لما صدق بذلك أحد عند نزولها ولكان ذلك مدعاة إلى عدم ايمانهم ولكن الآيات القرآنية توجه الأنظار إلى البحث وراء هذه الظواهر وبينت الحكمة من وجودها وأنها مسخرة لما فيه خير الإنسان.

وهذا التسخير يفهمه كل أناس وفق ما أتاهم الله عز وجل من العلم والفهم وفى هذا الزمان الذى استطاع فيه الإنسان أن يصل إلى مستوى علمى متقدم نراه يكشف عن ذلك التدبير الحكيم وراء هذه الظاهرة التى لاتثير فى كثير من الناس نظرا ولاتدبرا لتكرارها وطول الألفة بها.

فيقرر العلماء أن الأرض تدور حول نفسها وحول الشمس ومن دورانهاحول نفسها تنشأ ظاهرة الليل والنهار.

وهذا الدوران وحده لايكفى فعطارد مثلا يدور حول نفسه وحول الشمس ولكن نصفه شمس ونصفه الآخر زمهرير لأنه يقابل الشمس بوجه واحد فى دورانه بعكس الأرض التى يتغير وجهها المقابل للشمس باستمرار أثناء دورانها وذلك لأن محور دورانها يميل عن خط الأفق بزاوية مقدارها ٢٣° وهذا المدار الاهليجى للأرض حول الشمس له أثره فى تغيير الفصول وبالتالى تغير ظروف الطقس فينشأ عن هذا الاختلاف تنوع فى النباتات والأشجار مما يزيد من سعادة الإنسان وهنائه.

ولو أن وضع الأرض على مدارها غير مائل كما ذكرنا لاختل نظام الفصول الأربعة ولأصبح وسط الأرض صحراء تحترق فى صيف دائم وشمالها وجنوبها مدفونين تحت ركام الثلوج ولو أن درجة هذا الميل زادت عما هى عليه لأصبحت المنطقتان المعتدلتان كالقطبين إما فى ليل وشتاء طويل أو فى نهار وصيف طويل.

ولذلك ذكر الله عز وجل تعاقب الليل والنهار فى مقام الامتنان بقول تعالى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾(1).

ويحدثنا الاستاذ سيد قطب عن نعمة خلق الله لليل والنهار وما يجب أن نستقبل به هذه النعمة عند تفسيره لقوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾(2).

يحدثنا فيقول:

«إن التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية فى الادراك السليم وصورة حية من الاستجابة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار فى صميم الكون بالليل والنهار.

والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيها مكررا مؤكدا إلى هذا الكتاب المفتوح الذى لاتفتأ صفحاته تقلب. فتنبدى فى كل صفحة أية موحية تستجيش فى الفطرة السليمة إحساسا بالحق المستقر فى صفحات هذا الكتاب.

---

(1) قصة الايمان ص ٣٢٢ بتصرف.

(2) آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١.

وفى «تصميم» هذا البناء. ورغبة فى الاستجابة لخالق هذا الخلق. ومودعه هذا الحق. مع الحب له والخشية منه فى ذات الأوان.

وأولو الألباب. . أولو الإدراك الصحيح. يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية. ولايقيمون الحواجز. ويغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات.

ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياما وقعودا وعلى جنوبهم. وتتفتح بصائرهم وتتكشف مداركهم وتتصل بحقيقة الكون التى أودعها الله اياه. وتدرك غايه وجوده وعلة نشأته وقوام فطرته بالإلهام الذى يصل به القلب البشرى ونواميس هذا الوجود. ومشهد السموات والأرض، ومشهد اختلاف الليل والنهار لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وادراكنا. لو تلقيناه كمشهد جديد تنفتح عليه العيون أول مرة. لو استنقذنا حسنا من همود الإلف وجنود التكرار لارتعشت له رؤانا. ولاهتزت له مشاعرنا. ولأحسسنا أن وراء مافيه من تناسق لابد من يد تنسق ووراء مافيه من نظام لابد من عقل يدبر. ووراء مافيه من إحكام لابد من ناموس لايخلف وأن هذا كله لايمكن أن يكون خداعا. ولايمكن أن يكون جذافا. ولايمكن أن يكون باطلا. ولاينقص من اهتزازنا للمشهد الكونى الرائع أن نعرف أن الليل والنهار ظاهرتان ناشئتان من دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس ولا أن تناسق السموات والأرض مرتكزا إلى الجاذبية أو غير الجاذبية.

والسياق القرآنى هنا يصور خطوات الحركة النفسية التى ينشئها استقبال مشهد السموات والأرض. واختلاف الليل والنهار فى مشاعر أولى الألباب تصويرا دقيقا. وهو فى الوقت ذاته تصوير إيحائى يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح فى التعامل مع الكون وفى التخاطب معه بلغته. والتجاوب مع فطرته وحقيقته. والانطباع لإشاراته وايحاءاته ويجعل من كتاب الكون المفتوح كتاب «معرفة» للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبدعه يد الله.

وأنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته «الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم» وبين التفكير فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار. فيسلك هذا التفكير مسلك العبادة ويجعله جانبا من مشهد الذكر.

فيوحى بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى:

أن التفكير فى خلق الله. والتدبر فى كتاب الكون المفتوح. وتتبع يد الله المبدعة. وهى تحرك هذا الكون وتقلب صفحات هذا الكتاب هو عبادة لله من صميم العبادة. وذكر لله من صميم الذكر.

الحقيقة الثانية:

أن آيات الله فى الكون لاتتجلى على حقيقتها الموحية إلا للقلوب الذاكرة العابدة.

وأن هؤلاء الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم - وهم يتفكرون فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار - هم الذين تتفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار.

وهم الذين يتصلون من ورائها بالمنهج الإلهى الموصل إلى النجاة والخير والصلاح.

فأما الذين يكفرون بظاهر من الحياة الدنيا. ويصلون إلى أسرار بعض القوى الكونية. بدون هذا الاتصال فهم يدمرون الحياة ويدمرون أنفسهم بما يصلون اليه من هذه الأسرار. ويحولون حياتهم إلى جحيم نكد، والى قلق خانق. ثم ينتهون إلى غضب الله وعذابه فى نهاية المطاف»[1].

ولو ذهبت أتتبع الآيات القرآنية الكريمة التى تتحدث عن نعمة خلق الليل والنهار وتسخيرهما وما كتبه المفسرون فى تفسيرها لضاق المقام.

وبحسبى ماكتبته. ومنه اتضح لنا أن تسخير الليل والنهار من جلائل النعم التى يجب الشكر عليها.

---

(١) فى ظلال القرآن جـ١ ص ٥٤٤- ٥٤٦.

ومن النعم الآفاقية
تسخير أنواع المزروعات للإنسان

إن الإحاطة بنعمة نتوع المزروعات بذكر أنواع المزروعات وفوائد كل منها للإنسان لشئ فوق الطاقة.

وبحسبى أن أذكر طرفا من المزروعات التى صرح بها القرآن إذا أجمل أجملت واذا فصل فصلت.

ذلك أن موضوع الرسالة هو الشكر فى القرآن الكريم. وبالتالى فالحديث فيها يدور فى فلك القرآن الكريم.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النعمة إشارة إجمالية تارة وتفصيلية تارة أخرى.

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١)﴾[١].

وفى هذه الآية إجمال وتفصيل. إجمال بذكر الجنات والزرع وتفصيل بذكر النخل والزيتون والرمان.

ويقول تعالى أيضا مشيرا لهذه النعمة: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾[٢].

فأجمل فى هذه الآية ولم يفصل بذكر الثمرات. وهى تتسع لجميع الثمرات.

---

(١) الأنعام: ١٤١.

(٢) فاطر: ٢٧.

ويقول تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾(١).

فأجمل أيضا فى هذه الآية وفصل. اجمل بذكر الحب. وهو يتسع لما لايحصى من الحبوب التى ينتفع بها الإنسان فى غذائه مباشرة أو باستخلاص الزيت منها أو اتخاذها علفا لحيواناته. كما أجمل ذكر الحدائق ، والفاكهة ، وكل منهما يتسع للكثير من الأنواع وفصل بذكر العنب والقضب والزيتون والنخل.

ويشير المولى إلى إبداعه فى خلق الزروع المختلفة الطعوم والألوان فى التربة الواحدة وتسقى بماء واحد.

فيقول عز من قائل ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾(٢).

وحقيقة أن العلم يقف مندهشا أمام هذه القدرة التى جعلت الأرض الواحدة تنبت أنواعا مختلفة من النبات. يقول العلماء : إن العناصر التى تتآلف منها كل النباتات معلومة وكلها تمتص غذاءها من الأرض من تراب واحد. وتسقى بماء واحد. وتتنفس من هواء واحد. وتصنع غذاءها وثمارها من كربون واحد.

فما هو السر الذى يجعلها يختلف بعضها عن بعض فى الثمرات والأكل كما قال القرآن الكريم حتى لو زرعنا فى مساحة لاتزيد عن ذراع مربع من الأرض الحلو والحامض والمر والسام وسقيناها بماء واحد. نجد أن كل صنف يخرج ثماره المختلفة المتميزة من دون أقل اختلاط وامتزاج.

ولقد عرف العلم اليوم طرفا من هذا السر. ذلك أن الله عز وجل جعل فى بذور النبات كما فى بيض الحيوانات عناصر التخطيط النووى للخلية. حسب نوع

---

(١) عبس: ٢٤: ٣١.
(٢) الرعد: ٤.

النبات. وبهذا التخطيط يتبع النبات سيره فى تكوين الثمرات والأكل على اختلاف ألوانها وثمراتها[1].

ويذكر تعالى فى مقام الامتنان خلق الحب والنبات والجنات الملتفة. فيقول: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾[2].

«فمن السراج الوهاج ومايكسبه من أشعة فيها ضوء وحرارة. ومن العصرات ومايعتصر منها من ماء ثجاج. ينصب دفعة بعد دفعة كلما وقع التفريغ الكهربائى مرة بعد مرة».

من هذا الماء مع هذا الشعاع يخرج الحب. والنبات الذى يؤكل هو ذاته. والجنات الألفاف الكثيفة الأشجار الملتفة الأغصان[3].

وللحث على شكر نعمة المزروعات والإشادة بها أقسم تعالى ببعض أنواعها فقال: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ ﴿٣﴾﴾[4].

ووصف شجرة الزيتون بالبركة. وزيتها بالصفاء. فقال: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[5].

ويتكرر التذكير بنعمة النخيل والأعناب والزيتون فى القرآن الكريم.

فيقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾[6].

هذا وقد لفت نظرى أن القرآن نص على أنواع من الزروع والثمار دون غيرها وكرر بعض ماذكره دون غيره. وركز على بعض ماذكره وكرره بالثناء عليه.

---

(١) قصة الايمان ص ٣٦٢.
(٢) النبأ: ١٣- ١٦.
(٣) فى ظلال القرآن جـ٦ ص ٣٨٠٦.
(٤) التين: ١: ٣.
(٥) النور: ٣٥.
(٦) المؤمن: ١٨- ٢٠.

ومن هناك بدا لى أن القرآن الكريم بالنسبة للمزروعات ، والحديث عنها والامتنان بها والحث على شكرها قد جعلها أربعة أقسام. قسما أجمل الحديث عنه ولم يذكر أنواعه بالتفصيل، وقسما ذكره باسمه ولم يكرره، وقسما ذكره باسمه وكرره، وقسما جمع بين النص على اسمه وتكريره والثناء عليه وهو الزيتون.

وقد أشرت إلى إجمال القرآن فى الحديث عن نعمة المزروعات فيما تقدم.

وأما الذى ذكره باسمه. فلى معه حديث سواء كرره أم لم يكرره وسواء أثنى عليه أم لم يثن عليه.

فإنه ماذكر اسمه مع عدم التصريح باسم غيره الا لحكمة عالية يراها البعض فى ارتباط حياة العرب الذين نزل القرآن عليهم به وقد يكون ذلك حقا. ولكنى أراها فى الاشارة إلى مافى هذه الأنواع من مزايا غذائية خاصة بدليل أن ما امتاز على سائر المزروعات فجمع له بين ذكر اسمه وتكراره. والثناء عليه وهو الزيتون. قد أثنى عليه بالبركة وهى كلمة قرآنية معبرة عن خير كثير. كما أثنى عليه بأنه ينبت الدهن والصبغ. وكلها إشارات إلى منافعه.

ولقد جاء العلم الحديث فكشف لنا عن الكثير من أسرار القرآن بكشفه عن منافع هذه الأصناف التى ذكرها القرآن بالاسم.

حتى تلك الأصناف التى وإن ذكرت بالاسم. فقد وصفها القرآن بأنها دون غيرها وكأن وصفها بالاسم رفع من مكانتها وتلك الأصناف هى: البقول والقثاء والفول والعدس والبصل.

يقول تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾[1].

وسأبدأ حديثى بذكر حديث العلم الحديث عن الأصناف الدنيا من المزروعات حسب وصف القرآن لها «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» ثم انتقل إلى

(١) البقرة: ٦١.

الحديث عن غيرها واختم حديثى بالحديث عن الزيتون الذى وصفه القرآن وأثنى عليه.

هذا مع العلم بأن وصف هذه المزروعات بالذى هوأدنى إنما هو بالنسبة للمن والسلوى وهما ليسا من المزروعات وإن كانا من الأطعمة ، فالبقول مثل : **الفول** والعدس والترمس والحمص واللوبيا والفاصوليا والفول الأخضر تخفض نسبة السكر فى الدم كما أن فول الصويا يدخل فى تركيب لبن الأطفال الصناعى لاحتوائه على نسبة عالية من البروتينات.

والحلبة: تفتح الشهية للأكل ومقوية للدم وتساعد على الهضم وتدر اللبن ومدرة للطمث وكذلك تخرج الدم من الرحم بعد الولادة مباشرة.

واللوبيا: بها كميات لابأس بها من البروتينات وتفيد أوجاع الكلى والظهر مصحة للبدن. طاردة للحزن مانعة للامساك.

والترمس: به نسبة عالية من البروتينات ينشط الأمعاء ويقوى الشعر كما أن الطب الحديث قد أكتشف فيه علاجا لمرض الصدفية. وهو يخفض ضغط الدم المرتفع وطارد للديدان.

والعدس: به ٢٢ فى المائة بروتين، ٥٤ فى المائة كربوهيدرات، ٢ فى المائة مواد دهنية كما يحتوى على الحديد والفوسفور والكالسيوم ويمنع الإسهال ويدر الطمث ويقلل البول.

والحمص: يحسن العرق ويزيد دم الحيض ويدر لبن المرضع ويقوى الباه ويزيد من الجماع.

وبالقثاء: مادة قابضة للأوعية الدموية مضادة للحساسية وهى ملينة ومهدئة للأعصاب.

والفوم: بمعنى الثوم على لسان العرب.

والثوم من أقدم الخضروات التى شاعت فى مصر القديمة وبلاد اليونان وروما

وهو يدر الطمث ويخرج نزلات البرد كما يطرد البلغم ويركز المنى ويعالج لسع الحشرات والهوام. والاكثار منه يفسد البصر ويصدع الدماغ.

والبصل: تحتوى المائة جرام منه على ٣٦٠٠ وحدة من فيتامين (أ)، ٢٨ مجم فيتامين (ج) والبصل إذا صار فيه رطوبة يفتح الشهية للطعام ويقوى ويهيج الباه طارد للبلغم مانع للقيء ملين مضاد للامساك ومهدىء للاعصاب به مادة مسيلة للدم. لذلك فهو ينفع مرضى الجلطة الدموية بالقلب والاكثار من البصل يضر البصر ويصدع الدماغ رائحته منفره وله مفعول ملين على الجهاز الهضمى وله أثر مهدىء على الجهاز العصبى مع أنه ينبه المخ والأعصاب(١).

تلك كلمة الطب الحديث فى هذه الأصناف من المزروعات. وهى تصرح بأن هذه الأصناف من أهم الأغذية بل والأدوية فى نفس الوقت.

وذكر القرآن كذلك بالاسم من المزروعات اليقطين:

قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾(٢).

وفيه يقول الطب الحديث: «القرع سهل الهضم جيد الغذاء جم النفع عظيم الفائدة. لايجهد المعدة ولا الأمعاء فى هضمه وتمثيله ويؤثره ويصفه عادة أطباء الحميات والأمراض الباطنية عندما نريد أن نغذى المريض مع المحافظة على الجهاز الهضمى وإعطائه الراحة الكافية. وبالذات مرض القولون الغليظ»(٣).

وأما الذى ذكره باسمه وكرره فهى ثمرات النخيل والأعناب والتين والرومان وهذا حديث العلم الحديث عنها:

البلح: فاكهة ممتازة قيمة كان المصريون القدماء يحرصون عليها كثيرا. ويحبون أكلها. فهى تحتوى على كثير من البروتينات وفيتامين (أ) وفيتامين (ج) كما يحتوى البلح على ٧٠٪ سكريات ٢٠٪ بروتين، ٣٪ دهون وفيتامين (ب) المركب.

---

(١) الاعجاز الطبى ص ١١٢

(٢) الصافات: ١٤٦.

(٣) الاعجاز الطبى ص ١١٥.

ويمكن بقاء البلح فترة طويلة دون تلف أوفساد.

ويمر البلح بعدة أطوار هى الطلع فالخلال فالبلح فاليسر فالرطب بالتمر.

ولكل نوع من هذه الأنواع مميزاته.

فالطلع: وهوأول مايظهر من البلح يقوى الباه. ويحرك الشهوة.

والخلال: ردئ على ماوجدنا.

والبلح: قال فيه ﷺ: «كلوا البلح بالتمر فان الشيطان يقول بقى ابن آدم حتى يأكل الجديد بالعتيق»[1].

والبسر: أقل فائدة من البلح.

والرطب: كان النبى ﷺ يأكل الرطب مع البطيخ ويقول: «يدفع حر هذا برد هذا ويدفع برد هذا حر هذا»[2].

والتمر: قال فيه ﷺ: «أطعموا نساءكم التمر فان من كان طعامها التمر خرج ولدها حليما»[3].

وخير التمر «البرنى» لقوله ﷺ: «خير تمراتكم البرنى يذهب بالداء ولا داء فيه»[4]. كما كان ﷺ: يحب الزبد والتمر والعجوة.

لقوله ﷺ: «أى رجل يتطيب فليأخذ سبع تمرات من عجوة»[5].

---

(١) رواه النسائى. وابن ماجه كتاب الأطعمة. باب أكل البلح بالتمر جـ٢ ص ١١٠٥ والحاكم فى المستدرك وصححه السيوطى الجامع الصغير جـ٢ ص ١٦٠.

(٢) الترمذى وابو داود- أطعمة جـ٤ ص ٢٨٠ ونصه كان النبى ﷺ «يأكل البطيخ بالرطب وقال: حديث حسن غريب والزيادة من أبى داود جـ٢ ص ٣٢٦.

(٣) رواه أبو يعلى بسنده عنه ﷺ بلفظ «أطعموا نساءكم الولَّد الرطب فان لم يكن رطب فالتمر. وليس من الشجر أكرم على الله من شجرة نزلت تحتها مريم بنت عمران» وفيه مسرور بن سعيد وهو ضعيف مجمع الزوائد جـ٥ ص ٣٩.

(٤) أخرجة الطبرانى فى الأوسط بسياق أطول. وفيه عبيد بن وافد القيسى. وهو ضعيف. مجمع الزوائد جـ٥ ص ٤٠.

(٥) ابو داود طب ١٣.

وروى أبو داود : «أنه ﷺ كان يحب الزبد والتمر»[(١)(٢)].

والرمان: قد اكتشف الطب الحديث علاج الدودة الشريطية باعطاء المريض شراب قشر الرمان بعد غليه بالقشر[(٣)].

والتين: يعتبر من أغنى المواد الغذائية بالفيتامينات، وينصح باستعماله على نطاق واسع للحوامل والرضع. ولأصحاب الامساك المستعصى وينفع منقوعه فى التهابات الجهاز التنفسى. كما أنه يقوى الكبد ويذهب عسر البول والسعال وأوجاع الصدر وخشونة القصبة الهوائية والبواسير كما يزيل رائحة الفم»[(٤)].

ويقول الشيخ الفخر الرازى عن التين: «أنه يطهر الكليتين ويزيد مافى المثانة من الرمل ويفتح مسام الكبد والطحال».

وقد روى أنه أهدى لرسول اللهﷺ طبق من تين. فقال لأصحابه: «كلوا فلو قلت أن فاكهة نزلت من الجنة لقلت هذه. لأن فاكهة الجنة بلاعجم. فكلوها فانها تقطع البواسير وتنفع من النقرس».

وروى عن على بن موسى الرضا: أنها تزيل نكهة الفم وتطيل الشعر ويداوى بها فى اخراج فضول البدن»[(٥)].

وأما الذى ذكره باسمه وكرره وأثنى عليه فهو الزيتون:

وفيه يقول العلم الحديث: «شجرة الزيتون المباركة تحتوى على فيتامين (د) الذى يقى الأطفال شر الكساح. ويقوى الساقين. ويضفى على الوجه حمرة واشراقا. كما يمتاز زيت الزيتون عن غيره من الزيوت باحتوائه على مواد لها أثر فعال فى تغذية النسيج السنجابى فى الدماغ وبهذا يمكن القول بأن لها أثرا جيدا فى زيادة القدرة على التفكير وذلك بالاضافة إلى احتوائه على مواد عطرية. تعتبر من المشهيات أثناء تناول الطعام.

---

(١) وراه ابو داود جـ٢ ص ٣٢٦ ـ أطعمة ٤٤، مسلم فى الزهد ٣٥، ٤، ٣٦٨.

(٢) الإعجاز الطبى ص ١١٦.

(٣) الإعجاز الطبى ص ١١٦.

(٤) القرآن وإعجازه العلمى ص ١٦١.

(٥) التفسير الكبير جـ ٣٢ ص ٨.

ونظرا لغنى الزيت بفيتامين (د) فهو مقو للنسل. ويفيد الشيوخ فى منحهم القوة الجنسية.

ويعتبر زيت الزيتون من خير الأدوية المحرضة للكبد على الافراز وتناول ملعقتين كبيرتين منه قبل الطعام دواء ممتاز من أدوية الامساك.

وهو أسهل الزيوت هضما. وقريب التركيب من الأدهان الموجودة فى حليب الإنسان لذا فإن امتصاصه وهضمه أسهل على الجسم والأطباء يوجهون الأمهات لاطعام أطفالهن الخبز مع الزيت لأنهما يحتويان على جميع العناصر اللازمة لتنمية أجسام الأطفال»[1].

ومما يلفت النظر أن ماصرح القرآن الكريم باسمه من أنواع المزروعات يغطى جميع احتياجات الغذاء الإنسانى.

«فالأغذية التى نحتاج إليها تتآلف من المواد النشوية والسكرية والكربونية والمواد الدهنية والبروتينية.

أما البروتينية فسيأتى بيان القرآن الكريم لمنابعها عند ذكر الأنعام.

وأما الثلاثة الأولى فالنشوية منها نستخرجها من الحبوب على اختلافها.

والسكرية والكربونية نستخرجها من الأعناب والنخيل والرمان.

وأما الدهنية فنستخرجها من الزيوت[2].

وهكذا يتضح لنا سر آخر فى تخصيص ذكر أسماء هذه الأصناف دون سواها والله أعلم.

(١) القرآن وإعجازه العلمى ص ١٦٢ محمد اسماعيل ابراهيم.
(٢) قصة الايمان ص ٣٦٣.

٤ . ومن النعم الآفاقية
تسخير الحيوانات لنفع الإنسان

«فمن النعم التى خلقها الله للإنسان هذه الحيوانات والطيور المسخرة على تنوعها وكثرتها. ومالها من الخصائص المختلفة ومافيها من التقدير والابداع الذى يأخذ بالعقول ومالديهما من السلوك والهداية الذى يذهب بالألباب ولولا هذه الأسرار الربانية فى هذه الكائنات لما استطاعت أن تستمر فى حياتها بنجاح ولما ترتب على ذلك لنا فيها مزيد نفع وخير ومازال العلم الحديث يحاول التعرف إلى بعض هذه الأسرار الربانية فى هذه الكائنات فهناك هجرة الطيور والأسماك والغرائز المختلفة لدى النمل والنحل وغيرها التى يدرك الباحث فيها لأول وهلة أن هذه الكائنات تسير وفق نظام خالص محكم لغاية محددة خلقت من أجلها.

وعندما تقوم هذه الكائنات بتلك العمليات المعقدة انما تقوم بذلك دون سابق تعليم والاستنتاج الوحيد الممكن فى هذا الشأن هو أن الجيل الجديد يرث عن أبويه بطريقة لم تعرف بعد نظاما عصبيا أوتوماتيكيا يشبه فى تصحيحه آلات ساعة محكمة مملوءة ومعدة لتأدية حركاتها المحددة بانتظام وقد يتم هذا العمل تحت مسببات داخلية أو خارجية الا أننا لانستطيع أن نحس طبيعته(١).

فهجرة الطيور التى مازال العلم يحتار فى تفسير أسبابها ودوافعها ويضع لذلك النظريات المختلفة وآخر هذه النظريات إنما هى مخلوقات فلكية بارعة تهتدى بالتبدلات الفلكية فى السماء وتهتدى فى أسفارها الليلية بمواقع النجوم(٢).

وقد أثبت القرآن الكريم أن هناك وسيلة تفاهم لهذه الكائنات

قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾(٣).

---

(١) المجتمعات الحشرية ص ٢١.

(٢) غرائب فى مملكة الحيوان ص ١١٤ صبرى القبانى.

(٣) النمل: ١٥.

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾[1].

وقال عز وجل على لسان سليمان: ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[2].

فأثبت الله عز وجل للنمل وللطير منطقا خاصا بها وهى أصناف يجرى عليها مايجرى على باقى الحيوانات.

وقال تعالى:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾[3].

ولقد اختار الزجاج أنها أمم مثلنا فى الخلق والرزق والموت والبعث والقصاص[4].

وقيل إن أحوالها محفوظة وأمورها متقنة ومصالحها جارية على سنن السداد ومنتظمة فى سلك التقديرات الالهية والتدبيرات الربانية وأنهم يحشرون يوم القيامة فينتصف بعضهم من بعض حتى يبلغ من عدله أن يؤخذ للشاه الجماء من القرناء»[5].

ونقل الواحدى عن ابن عباس أن المراد بالمماثلة أنها تعرف الله وتوحده وتسبحه وتحمده»[6].

ونقل عن سفيان بن عيينه أنه قال مافى الأرض آدمى الا وفيه شبه من بعض البهائم. فمنهم من يقدم إقدام الأسد ومنهم من يعدو عدو الذئب ومنهم من

(١) النمل: ١٨.

(٢) النمل: ٢٠، ٢٢.

(٣) الانعام: ٣٨.

(٤) القرطبى جـ٤ ص ٥٤١٧.

(٥) تفسير ابو السعود جـ٣ ص ١٣١.

(٦) تفسير المنارجـ٧ ص ٣٩٢

يسلك سلوك الخنزير فاعلم يأخى أنك انما تعاشر البهائم والسباع فبالغ فى الحذر وهذا القول إذا صح دخوله ضمن الصفات الحيوانية المشتركة بين الإنسان والحيوان ويكون هو المراد من الآية.

والمختار أن الله عز وجل بين لنا وجه المماثلة لأجل أن نستعمل حواسنا وعقولنا فى هذه الكائنات ويدفعنا إلى البحث فى أمورها وأحوالها[1].

• وقال سيد قطب:

«ما من خلق فى هذه الأرض كلها الا وهو منتظم فى أمة ذات خصائص واحدة وطريقة فى الحياة واحدة وكذلك شأنها فى هذا شأن أمة الناس ماترك الله شيئا من خلقه بدون تدبير يشمله وعلم يحميه»[2].

ولقد درس العلماء وسائل التفاهم عند بعض هذه الكائنات فى حدود معلوماتهم واهتدوا إلى تفاهمها فيما بينها بطريقة الرموز وهذه الرموز قد تكون صوتية أو مرئية أو بطريق اللمس أو الشم أو الضوء أو اللون»[3].

ولقد أجريت على النحل تجارب عديدة توصل فيها إلى أنه يتفاهم مع بعضه بطريقة الرقص فالنحلة تستطيع اخباز رفيقاتها عن خروج الرحيق وتحديد مسافته واتجاهه. ويمكنها أن تشير إلى الاتجاه بالاستفادة من الزاوية التى تصنعها الأرض من الشمس فى حالة دوران الأرض حول نفسها»[4].

ويرى العلماء أن هناك تنوعا فى أصوات الطيور تدل على ماقام بخيال ذلك الطائر من فرح أو حزن أو جزع وهى تنوعات لأغراض محدودة ولكنها ثابتة اذ سجلت على أشرطة وأذيعت فى الغابات فنتج عنها نفس رد الفعل من باقى الطيور عند سماع مثل هذا الصوت[5].

---

(١) تفسير المنارجـ٧ ص ٣٩٢

(٢) فى ظلال القرآن جـ٧ ص ١٩٨.

(٣) عالم الفكر جـ٧ عدد ٢ ص ١٥٠. لغة الحيوان يوسف عز الدين.

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٥٧.

(٥) جواهر القرآن جـ ٧ ص ١٣٥ طنطاوى جوهرى.

١ - تسخير الحيوانات

أشار تعالى إلى نعمة تسخير الحيوان لنفع الإنسان بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾[1].

يمتن تعالى على عباده بما خلق لهم من الأنعام. وهى الإبل والبقر والغنم وبما جعل لهم فيها من المصالح والمنافع من أصوافها وأوبارها وأشعارها يلبسون ويفترشون. ومن ألبانها يشربون ومن لحومها يغتذون. ومالهم فيها من الجمال وهو الزينة. وقت رجوعها عشيا من المرعى.

كما يمتن تعالى على عباده بتسخير حيوانات الحمل كذلك [2].

هذا وقد فصل تعالى الأنعام التى أمتن بها هنا اجمالا فى قوله تعالى: ﴿ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين. ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكرين حرم أم الأنثيين أم اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبئونى بعلم إن كنت صادقين ومن الابل اثنين ومن البقر اثنين» [3].

فى هذه الآيات تفصيل لإجمال آيات النحل. وامتنان أيضا من الله عز وجل على عباده بتسخير حيوانات الحمل لهم. وتسخير الأنعام لطعامهم وشرابهم وكسائهم. المشار اليه فى هذه الآيات بقوله تعالى: «وفرشا». والمشار اليه فى آيات النحل بقوله: «لكم فيها دفء».

---

(١) النحل: ٥ ـ ٨.

(٢) ابن كثير جـ٢ ص ٥٦٢ بتصرف.

(٣) الانعام: ١٤٢: ١٤٤.

وتكرر الإشارات القرآنية إلى نعمة تسخير الله عز وجل الحيوانات لنفع الإنسان. ويبثها المولى عز وجل فى ثنايا القرآن الكريم ليتكرر التذكير بها. حثا على شكرها.

وتلك سنة قرآنية. هى بث الموضوع الواحد فى سور متفرقة للاهتمام به وتكرار التذكير به.

أقول يكرر القرآن الكريم الإشارة إلى نعمة تسخير الحيوانات.

فيقول تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (21) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ...﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (79) وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (80) وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ (81)﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (72)﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13)﴾[4].

وهكذا تتعدى الإشارات القرآنية إلى نعمة تسخير الحيوان فى خدمة الإنسان. فهى تحمل أثقاله. وهى مصدر رئيسى من مصادر غذائه وكسائه. وهى زينة له تبهج نفسه وتقر بها عينه.

---

(١) المؤمنون: ٢١.
(٢) غافر: ٧٩: ٨١.
(٣) يس: ٧١، ٧٢.
(٤) الزخرف: ١٢، ١٣.

قال ابن كثير فى تفسير قوله تعالى: «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة.

« هذا صنف آخر مما خلق تبارك وتعالى لعباده من الحيوانات يمتن به عليهم وهو الخيل والبغال والحمير التى جعلها الله للركوب والزينة بها»[1].

وهى أيضا يتخذ من جلودها مساكن لهم.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾[2].

ويركز تعالى على نعمة تسخير الحيوان فى إدرار اللبن. وكيف تستخلص القدرة الإلهية اللبن من بين فرث ودم فيقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾[3].

«والفرث مايتبقى فى الكرش بعد الهضم. وامتصاص الأمعاء للعصارة التى تتحول إلى دم هذا الدم الذى يذهب إلى كل خلية فى الجسم. فاذا صار إلى غدد اللبن فى الضرع تحول إلى لبن بديع صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه.

وعملية تحول الخلاصات الغذائية إلى دم. وتغذية كل خلية بالمواد التى تحتاج اليها. عملية عجيبة وهى تتم فى الجسم فى كل ثانية»[4].

« والقرآن إذ يعرض لنعمة تسخير الحيوانات لنفع الإنسان ينبه إلى مافى هذه الحيوانات من تلبية لضرورات البشر. وتلبية لأشواقهم أيضا.

ففى الأنعام دفء من الجلود والأصواف والأوبار والأشعار ومنافع فى هذه وفى اللبن واللحم وما إليها. وفى حمل الأثقال إلى البلد البعيد لايبلغونه إلا بشق النفس نعمة وأى نعمة وفى الأنعام كذلك جمال عند الإراحة فى المساء وعند السرح فى الصباح.

---

(١) جـ٢ ص ٥٦٢.

(٢) النحل: ٨٠.

(٣) النحل: ٦٦.

(٤) فى ظلال القرآن جـ٤ ص ٢١٨٠ بتصرف.

جمال الاستمتاع بمنظرها فارهة رائعة صحيحة سمينة.

وفى الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة فى الركوب. وتلبية لحاسة الجمال فى الزينة «لتركبوها زينة».

وهذه اللفتة لها قيمتها فى بيان نظرة القرآن ونظرة الإسلام للحياة.

فالجمال عنصر أصيل فى هذه النظرة. وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب ومسكن. بل الأشواق الزائدة على الضرورات.

تلبية لحاسة الجمال. ووجد أن الفرح والشعور الإنسانى المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان»[١].

ويمتن تعالى على عباده باختلاف ألوان الحيوانات فيقول:

«ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والرقاب والأنعام مختلف ألوانه كذلك»[٢].

«فالدواب والأنعام مختلفة الألوان حتى فى الجنس الواحد بل النوع الواحد منهن مختلف الألوان بل الحيوان الواحد يكون أبلق فيه من هذا اللون وهذا اللون. فتبارك الله أحسن الخالقين»[٣].

ويقول ﷺ وقد سأله رجل أيصبغ ربك؟

فقال ﷺ: «نعم صبغا لاينقض أحمر وأصفر وأبيض»[٤].

«والامتنان باختلاف ألوان الحيوانات فيه إشارة إلى نموذج من بدائع التكوين وبدائع التنسيق التى لايدركها إلا العلماء بالقرآن الكريم علماً يستشعره القلب

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٤ ص ٢١٦١ بتصرف.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) المؤمنون ١٤.

(٤) رواه البزار فى مسنده بسنده عن ابن عباس. مرسلا وموقوفا. جـ٣. ص٥٥٣. ابن كثير وسكت عنه.

ويتحرك به. ويرى به يد الله المبدعة الألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق فى ذلك الكون الجميل.

إن عنصر الجمال يبدو مقصودا قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه.

ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدى عن طريق جمالها.

هذه الألوان العجيبة فى الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التى تفوح ووظيفة النحل والفراش بالقياش بالنسبة إلى الزهرة هى القيام بنقل اللقاح. لتنشأ الثمار وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها.

والجمال فى الجنس هوالوسيلة لجذب الجنس الآخر. لأداء الوظيفة التى يقوم بها الجنسان. وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال.

الجمال عنصر مقصود قصدا فى تصميم هذا الكون وتنسيقه. ومن ثم هذه اللفتات فى كتاب الله المنزل إلى الجمال فى كتاب الله المعروض «الكون»[1].

ويشير العلم الحديث إلى إبداع القدرة فى خلق الحيوانات فيقول: «إن العناصر التى تتألف منها أجساد هذه الحيوانات معلومة. وإن كل حيوان نشأ من تراب هذه الأرض ومائها.

وما من حيوان إلا ويتكون من بويضة من الأنثى ولقاح من الذكر وقد كشف العلم أن لكل نوع من الحيوانات مخططات أصيلة. خلقها الله فى بويضات الأنثى وفى الحيوان المنوى للذكر. وبهذه المخططات العجيبة يتميز كل جنس عن الآخر بصفاته وخواصه مع أن كل الحيوانات قد خلقت من الماء كما يقول القرآن[2]. والله **﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾**[3].

---

(١) فى ظلال القرآن جـ٥ ٢ص ٢٩٤٣.
(٢) قصة الايمان ص ٣٦٥
(٣) النور: ٤٥.

ويقول: فى هذه الآيات الكريمة التى تتحدث عن منافع الحيوانات إشارة إلى بعض الفوائد التى تعود على الإنسان من هذه الحيوانات كالانتفاع بجلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها والانتفاع بلحمها ولبنها.

ومنافع أخرى أشار اليها القرآن الكريم. وتكرارها دلالة على أنه يمكن للإنسان أن يهتدى إلى منافع جديدة مع تقدمه فى علومه المختلفة.

فبالاضافة إلى كل هذه المنافع ماذكر منها ومانكر منها. نبهت الآيات الكريمة إلى نعمة جليلة من هذه النعم. وهى استعمال هذه الحيوانات فى الركوب والتنقل. فى زمن كانت فيه وسائل النقل شبه معدومة.

وجعل الله عز وجل فى هذه الحيوانات من القوة الجسمية والخصائص البدنية مايساعدها على تحقيق هذه الوظيفة المناطة بها وخاصة الحمل. فهى وسيلة التنقل الرئيسية فى الصحراء ذات الظروف الصعبة القاسية.

فهيأ الله عز وجل هذا الحيوان ليقوم بخدمة الإنسان فى تلك الظروف العصيبة التى لايغنى فيها سواه. ولما وصفه الله فيه من تلك الخصائص التى تجعله يتحمل الجوع والعطش الشديدين لمدة طويلة.

فلقد توصل العلم إلى أن سنام الجمل الذى يحوى ٢٢ كغم تقريبا والمكون من المادة الدهنية يطلق كمية لا بأس بها من الماء أثناء تفتيت ذلك الدهن ليكون غذاء الحاجة. فكل (٤٠٠) غم من الشحم المستهلك تنتج ٥, كيلو ماء.

وذلك لأن الشحم المستهلك يطلق الهيدروجين كناتج فى عملية التفتيت هذه. ويتحد الهيدروجين المنطلق مع الاكسجين الداخل فى عملية التنفس فيتكون الماء»[١].

«ونظرا لأن الأكسجين أثقل من الهيدروجين فإن إنتاج ٥, كيلو من الماء لايتطلب وزنا كبيرا من الهيدروجين.

---

(١) العلم فى دنيانا ص٢٧٤ ترجمة زكريا فهمى، سيد رمضان هداره دار النهضة العربية، القاهرة.

واذا افترضنا أن الجمل احتاج إلى سنامه كله أثناء حاجته فانه ينتج عن عملية تفتيت السنام مامقداره بعملية حسابية بسيطة (٢٧,٥) كغم من الماء.

هذا عدا استطاعته شرب كمية كبيرة من الماء تبلغ (١١٠) لترا مرة واحدة لتعويض الماء الذى فقده أثناء الحرمان. كما يساعده فى تحمله هذا خاصية عجيبة فى جسمه تقلل إخراج الماء من جسمه على شكل عرق.

فعندما تكون درجة حرارة الجسم (١٠٥ْف) تكون درجة حرارة سطح جلده الخارجى (١٠٣ْف) ولكى يصل الإنسان لهذا المستوى فان عليه أن يفقد كمية كبيرة من الماء من جسمه على شكل عرق لكى يحافظ على التوازن بين درجة الحرارة جلده، وحرارة جسمه»[١].

أما تحمل الجمل الجوع فانه يستطيع أن يعيد المواد النتروجينية التالفة التى تكون فى الكبد إلى المعدة بدلا من الكليتين. ليعيد استعمالها فى مواد بروتينية جديدة»[٢].

والجمل يستطيع أن يكيف جسمه بتذويب الدهن. أو بتبخير الماء. ولكنه يدخر ذلك لما هو أهم ويتحمل هذا الفرق فى درجة الحرارة من أجل أيام شديدة مقبلة قد يتعرض لها بسبب طبيعة عمله فى الصحراء[٣].

«وأرجل الجمل ذات الخف تساعده على السير فوق الرمال والأهداب الطويلة حول عينيه تمنع عنه الغبار. وشفته المشقوقة تساعده على أكل النباتات الشوكية الصحراوية»[٤].

ومن عجيب تسخير هذه الحيوانات لخدمة الإنسان مع كونها أشد منه قوة. ومع كون مالم يسخر من الحيوانات يعجز الإنسان عن استخدامه مع كونه أقل قوة مما سخر.

---

(١) الحواس فى الانسان والحيوان- ترجمة ثابت قصبجى. المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر بالتعاون مع فرانكيلين. بيروت.

(٢) المصدر السابق.

(٣) عالم الفكر، ص٥٨. عبدالمحسن صالح. تكنولوجيا بيولوجية.

(٤) الله والعلم الحديث. ص٨٤ عبدالرازق نوفن. دار الجيل.

وذلك نعمة أخرى من النعم المتصلة بخلق الحيوانات وهى تسخيرها للإنسان.

«ويقول العلم الحديث عن هذه الأنعام: أن هذه الحيوانات اللبونة من آكلات العشب هى من النفع للإنسان فى المرتبة العظمى فهى تعطيه الحليب واللحم والصوف والوبر والشعر خاصة. فضلا عما ينتفع به من جلودها وعظامها وقرونها.

ويقول العلم: أن الإنسان يحتاج لحفظ حياته إلى أغذية تتألف من المواد البروتينية والمواد الكربوهيدراتية والمواد الدهنية والأملاح المعدنية والفيتامينات.

وأن البروتينات منها الكاملة ومنها الناقصة.

وأن أعظم مصدر للبروتينات الكاملة هو اللحم واللبن.

وأن المواد الدهنية هى أغنى الأغذية فى إنتاج الحرارة وأن من أعظم مصادرها السمن والزبد واللبن واللحم أى الأنعام.

وأما المواد المعدنية فأول مصدر يذكرونه لها هو اللبن.

وكذلك أهم أنواع الفيتامينات موجودة فى اللحم واللبن.

ويقول العلم: أن هذه الأنعام هى وحدها من بين جميع الحيوانات اللبونة تنتج اللبن باستمرار وكثرة عظيمة ولوقطع عنها رضيعها.

وهى وحدها التى تجمع بين هذه الخصائص وبين القدرة على الحرث والحمل والجر»[1].

وإذا كنت قد تحدثت عن الجمل أكثر من غيره من الحيوانات فلا يفوتنى أن أترك الحديث عن الحيوانات ومنافعها وتسخيرها دون الحديث عن النحل ومنافعه وتسخيره وحديث العلم الحديث عنه كذلك.

وقد أشار تعالى إلى النحل وفوائده بقوله عز من قائل:

---

(١) قصة الايمان ص ٣٦٩.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾(١).

«والمراد بالوحى هنا الإلهام والهداية والإرشاد للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون. ثم هى محكمة غاية الاحكام فى تسديسها ورصها بحيث لايكون فى بيتها خلل ثم أذن لها تعالى إذنا قدريا تسخيريا بأن تأكل من كل الثمرات. وأن تسلك الطرق التى جعلها الله تعالى مذللة لها. أى مسهلة عليها حيث شاءت من هذا الجو العظيم والبرارى الشاسعة والأودية والجبال الشاهقة. ثم تعود كل واحدة منه إلى بيتها لاتحيد عنه يمنه ولايسره. بل إلى بيتها ومالها فيه من فراخ وعسل فتبنى الشمع وتقىء العسل من فيها.

مختلفة ألوانه مابين أبيض وأصفر وأحمر وغير ذلك من الألوان الحسنة على اختلاف مراعيها ومأكلها. وفى العسل شفاء للناس من أدواء تعرض لهم»(٢).

وأكد ﷺ ماجاء به القرآن بقوله: «إن كان فى شىء من أدويتكم أو يكون فى شىء من أدويتكم خير. ففى شرطة محجم أو شربة عسل أو لذعة نار توافق الداء. وما أحب أن أكتوى»(٣).

وهنا شبهة تعرض هى أن مجاهد وابن جرير قالا فى قوله تعالى: «فيه شفاء للناس» يعنى القرآن- وهذا القول صحيح فى نفسه لقوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾(٤).

ولكن ليس هو الظاهر هنا من سياق الآية. فإن المذكور فى الآية هنا إنما هو العسل لا القرآن. والضمير يعود على أقرب مذكور.

---

(١) النحل: ٦٩.
(٢) ابن كثير جـ٣ ص ٥٧٥ بتصرف.
(٣) رواه البخارى فى صحيحه مسنده عن جابر بن عبدالله. فتح البارى جـ١٣/ ٢٤٦.
(٤) الاسراء: ٨٢.

كما أن الحديث النبوى الصحيح يشهد لكون المراد بقوله تعالى هنا «فيه شفاء للناس» العسل عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخى استطلق بطنه فقال: «اسقه عسلا» فذهب فسقاه عسلا. ثم جاء فقال: يارسول الله سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا. قال: «اذهب فاسقه عسلا». فذهب فسقاه عسلا. ثم جاء فقال: يارسول الله مازاده إلا استطلاقا.

فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك. اذهب فاسقه عسلا. فذهب فسقاه عسلا فبرئ»(١).

«قال بعض العلماء بالطب فى سبب تكرار الأمر بشرب السعل وعدم البرء من أول مرة: كان هذا الرجل عنده فضلات فلما سقاه عسلا وهو حار تحللت فأسرعت فى الاندفاع فزاده اسهالا. فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره. وهو مصلحة لأخيه ثم سقاه فازداد التحليل والدفع ثم سقاه فكذلك.

فلما اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن استمسك بطنه وصلح مزاجه. واندفعت الاسقام والالآم»(٢).

هذا ويتبين لنا مما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم: «الشفاء فى ثلاثة. فى شرطة محجم أو شربة عسل أو كية نار وأنهى أمتى عن الكى»(٣).

يتبين لنا من ذلك الحديث الشريف مدى الإشادة بعسل النحل فى العلاج. وحصر العلاج فى ثلاث. العمل العسل واحد منها. فكأنه يمثل فى الصيدلية الإسلامية ثلثها.

وأما كتب الطب الحديث. فتذكر من فوائد عسل النحل الكثير جاء فى كتاب العلاج بعسل النحل مايفيد أن عسل النحل لفت أنظار الناس من قديم الزمان وعرفوا قيمته الغذائية وأهميته كدواء.

---

(١) رواه البخارى مسلم فى صحيحهما عن أبى سعيد الخدرى. البخارى كتاب الطب جـ٧ ص ١٥٩، مسلم جـ١٤ ص ٢٠٢.

(٢) ابن كثير جـ٢ ص٥٧٥، ٥٧٦.

(٣) رواه البخارى جـ١٢ ص٢٤٤ فتح البارى على صحيح البخارى.

من أجل هذا فقد تعودوا تناوله كغذاء والاستشفاء به كدواء.

يقول مترجم الكتاب: «ولقد كان العسل طعاما مفضلا لدى كل الناس وفى كل العصور فالأهرامات والمسلات. وهى من بقايا قدماء المصريين تحمل رموزا هيروغليفية تصف استعمالات العسل كغذاء ودواء.

وفى الأساطير الهندية القديمة يأخذ النحل مكان الشرف. وقديما نسب الهنود إلى العسل كثيرا من الرموز الشفائية والمقوية.

وكان الدواء الذى يهب السعادة للناس ويحفظ الشباب مصنوعا من العسل.

وفى اليونان القديمة كان العسل يعتبر أغلى منح الطبيعة.

وكان أبو قراط الطبيب الكبير يأكل العسل باستمرار. وقد استعان به كعلاج لكثير من الأمراض[1].

وعالج أحد كبار الجراحين بمستشفى نوزفولك بانجلترا ويدعى ميخائيل بولمان. الجروح بعسل النحل. فنتج عن ذلك سرعة التئام الجروح. وإزالة آثارها دون أن تترك تشوهات.

وذلك أن العسل قاتل للجراثيم وماص للماء بصورة خاصة.

ويظهر فعله هذا بعد تغطية الجروح به بوقت قصير[2].

ومما تقدم تبين لنا أن عسل النحل جمع الفوائد. وماهو إلا نتاج صنف من الحيوان. وبهذا تعظم المنة علينا لله عز وجل بخلق الحيوانات وتسخيرها للإنسان.

---

(١) العلاج بعسل النحل ص١٠-١١ بتصرف..

(٢) المصدر السابق ص١٠ ، ١٥ بتصرف.

٥ ـ تسخير النار

أشار القرآن الكريم إلى هذه النعمة:

فقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ (٧٣) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾[٢].

اذا تدبرنا آية يس فإن المشاهدة الأولية الساذجة تقنع بصدق هذه العجيبة. العجيبة التى يمرون عليها غافلين. عجيبة هذا الشجر الأخضر الريان بالماء يحتك بعضه ببعض فيولد نارا ثم يصير هو وقودا النار. بعد اللدونة والاخضرار والمعرفة العلمية بطبيعة الحرارة التى يختزنها الشجر الأخضر من الطاقة الشمسية التى يمتصها ويحتفظ بها وهو ريان بالماء ناضر بالخضرة والتى تولد النار عند الاحتكاك. كما تولد النار عند الاحتراق. هذه المعرفة العلمية تزيد العجيبة بروزا فى الحس ووضوحا. والخالق هو الذى أودع الشجر خصائصه هذه والذى أعطى كل شىءخلقه ثم هدى. غير أننا لانرى الأشياء بهذه العين المفتوحة ولانتدبرها بذلك الحس الواعى فلاتكشف لنا عن أسرارها العجيبة. ولاتدلنا على مبدع الوجود. ولو فتحنا لها قلوبنا لباحت لنا بأسرارها ولعشنا معها فى عبادة دائمة وتسبيح»[٣]. شكرا لله عز وجل على نعمة النار.

«ويقول العلم الحديث فى تفسير هذه الآيات ان النار هى عبارة عن ظاهرة لتزايد الحرارة الناتج من احتراق بعض الأجسام وأن الاحتراق بمعناه العام هو عبارة عن ظواهر كيماوية تحصل عند اتحاد جسم من الاجسام مع الاوكسجين لكن الاحتراق الذى يولد الحرارة انما يحصل من اتحاد الأوكسجين مع الكربون، وهذا

---

(١) يس: ٨٠.

(٢) الواقعة: ٧١ ـ ٧٤.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٥ ص ٢٩٧٧.

الكربون موجود فى الطبيعة فى أجسام مختلفة من الجمادات والأحياء ولكن أعظم وجوده وأيسره فى النباتات فأنسجة النبات كما تعلم كلها من الكربون. بل يكاد يكون الكربون العنصر الوحيد فى تركيب جسم النبات وغذائه وثماره.

فهذه الآيات ما أعظمها وأوضحها فى بيان القدرة والحكمة فالنار من أعظم الضروريات لحياة الإنسان . فى دفئه وطعامه وصناعته ، ولو وجدت مكونه كالماء والهواء لأهلكت الحياة أو كانت خطرا دائما عليها. فانظر كيف أعد الخالق لها نواميسها وعناصرها، وجعلها كامنة فى الشجر الأخضر الطرى المائى الذى لاتتوقع كون النار فيه تلك القدرة العظيمة والحكمة الباهرة التى أنشأت لنا شجرة النار . فإن هذا التذكير مما يثير عجب البدوى الساذج ويدله على قدرة الخالق. كما يثير عجب العالم فيدرك ما وراءه من أسرار القدرة والحكمة والنظام والقصد والتصميم[1].

ولقد كان كشف الإنسان للنار حادثا عظيما فى حياته. ربما كان أعظم حادث بدأت منه حضارته ولكنها أصبحت أمرا مألوفا لايثير الاهتمام. والإنسان يوقد النار. ولكن من الذى أنشأ وقودها؟ من الذى أنشأ الشجر الذى توقد به النار. والشجر الذى تتولد منه النار فمن احتكاك فرع شجرة بفرع شجرة أخرى كان العرب يوقدون نارهم على الطريقة البدائية التى لاتزال مستعملة فى البيئات البدوية حتى الآن.

«وفى المثل: لكل شجرة نار واستمجد المرخ والغفار» وفيه أشار إلى كون النار أنواع الشجر. غير أنها أوضح ما تكون فى شجر المرخ والغفار.

وهما نوعان من الشجر ينبتان بأرض الحجاز فيأتى من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين. ويقدح أحدهما بالأخرى فتتولد النار من بينهما كالزناد[2].

---

(١) قصة الايمان ص٣٥٩.
(٢) ابن كثير جـ٣ ص٥٨٢.

هذا وقد جعل الله نار الدنيا تذكرة لنا بنار الآخرة. فهى تذكرنا بالنار الكبرى نار الآخرة وتلك الفائدة جليلة بجانب فوائدها العديد فى حياتنا الدنيا. تلك الفوائد الدنيوية التى جعلت بعض مقاييس الحضارة مقدار استهلاك الأمة من الكهرباء.

«وقد جعل الله نار الدنيا متاعا للمقوين. قال مجاهد: يعنى المستحقين من الناس أجمعين فإن الحاضر والبادى والغنى والفقير الجميع محتاجون إليها للطبخ والاصطلاء والإضاءة وغير ذلك من المنافع»[1].

وقد ختم الله الحديث عن نعمة تسخير النار بالحث على شكرها بالتسبيح وهو تنزيه المولى عز وجل الذى بقدرته خلق النار وسخرها لنا.

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ٢٩٧.

٦ - نعمة تسخير الشمس والقمر والكواكب والنجوم

امتن المولى عز وجل على عباده بنعمة تسخير الشمس والقمر والكواكب فى آيات كثيرة من القرآن الكريم. تذكيرا للعباد بهذه النعمة وحثا لهم على شكرها.

قال عز من قائل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾[٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ

---

(١) إبراهيم: ١٤

(٢) الرعد: ٢.

(٣) نوح: ١٦.

(٤) يونس: ٥.

(٥) الأعراف: ٥٤.

(٦) الأنعام: ٩٦

(٧) الأنعام: ٩٧.

مَارِدٍ ﴿٧﴾ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾(٤).

وبتدبر هذه الآيات الكريمة نجدها تشير إلى بعض المنافع التى ينتفع بها بسبب تسخير المولى عز وجل للشمس والقمر والنجوم والكواكب لنا. ولكنها بالتأكيد لاتذكر جميع مافيها من منافع لنا. كما أنها لاتتحدث عن إبداع القدرة الالهية فى خلقها.

وقد استطاع العلم الحديث التوصل إلى معرفة بعض أسرار هذه المخلوقات كما أدرك طرفا من منافعها التى سخرت لنا فيها وسلط الأضواء عليها.

هذا ومن إبداع الله عز وجل فى تسخير الشمس والقمر أنهما يجريان بحساب مقدر مقنن لايتغير ولايضطرب. بل لكل منهما منازل يسلكها فى الصيف والشتاء. فيترتب على ذلك اختلاف الليل والنهار طولا وقصرا. وقد صرح القرآن بذلك فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ﴾(٥) كما قال تعالى مشيرا إلى ذلك أيضا: ﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(٦).

وقد أشارت الآيات الكريمة إلى ثلاث منافع فى تسخير النجوم أشار اليها بعض السلف فى قوله «من اعتقد فى هذه النجوم غير ثلاث فقد أخطأ وكذب على

---

(١) الصافات: ٦: ١٠.
(٢) الحجر: ١٨.
(٣) الجن: ٩
(٤) الجن: ٨.
(٥) يونس: ٥..
(٦) يس: ٤٠.

الله سبحانه وتعالى». تلك الثلاث هى أن الله جعلها زينة للسماء. ورجوما للشياطين ويهتدى بها من ظلمات البر والبحر»[1].

وقد فصل ﷺ كيفية اختطاف الشياطين واستراقهم للسمع ورجمهم بالشهب فقال: «اذا قضى الله تعالى الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله. كأنه سلسلة على صفوان. فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم؟

قالوا للذى قال: الحق وهوالعلى الكبير .

فيسمعها مسترق السمع. ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض.

- ووصف سفيان أحد الرواة بيده فحرفها ونشر بين أصابعه- فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته. ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها. وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة.

فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا فيصدق بتلك الكلمة التى سمعت من السماء»[2].

وفى رواية أخرى مزيد تفصيل. فقد روى الإمام احمد فى مسنده بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ جالسا فى نفر من أصحابه. فرمى بنجم فاستنار فقال ﷺ: «ماكنتم تقولون إذا كان مثل هذا فى الجاهلية»؟ قالوا: كنا نقول: ولد عظيم أو يموت عظيم.

قال معمر الراوى عن الزهرى: قلت للزهرى أكان يرمى بها فى الجاهلية؟

قال: نعم ولكن غلظت حين بعث النبى ﷺ. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فانها لايرمى بها لموت أحد ولالحياته. ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش.

---

(١) ابن كثير جـ٢ ص ١٥٩.

(٢) رواه البخارى فى صحيحة بسنده عن أبى هريرة جـ٦ ص١٠٠.

فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ويخبر أهل كل سماء سماء حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء.

وتخطف الجن السمع فيرمون. فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون»(١).

ويحدثنا العلم الحديث عن إبداع الله عز وجل فى خلق هذه المخلوقات العظيمة وتسخيرها لخدمة الإنسان. فيقول:

«الشمس أهم الأجرام السماوية بالنسبة إلينا إذ نستمد منها الحرارة والضوء. وهما العاملان الأساسيان للحياة على سطح الأرض.

والشمس أم السيارات جميعا والمذنبات والشهب. والجدة الكبرى للتوابع والأقمار.

وأخت لملايين النجوم التى تزين السماء بضوئها المتلألىء.

والشمس أقرب النجوم إلينا يقدر بعدها بحوالى ٩٣ مليون ميل.

ولما كانت سرعة الضوء تساوى «١٨٦٠٠٠» ميل فى الثانية نجد أن ضوء الشمس يصل إلينا فى زمن يقدر بثمانى دقائق تقريبا بينما يصل إلينا ضوء أقرب النجوم بعد الشمس فى زمن يقدر بأربع سنين ونصف.

ولو حاولنا السفر إلى الشمس فى قطار يسير بسرعة خمسين ميلا فى الساعة دون توقف لوصلنا إلى الشمس فى (٢١٠) من السنين.

والشمس سطحها هائج يغلى ويتفجر بشتى الطرق. وجوفها مركز هائل من مراكز توليد القوة. لاينقطع عمله على مر الدهور. فالطاقة التى تتولد داخلها. تجعلها ساخنة إلى حد عظيم. فيندفع نحو السطح تيار عظيم من الحرارة. لينصب فى الفضاء ضياء وهاجا.

وقدر مايصل إلى البوصة المربعة فى سطح الشمس من الطاقة يعادل قوة اثنين وستين حصانا ميكانيكيا. ولأجل أن تتناسب هذه الطاقة العظيمة فى الفضاء تتقلب

---

(١) المسند جـ١ ص٢١٨ وقد أخرجه مسلم فى صحيحه. ويكفى تخريج البخارى السابق له للحكم بصحته.

الطبقات العليا من سطح الشمس لتعرض نحو الفضاء أشد جنباتها حرارة فيغلى السطح. كما يغلى سطح الماء عندما تبلغ درجة الحرارة حدا معينا. وتنساب الحرارة منه إلى الجو.

وقد يكون هذا غير كاف لتعريف تلك الكميات العظيمة من الطاقة تنبعث من سطح الشمس فتندلع منها نافورات كثيرة من اللهب إلى مسافات كبيرة فى الفضاء.

ويشاهد على سطح الشمس آنئذ فجوات عظيمة فاغرة أظلم نسبيا من باقى السطح المتوهج وهى تشبه فوهات البراكين تقذف بالحمم من داخل الشمس. ونسميها كلف الشمس. ويختلف عددها على مر السنين وتتبع فى قلتها وكثرتها دورة ربانية تقدر بإحدى عشرة سنة. ومنها ماهو كبير جدا يسع الأرض. ويصحبها عاد ة تأثير فى مغناطيسية الأرض وتكون حرارة الشمس أشد نسبيا عندما يكثر الكلف.

ولشدة الحرارة على سطح الشمس نجد أن جوها يحوى عناصر مواد فلزية ثقيلة كالبلاتين والرصاص. على شكل أبخرة. لأن حرارة الشمس من الشدة بحيث لايتسنى حتى لمثل هذه العناصر أن تبقى على حالاتها المألوفة لنا.

وتقدر الحرارة على السطح بحوالى ستة آلاف درجة مئوية. أما فى جوف الشمس فتقدر درجة الحرارة بالملايين. وكذا الضغط عند المركز يقدر بحوالى أربعين ألف مليون ضغطا جويا. ولما كان من تأثير ارتفاع الحرارة على الأجسام حدوث التمدد فى أحجامها. بينما ينشأ عن ارتفاع الضغط انكماشها. نجد أن المادة داخل الشمس تقع تحت تأثير عاملين قويين متضادين، يفوز الأخير منهما على الأول فوزا ضئيلا.

وقد أثبتت الأرصاد الطيفية للشمس والنجوم أنه بسبب الحرارة الشديدة فيها قد تفككت جزئيات العناصر إلى الذرات المكونة لها.

وأن فى أجواء بعض النجوم الأكثر حرارة نجد أن الذرة نفسها تتحطم.

ومن المعروف أن الذرة تتكون من جسيم عند مركزها يعرف بالنواة قد نظم حوله عدد من جسيمات أقل شأنا وكتلة تعرف بالكهارب. تدور من حوله فى مدارات. كما تدور السيارات حول الشمس والكهارب متشابهة فى العناصر المختلفة كلها. أما النوى «جمع نواة» فليست متشابهة ويعزى اختلاف خواص العناصر إلى هذا السبب.

وجميع هذه الجسيمات مشحونة بالكهرباء الذى يعزى اليها احتفاظ هذه الأسر الصغيرة. الذرات بكيانها. وتحت تأثير الحرارة تفقد بعض الذرات قبضتها على الكهارب الأبعد من المركز فالتى تليها وهكذا حسب درجة الحرارة.

وعلى ذلك نستطيع أن نتصور أن الذرة الكاملة ليس لها وجود داخل الشمس. وأن المادة عند المركز تتكون من مجوعة متنوعة من النوايا والكهارب.

كما يجب أن نتذكر أن بعض العناصر تستطيع أن تحتفظ بأقرب كهرب أو اثنين من كهاربها حتى عند تلك الدرجة العالية.

فيتكون من أمثال هذه العناصر ذرات مصغرة.

أما الضغط العالى فى جوف الشمس فمن شأنه أن يجعل المادة مكدسة إلى درجة لايكاد يتصورها العقل.

ومن المعروف أن شعاع الضوء له وزن. فالاشعاع النجومى الذى ينصب فى الفضاء منذ الأزل يستنفد على الدوام من أوزان النجوم جميعها.

ويدل الحساب على أن الاشعاع الكلى الذى ينبعث من الشمس فى الثانية يزن أربعةملايين طن.

وعلى المعدل السالف الذكر الذى تتناقص به مادة الشمس بالاشعاع نجد أن الذرات الباقية فيها حتى وقتنا هذا تكفيها ١٥ مليون سنة.

فاذا صحت هذه التقديرات وجدنا أنه لم يزل للشمس بقية مديدة فى عمرها الطويل.

وهذا ولما كان متوسط بعد الأرض عن الشمس ٩٢,٩ مليون ميل استنتجنا بسهولة أن قطر الشمس هو (٨٦٥٠٠٠) أو مايعادل مائة مرة قطر الأرض.

وأن حجم الشمس يساوى مليون وثلثمائة ألف مرة حجم الأرض.

ولما كان وزن الشمس (٣٣٠٠٠٠) مرة وزن الأرض. استنتجنا أن متوسط كثافة المادة فى الشمس يعادل ربع كثافة الأرض تقريبا.

نصيب الأرض من الإشعاع الكلى للشمس

سبق أن ذكرنا أن مايتشعشع من البوصة المربعة من سطح الشمس من طاقة الحرارة والضوء فى الفضاء يقدر باثنين وستين حصانا ميكانيكيا. ونظرا لصغر الحيز الذى تشغله الكرة الأرضية من الفضاء المحيط بالشمس. نجد أن مايصيب الأرض من الاشعاع الكلى للشمس يقدر بأقل من جزء واحد من ألفين مليون جزء.

وهذا النصيب المتواضع الذى تأخذه الأرض يقدر بحوالى خمسة ملايين حصانا ميكانيكيا فى كل ميل مربع من سطح الأرض.

وقدرالعالم الانجليزى «اسبنسرجونز» ثمن طاقة الاشعاع التى تستمدها الأرض من الشمس فى الثانية الواحدة بالأسعار الموجودة فى زمنه بحوالى مائتى مليون جنيه انجليزى. فكم نحن مدينون للشمس[1] التى خلقها المولى عز وجل وسخرها لنا.

هذا طرف من حديث العلم الحديث عن الشمس. تكوينها ووصفها ومنافعها لنا.

فما هو حديث العلم عن القمر والنجوم والكواكب أيضا.

يقول العلماء: ان هذا القمر جرم غير منير. ويستمد نوره بالانعكاس من الشمس المضيئة بذاتها ليعكسه بدوره إلى الأرض.

وأنه تابع للأرض يسايرها ويدور معها. ومثلها من الغرب إلى الشرق وأن له دورتين دروة حول نفسه ودورة حول الأرض.

ولكن حكمة الله سبحانه اقتضت أن يتم الدورتين فى وقت واحد وأن يبقى متجها بأحد وجهيه إلى الأرض. فلا ترى وجهه الثانى أبدا.

ذلك أن القمر يتم دورته حول نفسه. ودورته حول الأرض فى مدة شهر قمرى واحد.

والقمر فى دورته الشهرية هذه يقطع كل يوم ١٣ درجة ويتأخر كل يوم ٤٩ دقيقة نحو الشرق ليكشف لنا عن جانبه المنير كشفا متدرجا يبدو به هلالا ثم بدرا ثم يرجع كالعرجون القديم حتى يختفى.

ويظهر من جديد بعد ٢٩ يوما وثمانى ساعات هلالا جديدا نعرف به عدد السنين والحساب.

والقمر أقرب أجرام السماء إلى الأرض فلا يبعد عنها سوى ٢٤٠ ألف ميل تقريبا. وكتلته هى جزء من ٨٠ جزءا من كتلة الأرض.

هذا وللكواكب الأخرى أقمار منها الكبير والصغير.

هذا ولو لم يكن القمر يدور حول نفسه وحول الأرض فى آن واحد ولو لم يكن يقطع فى دورته كل يوم ١٣ درجة. ويتأخر ٤٩ دقيقة. لما كان ينتقل فى منازله المختلفة لنرى وجوهه المتغيرة. ولما كان يتم الدورة فى شهر واحد ليستأنف شهرا جديدا نعرف به عدد السنين والحساب.

ولو كانت المسافة بين القمر والأرض أقل مما هى أو أكثر. أو كان حجمه أقل مماهو عليه أو أكبر. أوكانت دورته أطول أو أقصر لاختل هذا النظام كله. بل ربما زال القمر كله.

لأنه لو قرب من الأرض لزاد جذبه فأصبح المد على الأرض طاغيا يغمر اليابسة كلها. وإن تزايد هذا القرب جذبته الأرض فوقع عليها ولو بعد عن الأرض لتعطل عمل المد والجذر بقلة الجذب.

وإن زاد البعد جذب القمر كوكب آخر اليه وحرمنا من نعمه.

ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع قصيرة عما هى عليه أو أطول لاختل هذا النظام الذى جعل الله لنا به القمر حسبانا[1].

وكثافة القمر أقل من كثافة الأرض وتقدر بحوالى ثلاثة أمثال كثافة الماء. أو ما يعادل كثافة أحجار الجرانيت والصخور السطحية للأرض.

وتبلغ الجاذبية على سطحه سدس الجاذبية على سطح الأرض. ولهذا نجد أن مايزن طنا على سطح الأرض يزن فقط سدس طن على سطح القمر.

ومن أجل هذا نجد أن القمر ليس له غلاف هوائى. ولذا فهو عالم ميت لاحياة فيه»[2].

«وكون الأرض تدور دورتها هذه حول نفسها أمام الشمس. وكون القمر بهذا الحجم وبهذا البعد من الأرض. وكون الشمس كذلك بهذا الحجم وهذا البعد وهذه الدرجة من الحرارة. هى تقديرات من العزيز العليم. ذى السلطان القادر والعلم الشامل.

ولولا هذه التقديرات ما انبثقت الحياة فى الأرض على هذا النحو ولما انبثق النبت والشجر من الحب والنوى.

إنه كون مقدر بحساب دقيق ومقدر فيه حساب الحياة ودرجة هذه الحياة. ونوع هذه الحياة وكون لا مجال فيه للصدفة[3].

---

(١) قصة الايمان ص٣٢٨، ٣٢٩ بتصرف.

(٢) فى أعماق الفضاء ص٣٩ بتصرف.

(٣) فى ظلال القرآن جـ٢ ص١١٥٧.

٧ ـ من النعم تسخير الحفظة لحفظ الإنسان

قال تعالى مشيرا إلى تلك النعمة:

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾(١).

«فللعبد ملائكة يتعاقبون عليه حرس بالليل وبالنهار يحفظونه من الأسواء والحادثات».

كما جاء فى الصحيح تفصيل ذلك قال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار. ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر. فيصعد اليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بهم كيف تركتم عبادى؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»(٢).

والملائكة الحفظة إنما يحفظون العبد مما لم يقدر عليه. فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه «قال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك. إلا شىء أذن الله فيه فيصيبه. وقال أبو مجلز: جاء رجل من مراد إلى على رضى الله عنه وهو يصلى فقال: احترس فان ناسا من مراد يريدون قتلك.

فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر. فاذا جاء القدر خليا بينه وبينه إن الأجل جنة حصينة»(٣).

«هذا وقد اختلف العلماء فى الحفظة والكتبة. هل هما طائفتان من الملائكة. المقصود بكل واحدة منها غير المقصود بالأخرى. أم هما طائفة واحدة؟.

فذهب فريق إلى أنهما طائفتان. فالحفظة غير الكتبة. وعمل كل منهما مغاير لعمل الأخرى.

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) رواه البخارى جـ٢ ص١٤٥ باب فضل صلاة العصر. كتاب الصلاة

(٣) ابن كثير جـ٢ ص ٥٠٣- ٥٠٤ بتصرف.

فالمراد بالحفظة عندهم: الحافظون للعباد من المضار. وهو الرأى الراجح فالمعقبات فى الآية غير الكاتبين.

ويقوى هذا أنه كما قال القرطبى لم ينقل أن الحفظة يفارقون العبد فى حال من الأحوال وانما الذى نقل أنهم يلازمونه دائما.

بخلاف الكتبة فانهم يفارقونه عند قضاء حاجته وعند الجماع وعند الاغتسال كما جاء فى حديث ابن عباس: «إن معكم من لايفارقكم إلا عند الخلاء والجماع واستحيوهم وأكرموهم.

وذهب فريق آخر إلى أن الحفظة والكتبة طائفة واحدة.

وقالوا: أن المعقبات فى الآية هم الكتبة. واستدلوا بقوله تعالى: «وأن عليكم لحافظين كراما كاتبين يعلمون ماتفعلون».

وذلك بناء على أن الأوصاف المذكورة إنما هى صفات لصنف واحد من الملائكة وقد ذكر ضمن هذه الأوصاف الحفظة والكتابة.

ورد الفريق الأول الذى فرق بين الحفظة والكتبة. بأن «كاتبين» هنا طائفة موصوفة بالعلم غير طائفة الحفظ. فوصفهم بالحفظ هنا مع الكتابة انما حفظ مايكتبون لاحفظ العبد من المضار.

بدليل أن قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قد اقتصر فيه على الحفظ فى بيان مهمة المعقبات فدل ذلك على أن الكتابة ليست من عملهم. وانما هى من عمل آخرين غيرهم.

والحفظة هم الملائكة الذين وكلهم الله بالعبد ليحفظوه من المضار سواء أكان هذا العبد إنسانًا أو ملكًا.

وقد تردد الجزولى فى القول بوجود حفظة على الجن والملائك

ثم جزم بوجودهم على الجن. واستبعد القول بذلك فى الملائكة.

قال صاحب الجوهرة: «ولم أقف على هذا القول لغير الجزولى» .

وقال البيجورى: والظاهر أن الملائكة لاحفظة عليهم.

وهؤلاء الحفظة إنما يحفظون العبد من القضاء المعلق. أما المبرم فلامهرب للعبد منه فيبتعدون عنه لينزل به.

وعددهم كما ورد فى إحدى الروايات من حديث عثمان عن النبى ﷺ: لكل آدمى عشرة بالليل وعشرة بالنهار.

واحد عن يمينه وواحد عن شماله. وواحد أمامه. وآخر خلفه واثنان على جنبيه وواحد على ناصيته. واثنان على شفتيه. وواحد يحرس فمه من الأفاعى أن تدخله»[1].

وبهذا تتضح نعمة تسخير الحفظة من الملائكة لحفظ الإنسان مما لم يقدر عليه. ويعظم شكر هذه النعمة بمقدار عظمها.

(١) كتاب عقائد التوحيد. من تحفة المريد على الجوهرة. لعبد الكريم حسن القوى ص ٦٢- ٦٦ بتصرف.

الفصل الأول

السبب الصارف للكثير من الناس عن الشكر

أهم سبب صارف للناس عن الشكر هو جهلهم بالنعمة وغفلتهم عنها.

يقول ابن قدامة المقدسى : إن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة الا للجهل والغفلة فإنهم منعوا بسبب الجهل والغفلة عن معرفة المنعم.

ولايتصور شكر النعمة الا بعد معرفتها. ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله والشكر لله.

ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التى أريدت بها.

والغفلة عن النعم لها أسباب:

أحدها: أن الناس لجهلهم لايعدون مايعم الخلق فى جميع أحوالهم نعمة. حيث لايرى أحدهم اختصاصه .

فلا تراهم يشكرون الله على نعمة الهواء.

ولو حبسوا فى صمام أو بئر ماتوا غما.

فإن أبتلى أحدهم بشىء من ذلك، ونجا منه قدر ذلك نعمة يشكر الله عليها. وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقفا على سلب النعمة فترة منهم. ثم ردها عليهم.

وشكر النعمة فى جميع الأحوال أولى من شكرها فى بعض الأحوال دون بعض فلا ترى البصير يشكر صحة بصره إلا إذا اشتكى بصره أو فقده. ثم شفاه الله وأعاد اليه بصره. عند ذلك يعرف قيمة نعمة البصر ويشكر الله عز وجل عليها.

وهو فى ذلك مثل العبد السوء. حقه أن يضرب دائما. حتى إذا ترك ضربه ساعة عد ذلك منة من سيده.

فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر.

فصار الناس لايشكرون نعم الله عليهم إلا إذا فقدوها بعض الوقت ثم عادت اليهم.

ولقد شكا بعضهم فقره إلى بعض أصحاب البصائر. وأظهر شدة اغتمامه به:

فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا.

فقال له: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا.

فقال له: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألف درهم؟. فقال: لا.

فقال له: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم؟ فقال: لا

فقال له: أما تستحى أن تشكر مولاك وله عندك عروض بخمسين ألف درهم.

وحكى عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى فى المنام كأن قائلا يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟. قال: لا.

قال: فسورة هود. قال: لا. قال: فسورة يوسف. قال: لا.

قال له: فمعك ماقيمته مائة ألف دينار. وأنت تشكو. فأصبح وقد سرّى عنه(1).

وهذا القصص صحيح فى نفسه من حيث معناه. فحواس الإنسان لاتقدر بمال. ومن أعطاه الله القرآن. فقد أعطاه خيرا كثيرا.

ولذلك لاتحتاج إلى تحقيق سند هذه الروايات.

«ودخل ابن السماك يوما على بعض الخلفاء وبيده كوز ماء هم بشربه. فقال له الخليفة عظنى. فقال له: هذه الشربة لو لم تعطها إلا ببذل جميع أموالك والا بقيت عطشانا فهل كنت تبذل جميع أموالك فى الحصول عليها؟ قال: نعم.

(1) الاحياء للغزالى جـ٤ ص١٢٤، منهاج القاصدين ص٢٠٠ بتصرف.

فقال له: فلو لم تعطها إلا بملكك كله فهل كنت تتركه؟. قال: نعم. قال له: فلا تفرح بملك لايساوى شربة ماء[1].

وهذا النص فيه التعريف بقدر نعمة الماء. وإن كان ابن السماك قصد أولا التهوين بشأن ملك هارون الرشيد.

فشربة ماء إذا لم يمكن الحصول عليها الا بملك هارون الرشيد بذل فيها ملك هارون فلم تعرف قيمة هذه النعمة نعمة شربة ماء الا عند تعسر الحصول عليها.

مما يؤكد ماقلته من أن أهم سبب صارف للناس عن الشكر إنما هو الجهل بالنعمة والغفلة عن الإحساس بها بسبب كثرتها واعتيادها.

هذا وفى رواية أخرى لهذه القصة أنه قال له بعد أن شرب أسألك ياأمير المؤمنين لو منعت خروجها كم كنت تبذل لخروجها؟. فقال له: ملكى كله.

فقال له: ان ملكا لايساوى بولة لحرى أن لاينتازع عليه.

وفى تلك الرواية أيضا الإشارة إلى نعمة يغفل عنها الكثير من الناس هى نعمة تسهيل خروج الحدث. ولا يحسون بها إلا إذا حبس الحدث فى بطونهم.

ومن هنا علمنا سيدنا رسول الله أن نشكر الله على خروج الحدث علمنا أن نقول عقب الخروج من الخلاء:

«الحمد لله الذى أذاقنى لذته. وأبقى فى فائدته. وأذهب عنى مضرته».

نعم إن ذهاب مضرته. بتسهيل خروج الفضلات نعمة وأى نعمة غير أن الكثير من النعم يغفل عنها بسبب اعتيادها.

ولايشعر بها إلا إذا ابتلى بالاحتباس. ثم فرج الله عنه آنذاك يشعر بأن تسهيل خروج الفضلات نعمة وأى نعمة.

نعم إن أهم سبب صارف للناس عن شكر الله عز وجل على نعمة إنما هو الجهل بالنعمة والغفلة عنها ومن هنا كان القرآن الكريم دائم التذكير بنعم الله عز

---

(١) الاحياء للغزالى جـ٤ ص١٢٤، منهاج القاصدين ص٠٠٢ بتصرف.

وجل على عباده. وآيات التذكير بالنعم كثيرة مبثوثة فى ثنايا القرآن الكريم.

فيها يذكرنا القرآن بالنعم الأنفسية تارة. وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ وقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾. وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾.

ويذكرنا بالنعم الآفاقية تارة أخرى. بقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾.

وقد سبق تفصيل القول عن هذه النعم فى الباب السابق.

هذا ومن الأسباب الصارفة للناس عن الشكر. الاستدراج. وذلك عقوبة لهم وإليه الاشارة بقوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2].

«ذلك أن الرخاء ابتلاء آخر كابتلاء الشدة وهو مرتبة أشد وأعلى من مرتبة الشدة. والله يبتلى بالرخاء كما يبتلى بالشدة الطائعين والعصاة سواء بهذه وبذلك سواء.

والمؤمن يبتلى بالشدة فيصبر، ويبتلى بالرخاء فيشكر. ويكون أمره كله خيرا. وفى الحديث: «عجبا للمؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»[3].

فأما هذه الأمم التى كذبت بالرسل. والتى يقص الله من أنبائها هنا. فإنهم لما نسوا ماذكروا به وعلم الله سبحانه أنهم مهلكون. وابتلاهم بالبأساء والضراء فلم يتضرعوا.

---

(١) الأعراف : ١٨٢، القلم: ٤٤.

(٢) الأنعام: ٤٤.

(٣) رواه مسلم جـ١٨ ص١٢٥. كتاب الزهد

فأما هؤلاء، فقد فتح الله عليهم أبواب كل شيء للاستدراج بعد الابتلاء.

والتعبير القرآني «فتحنا عليهم أبواب كل شيء» يصور الأرزاق والخيرات والمتاع والسلطان متدفقة كالسيول. بلا حواجز ولاقيود. وهي مقبلة عليهم بلا عناء ولا كد ولا حتى محاولة. انه مشهد عجيب.

غرتهم الخيرات والأرزاق المتدفقة. واستغرقوا في المتاع بها والفرح لها - لا شكر ولاذكر - وحلت قلوبهم من الاختلاج بذكر المنعم[1].

ومحل الشاهد هنا هو أن من الأسباب الصارفة للعباد عن الشكر إرادة الله عز وجل عقاب الظالمين. فيغرهم بالنعم ويصرفهم عن شكرها استدراجا لهم ومكرا بهم».

يقول الأستاذ سيد قطب في تفسيره مشيرا إلى استدراج الله عز وجل لمن لايشكر نعمه.

«ولقد كنت في أثناء وجودي في الولايات المتحدة الامريكية أرى رأي العين مصداق قول الله سبحانه فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء».

فان المشهد الذي ترسمه هذه الآية مشهد تدفق كل شيء من الخيرات والأرزاق بلا حساب. لايكاد يتمثل في الأرض كلها كما يتمثل هناك.

وكنت أرى غرور القوم بهذا الرخاء الذي هم فيه. وشعورهم بأنه وقف على «الرجل الأبيض» وطريقة تعاملهم مع الملونين في عجرفة مرذولة وفي وحشية كذلك بشعة. وفي صلف على أهل الأرض كلهم لايقاس اليه صلف النازية.

كنت أرى هذا فاذكر هذه الآية وأتوقع سنة الله. وأكاد أرى خطواتها وهي تدب إلى الغافلين»[2].

إن الشكر هو سياج النعم الذي يحفظها من الزوال. فإذا أنعم الله على عبده بنعمة ولم يشكر الله عليها فهو مستدرج.

---

(١) في ظلال القرآن جـ٢ ص ١٠٩٠.

(٢) في ظلال القرآن جـ٢ ص ١٠٩١.

«فان غفل العبد عن شكر هذه النعم ثم دامت عنده فلايفتر فقد يكون ذلك استدراجا كما أشار إلى ذلك ابن عطاء الله السكندرى فى حكمه بقوله: «خف من وجود إحسانه إليك. ودوام إساءتك معه أن يكون ذلك استدراجا. قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾.

والإستدراج هو كون المحنة فى عين المنة. وهو مأخوذ من درج الصبى. أى أخذ فى المشى شيئا بعد شىء. ومنه الدرج الذى يرتقى عليه إلى العلو.

فالمستدرج هو الذى تؤخد منه النعمة شيئا بعد شىء وهو لايشعر. قال تعالى: سنتستدرجهم من حيث لايعلمون.

أى نأخذهم بالنعم حتى نجرهم إلى النقم وهم لايشعرون .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فخف أيها العبد من دوام إحسانه اليك بالصحة والفراغ وسعة الأرزاق وعدم شكرك للملك الكبير أن يكون ذلك استدراجا منه تعالى. قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾.

قال سهل ابن عبدالله رضى الله عنه: نمدهم بالنعم وننسيهم شكرها. فاذا ركنوا إلى النعمة. وحجبوا عن المنعم أخذوا.

وقال ابن عطاء الله رضى الله عنه: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. والاستغفار من الخطيئة. قال الحق تبارك وتعالى: «وأملى لهم أى نمدهم بالعوافى والنعم حتى نأخذهم بغتة. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أى فتحنا عليهم أبواب النعم وبسطنا عليهم الأرزاق الحسية حتى إذا فرحوا بما أوتوا من النعم وتمكنوا منها أخذناهم بالهلاك بغتة فاذا هم ملبسون أيسون من كل خير.

وتلك سنة الله فى خلقه أن يرسل اليهم من يذكرهم بالله ويدلهم على الله. فاذا أعرضوا عنه وردوا عليه قوله. بسط عليهم النعم الحسية. حتى إذا أطمأنوا وفرحوا بها دمرهم الله وأخذهم بغتة ليكون ذلك أشد فى العقوبة»[1].

(١) شرح الحكم لابن عجيبه جـ١ ص ١٠٢.

الفصل الثاني

مايجذب الناس إلى الشكر

من أهم مايجذب الناس إلى الشكر تذكر النعمة والتنبه لها فاذا كانت الغفلة عن النعم من أهم الأسباب الصارفة للناس عن الشكر فان أهم مايجذبهم إلى الشكر هو تذكر النعم والتنبه لها. بقلب يقظ غير مستدرج.

إذ كثير من الناس يتنبه للنعم ولكنه ينتبه لها بقلب مطموس لايعرف مصدر النعمة الحقيقى فيرى نفسه صاحب الفضل فيها كما قال قارون فيما حكاه الله عز وجل وعنه:

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾(1).

فهو لأنه مستدرج قد غفل عن مصدر النعمة الحقيقى وهو الله عز وجل. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾(2).

لكن تذكر النعمة والتنبه لمصدرها الحقيقى يجذب الناس إلى شكرها والنعم كما قدمت تنقسم إلى أنفسية وآفاقية.

وقد حث الإسلام على تذكر هذه النعمة للتنبه إلى شكرها.

فقال عز من قائل بالنسبة للنعم الأنفسية حثا على تذكرها: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾(3).

ومن أهم النعم الأنفسية نعم العقل والخلق والعلم.

وهى نعم يعترف كثير من الناس بأنه منعم عليه بها. ولايشاركه فيها الكثير من الناس.

أما العقل. فما من عبدلله تعالى إلا وهو راض عن الله فى عقله يعتقد أنه أعقل الناس وقلما يسأل الله العقل.

---

(1) القصص: ٧٨.

(1) النحل: ٥٣.

(3) الذاريات: ٢١.

واذا كان ذلك اعتقاده. فيجب عليه أن يشكر الله تعالى على ذلك»[1].

وأما الخلق: فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوبا يكرهها وأخلاقا يذمها. وإنما يذمها من حيث يرى نفسه بريئا منها. فإذا لم يشتغل بذم الغير. فينبغى أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه. وابتلى غيره بالخلق السىء.

وأما العلم: فما من أحد إلا ويعرف بواطن أمور نفسه وخفايا أفكاره و ما هو منفرد به. ولو كشف الغطاء عنه وأطلع عليه أحد من الخلق لافتضح.

فكيف لو اطلع عليه الناس كافة.

فان لكل عبد علم بأمر خاص لايشاركه فيه أحد من عباد الله. فلم لايشكر ستر الله الجميل الذى أرسله على وجه مساو به. فأظهر الجميل وستر القبيح. وأخفى ذلك عن أعين الناس. وخصص علمه به حتى لايطلع عليه أحد.

فهذه ثلاثة من النعم خاصة يعترف بها كل عبد إما مطلقا وإما فى بعض الأمور فيلزمه شكرها.

ولننزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا.

فنقول: ما من عبد الا وقد رزقه الله تعالى فى صورته أوشخصه أو أخلاقه أوصفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقاربه أو عزه أو جاهه أو سائر محابه أمورا لو سلبها منه وأعطاها لغيره لكان لايرضى بها.

وذلك مثل جعله مؤمنا لاكافرا. وحيا لاجمادا. وإنسانا لابهيمة وذكرا لا أنثى وصحيحا لا مريضا. وسليما لامعيبا. فإن كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فانها لو بدلت بأضدادها لم يرض بها.

فإذا كان لايرضى أن يبدل حاله بحال غيره. فإذن حاله أحسن من حال غيره.

وإذا كان لايعرف شخص يرتضى لنفسه حاله بدلا عن حال نفسه إما على الجملة وإما فى أمر خاص. فإذن لله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من خلقه سواه.

---

(١) منهاج القاصدين ص٠ ٢٠، الاحياء جـ٤ ص ١٢٤.

وإن كان يحب أن يبدل حال نفسه بحال غيره. فلينظر إلى عدد المغبوطين عنده. فإنه لامحالة يراهم أقل بالاضافة إلى عدد من هو فوقهم.

فيكون من دونه فى الحال أكثر بكثير ممن هم فوقه.

فما باله ينظر إلى من هم فوقه فيزدرى نعم الله عليه. ولاينظر إلى من دونه حتى يستعظم نعم الله عليه.

وماباله لايسوى دنياه بدينه.

أليس إذا لامته نفسه على سيئة تقارفها يعتذر إليها بأن فى الفساق كثرة. فينظر أبدا فى الدين إلى من هم دونه لا إلى من فوقه فلما لايكون نظره فى الدنيا كذلك.

فإذا كان حال أكثر الخلق فى الدين خير منه. وحاله فى الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لايلزمه الشكر.

ولذا قال صلى الله عليه وسلم: «من نظر فى الدنيا إلى من هو دونه. ونظر فى الدين إلى من هو فوقه كتبه الله صابرا شاكرا ومن نظر فى الدنيا إلى من هو فوقه وفى الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله صابرا شاكرا»(١).

فإذن كل من اعتبر حال نفسه. وفتش عما خص به وجد لله تعالى على نفسه نعما كثيرة لاسيما من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن. ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك. ولذلك قيل:

من شاء عيشا رحيبا يستطيل به ... فى دينه ثم فى دنياه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ... ولينظرن إلى من دونه مالا

---

(١) أخرجه الترمذى ج٤ ص٦٦٥ من حديث عبدالله بن عمرو. وقال حسن: غريب وقال العراقى فيه المثنى بن الصباح ضعيف. بتخريج الحفظ العراقى على الاحياء. جـ٤ ص١٢٥.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من أتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزأ بآيات الله»(١).

وقال بعض السلف: يقول الله تعالى فى بعض الكتب المنزلة:

«أن عبدا أغنيته عن ثلاثة لقد أتممت عليه نعمتى: عن سلطان يأتيه. وطبيب يداويه وعما فى يد أخيه».

وعبر الشاعر عن هذا بقوله:

إذا ما القوت يأتيك ... كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخا حزن ... فلا فارقك الحزن

ويقول صلى الله عليه وسلم فى ذلك: «من أصبح آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها».

واذا تأملنا الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتأملون من أمور وراء هذه الثلاث. مع أنها وبال عليهم. ولايشكرون الله تعالى فى هذه الثلاث. وهى موجودة بين أيديهم(٢).

ومن الطريف مايذكر حجة الإسلام الغزالى فى الإحياء عن بعض السلف الصالح ما كان يفعله ذلك البعض ليتذكر نعم الله عليه وليحث نفسه على شكرها.

قال الغزالى: «وأما القلوب البليدة التى لاتعد النعمة نعمة إلا إذا نزل بها البلاء فسبيل صاحبها أن ينظر أبدا إلى من دونه. ويفعل ماكان يفعله بعض القدماء فإنه كان يحضر دار المرض ليشاهد أنواع البلاء عليهم. ثم يتأمل صحته وسلامته ويشاهد الجناة الذين يقتلون وتقطع أيديهم وأرجلهم ويعذبون. فيشكر الله على سلامته من تلك العقوبات.

---

(١) أخرجه البخارى فى التاريخ. من حديث رجاء الغنوى بلفظ «من أتاه الله حفظ كتابه وظن أن أحدا أوتى أفضل مما أوتى فقد صغر أعظم النعم» ورجاء مختلف فى صحبته. وورد من حديث عبدالله ابن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة. تخريج الحافظ العراقى على الاحياء جـ٤ ص ١٢٥.

(٢) احياء علوم الدين جـ٤ ص ١٢٥- ١٢٦ بتصرف.

ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ليتدارك من عصا عصيانه وليزيد فى الطاعة من أطاع. فإن يوم القيامة هو يوم التغابن. فإذا شاهد المقابر وعلم أحب الأشياء إليهم فليصرف بقية عمره فى طاعة الله تعالى وشكره فى الإمهال، فينصرف العمر فيما خلق لأجله وهو التزود للآخرة»(١).

ومما يجذب إلى الشكر أيضا معرفة أن الشكر هو قيد النعم فإن النعم إذا لم تشكر زالت وكان الفضيل بن عياض رحمة الله عليه يقول: «عليكم بملازمة الشكر على النعم. فقل نعمة زالت عن قوم فعادت اليهم»(٢).

وقال الشاعر المسلم مشيرا إلى ذلك:

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن المعاصى تزيل النعم

ودوام عليها بشكر الإله ... فإن الاله سريع النقم

والله تعالى يقول مشيرا إلى ذلك: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾(٣). وذلك بسلبها عنهم وعقابه اياهم على كفرهم بها أى بعدم شكرها. وقد جاء فى الحديث: «ان العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وفى المسند أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به سائل فأعطاه تمرة فتسخطها ولم يقبلها. ثم مر به آخر فأعطاه اياها فقبلها. وقال: تمرة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر له صلى الله عليه وسلم بأربعين درهم.

روى الإمام أحمد فى مسنده عن أنس قال: «أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها. وحسن بها قال: وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال: سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ. قال ﷺ للجارية: «اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها»(٤).

---

(١) المصدر السابق جـ٤ ص ١٢٦.

(٢) منهاج القاصدين ص ٣٠٢.

(٣) ابراهيم: ٧.

(٤) قال ابن كثير: تفرد به أحمد وعمارة بن زادان شيخ الأمام أحمد وثقة ابن حبان وأحمد وقال ابن معين: صالح. وقال أبو زرعة: لابأس به. وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولايحتج به. ليس بالمتين. وقال البخارى: ربما يضطرب فى حديث: جـ٢ ص ٥٢٤.

الفَصْلُ الثَّالِثُ

درجات الشكر بحسب أنواعه

أ- شكر اللسان.

ب- شكر الجنان.

جـ- شكر الأركان.

أ- شكر اللسان

قيل: هو اعترافه بالنعمة[1].

وقيل: هو التحدث بالنعمة بنية الشكر واظهار الفضل. قال تعالى: «وأما بنعمة ربك فحدث». فلا يتحدث المؤمن افتخارا. ولاتزكية لنفسه[2].

ومن شكر اللسان: «الثناء بالنعمة. بأن تصف المنعم بالجود والكرم. ونحوه مما يدل على حسن تلقيك للنعمة واعترافك بنزول مقامك عن مقام المنعم فى الرتبة فإن اليد العليا خير من اليد السفلى[3].

وقيل شكر اللسان: إظهار الشكر لله بالتحميد.

وقيل: شكر اللسان: يكون بإظهار الرضا عن الله تعالى. وهو مأمور به. قال صلى الله عليه وسلم: «التحدث بالنعم شكر لها وتركها كفر»[4].

وروى أن رجلين من الأنصار التقيا فقال أحدهما لصاحبه: كيف أصبحت؟

فقال: الحمد لله. فقال النبى صلى الله عليه وسلم: قولوا هكذا وروى أن رجلا سلم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه. فرد عليه ثم قال له عمر: كيف أصبحت؟. فقال: أحمد الله. فقال عمر: ذاك الذى أردت» أى إنما سأله عن حاله. ليحمد الله عز وجل.

وكان السلف يتساءلون - أى يسأل بعضهم بعضا عن حاله - ومرادهم استخراج الشكر لله فيكون الشاكر والمستنطق مطيعين[5].

ومن شكر اللسان:

---

(١) الرسالة القشيرية ص٨٩.

(٢) الصوفية فى الهامهم ص١٩. للاستاذ حسن كامل الملطاوى.

(٣) تفسير البقاعى ص ٥٠.

(٤) رواه أحمد جـ٤ ص ٣٧٨، ٣٧٩. وقال الهيثمى فى الزوائد جـ٨ ص ١٨٢ كتاب البر والصلة باب شكر لقليل. رواه عبدالله. وأبو عبد الرحمن رواية عن الشعبى لم أعرفه. وبقية رجاله ثقات..

(٥) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة المقدس ص ٢٨٧.

أن يخاطب الإنسان غيره بألفاظ حسنة وكلام لين وسهل. ولايغضب أحدا ولا يؤلم إنسانا ولايكون فظا ولاغليظا فى مخاطبة غيره.

قال تعالى مشيرا إلى ذلك: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا** (٥٣) ﴾[١].

«يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا فى مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الحسن. والكلمة الطيبة. لأنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم لأن الشيطان للإنسان عدو مبين[٢].

ويقول تعالى فى آية آخرى: ﴿ **وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى** ﴾[٣].

يطلب تعالى من كل إنسان أن يكون عدلا فيما يقول وينطق ومايقول قد يكون شهادة يؤديها. وقد يكون فصلا فى خصومة ينطق به وقد يكون رواية يرويها وحديثا ينقله. فطلب إليه فى ذلك كله أن يلزم العدل. ولو كان قوله الذى يقوله متعلقا بذى قرابة أو صلة خاصة من شأنها أن تؤثر عليه وتجعل قلبه يميل إليه.

ومن هنا وجه الشارع عنايته إلى اللسان وحذر من عثراته وآفاته لخفة النطق به. وقلة الجهد فيما يصدر منه. وشدة الخطر فيما ينجم عن استعماله من آثار.

فإنه ألة طبيعية لإلحاق الأذى بالناس. أو إيصال النفع إليهم ولابد لتطويعه للخير من إصلاح القلب حتى تتجه حركة اللسان إلى الخير دون جهد ولاعناء.

ومن هنا أطلق صلى الله عليه وسلم الأمر بالكلام الحسن. والكلمة الطيبة فى معاملة الناس قال ﷺ: «إن الكلمة الطيبة صدقة»[٤].

لأنها من أقوى أسباب المودة. وهى طريق لرضا الله ورضا الناس.

---

(١) الاسراء: ٥٣.
(٢) ابن كثير جـ٣ ص٤٥.
(٣) الأنعام: ١٥٢.
(٤) صحيح لبخارى جـ٤ ص ٣٤ كتاب الادب. باب طيب الكلام. جـ٨ ص ١٤.

وقد رفع القرآن الكريم شأن الكلمة الطيبة وبين فضلها فى إنجاح دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أداء رسالته. فقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].

والمعنى: لو كنت سيء الكلام قاس القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك. ولكن الله جمعهم عليك بسبب طيب كلامك ورقة قلبك معهم.

ولما أرسل الله تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون أمرهم أن يقولا له قولا لينا ليفتح قلبه لنصحهما. قال تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[2].

إن الإسلام يريد من الإنسان أن يكون إنسانا ولايكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته فى مظاهرها الواضحة. وهى الكلمة الطيبة.

روى البخارى فى صحيحة بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت»[3].

ومن أهم أنواع شكر اللسان الإكثار من ذكر الله عز وجل.

«ذكر البيهقى عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: رب قد أنعمت على كثيرا. فدلنى على أن أشكرك كثيرا. قال: اذكرنى كثيرا فقد شكرتنى كثيرا. واذا نسيتنى فقد كفرتنى».

وذكر البيهقى فى شعب الايمان عن عبدالله بن سلام قال قال موسى عليه السلام: رب ما الشكر الذى ينبغى لك؟. فأوحى الله تعالى إليه أن لايزال لسانك رطبا من ذكرى.

قال: أكون جنبا أو أكون على الغائط أواذا بلت. فقالى تعالى: وان كان.

قال: يارب. فما أقول؟

---

(١) آل عمران: ١٥٩.

(٢) طه: ٤٣، ٤٤

(٣) صحيح البخارى جـ٨ ص١٤- كتاب الأدب. باب «كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره».

قال تقول: «سبحانك وبحمدك وجنبنى الأذى. وسبحانك وبحمدك فقنى الأذى»(١).

والحض على ذكر الله على كل حال. شكرا له تعالى. قد جاء به الإسلام.

«عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله تعالى على كل أحيانه»(٢).

ولم تستثن حالة من حالاته صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على أنه كان يذكر ربه فى حال طهارته وجنابته. وأما فى حال التخلى فلم يكن يشاهده أحد حتى يحكى عنه.

ولكن شرع لأمته من الأذكار قبل التخلى وبعده مايدل على مزيد الاعتناء بالذكر وأنه لايخل به عند قضاء الحاجة وبعدها(٣).

وقد حض القرآن الكريم على شكر الله عز وجل بالإكثار من ذكره.

قال تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ** ﴾(٤).

كما قال تعالى: ﴿ **وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ** ﴾(٥).

وواضح من الآيتين أن ذكر الله فى الأيام المعلومات إنما شرع لشكره تبارك وتعالى على مارزقنا من بهيمة الأنعام.

«ولو كان شىء أبلغ فى شكره من ذكره تبارك وتعالى»(٦).

---

(١) فضائل الذكر والدعاء. لابن قيم الجوزية ص ٨٥- ٨٦.

(٢) رواه مسلم فى الحيض باب ذكر الله تعالى فى حال الجنابة وغيرها.

(٣) فضائل الذكر والدعاء لابن قيم الجوزية ص ٨٦.

(٤) الحج: ٢٧، ٢٨.

(٥) الحج: ٣٤.

(٦) من مقال: «ذكر الله تعالى» للدكتور الحسينى أبو فرحة بمجلة الزهراء. العدد الثانى- السنة الثانية ١٤٠٢هـ- ١٩٨٢م تصدرها كلية الدراسات الاسلامية والعربية للبنات- جامعة الأزهر.

وقال ﷺ: «من قال حين يصبح: اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لاشريك لك فلك الحمد ولك الشكر. فقد أدى شكر ذلك اليوم. ومن قالها حين يمسى أدى شكر ليلته[1].

فنراه ﷺ يجعل ذكر اللسان من الشكر.

ويجعله ﷺ أفضل من النعمة التى ينعم على العبد بها فيقول:

«ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله. إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ»[2].

وكتب بعض عمال عمر بن عبدالعزيز إليه: «إنى بأرض قد كثرت فيها النعم حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر».

فكتب اليه عمر: إنى كنت أراك أعلم بالله مما أنت. إن الله لم ينعم على عبد نعمة فيحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من النعمة التى أنعم عليه بها.

إن كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل فقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ وأى نعمة أفضل من دخول الجنة[3].

نعم إن حمد الله تعالى. وذكره من دلائل النعم تحتاج إلى شكر أيضا. ولكن يكفى أنه ثبت أن الذكر رأس الشكر. فلا سبيل لشكر الذكر إلا بذكر أيضا.

قال الشاعر:

---

(١) أبو داود جـ٢ ص ٦١٣. كتاب الادب. باب مايقوله اذا أصبح.

(٢) رواه ابن ماجه جـ٢ ص ١٢٥٠ وفى الزوائد: إسناده حسن وشبيب بن بشر مختلف فيه.

(٣) جامع العلوم والحكم ص ١٢٦.

إذا كان شكرى نعمة الله نعمة ... على له فى مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضـله ... وإن طالت الآجال واتصل العمر

وقال أبو بكربن عبدالله:

«ما قال عبد قط الحمد لله» مرة إلا وجبت عليه نعمة. بقوله:

«الحمد لله» قيل له: فما شكر تلك النعمة؟ قال: شكرها أن يقول: «الحمد لله» فجاءت نعمة أخرى. فلا تنفد نعم الله»[1]. ..

---

(١) جامع العلوم والحكم ص١٢٥.

ب ـ شكر الجنان

«لايحصل شكر الجنان إلا باعتقاد العبد اعتقادا جازما أن جميع مافى يديه من النعم والمنافع واللذات والحركات والسكنات من فضل ربه لامن غيره، وذلك ليكون شكر العبد بلسانه مطابقا لما فى قلبه ومعبرا عنه. أن ليس للعبد منعم سوى ربه عز وجل»[١].

ويقول الأستاذ الملطاوى: شكر الجنان هو أن يعتقد المؤمن ويحس بقلبه أن النعم التى يتغلب فيها ظاهرة وباطنة من إحسانه تعالى ومحض جوده سبحانه. لا إلزام عليه فيها. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٢].

ويقول ابن قدامة: الشكر بالقلب هو أن يقصد الخير. ويضمره للناس كافة»[٣].

---

(١) لطائف المتن للشعرانى ص ٣٩.

(٢) النحل: ٥٣.

(٣) ابن قدامة ص ٢٨٧.

جـ ـ شكر الأركان

يكون بأداء العبادات المفروضة أولا: قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[1].

«أى قلنا لهم اعملوا شكرا على ما أنعم به عليكم فى الدين والدنيا، وفيه دليل على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية كما قال الشاعر.

أفادتكم النعماء منى ثلاثة . . . يدى ولسانى والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمى: الصلاة شكر والصيام شكر. وكل خير تعمله لله تعالى شكر. وأفضل الشكر الحمد. رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرطبى قال: الشكر تقوى الله تعالى والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل.

وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولا وعملا.

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ثابت البنانى قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة. فكان لا تأتى عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فغمرتهم هذه الآية. «اعملوا آل داود شكرا».

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوما ويفطر يوما ولايفر إذا لاقى»[2].

وروى ابن ماجه بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قالت أم سليمان بن داود عليهم السلام لسليمان يا بنى لا تكثر النوم بالليل. فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة»[3، 4].

---

(١) سبأ: ١٣.

(٢) ابن كثير جـ٣ ص ٥٢٨- ٥٢٩. البخارى كتاب الصوم باب ٥٧ ومسلم ـ كتاب الصوم. باب النهى عن صوم الدهر. جـ٨ ص ٤٦.

(٣) ابن كثير جـ٣ ص ٥٢٨.

(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٥٢٨- ٥٢٩.

ومن هذين الحديثين يتضح لنا أن شكر آل داود الذى أمروا به ونفذوه كان الغالب عليه شكر الأركان بأداء ألوان العبادات. من قيام الليل وصيام النهار والجهاد فى سبيل الله.

وعن أبى بكر رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا جاءه أمر يسره خر ساجدا لله(١).

وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال: سجد رسول الله ﷺ فأطال السجود ثم رفع رأسه فقال: إن جبريل آتانى فبشرنى. وجاء تفسير البشرى بأنه تعالى قال: «من صلى عليه صلاة صلى الله عليه بها عشرا». فسجدت لله شكرا»(٢).

وفى هذا الحديث نجد الشكر بالأركان ممثلا فى سجود الشكر منه صلى الله عليه وسلم.

«وكان من هديه ﷺ وهدى أصحابه سجود الشكر عند تجدد نعمة تسر أو إندفاع نقمة. كما فى المسند عن أبى بكرة أن النبى ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره خر لله ساجدا شكرا لله تعالى. وذكر ابن ماجه عن أنس أن النبى ﷺ بشر بحاجة فخر لله ساجدا. وذكر البيهقى بإسناد على شرط البخارى أن عليا رضى الله عنه لما كتب إلى النبى صلى الله عليه وسلم بإسلام همدان خر ساجدا ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان السلام على همدان. وصدر الحديث فى صحيح البخارى. وهذا تمامه بإسناده عند البيهقى.

وفى المسند من حديث عبدالرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سجد شكرا لما جاءه البشرى من ربه أنه من صلى عليك صليت عليه ومن سلم عليك سلمت عليه.

وفى سنن أبى داود من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ رفع يديه فسأل الله ساعة ثم خر ساجدا ثلاث مرات. ثم قال: أنى سألت ربى

---

(١) واه المخمسة إلا النسائى.

(٢) رواه أحمد وصححه السيوطى جـ٢ ص ٣٠٣.

وشفعت لأمتى فأعطانى ثلث أمتى فخررت ساجدا شكرا لربى. ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى الثلث الثانى. فخررت ساجدا شكرا لربى. ثم رفعت رأسى فسألت ربى لأمتى فأعطانى الثلث الآخر. فخررت ساجدا لربى[1].

وسجد كعب بن مالك لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه ذكره البخارى.

وذكر أحمد عن على عليه السلام أنه سجد حين وجد ذا الثدية فى قتلى الخوارج.

وذكر سعيد بن منصور أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه سجد حين جاءه قتل مسيلمة الكذاب»[2].

وهكذا نجد المصطفى ﷺ والصحب الكرام يشكرون الله عز وجل عند حلول النعمة أو زوال النقمة بالأركان. بسجود الشكر. مما يدل على أن الشكر بالأركان كما يكون بأداء الفرائض. يكون كذلك بالإكثار من نوافل العبادات.

ويقول ابن قدامة: شكر الجوارح هو استعمال نعم الله فى طاعته والتوقى من الاستعانة بها على معصيته. فمن شكر العينين أن تستركل عيب تراه لمسلم. ومن شكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فهذا يدخل فى شكر هذه الاعضاء[3].

وسئل أبو حازم: ماشكر العينين يا أبا حازم؟

قال : إن رأيت بهما خيرا أعلنته. وإن رأيت بهما شرا سترته.

قال: فما شكر اليدين؟

قال: لاتأخذ بهما ماليس لهما. ولا تمنع حقا لله هو فيهما.

قال: فما شكرالأذنين؟

قال: إن سمعت بهما خيرا أوعيته. وإن سمعت بهما شرا دفنته.

---

(١) ابو داود كتاب الجهاد باب سجود لاشكر. جـ٢ ص٨١.
(٢) زاد المعاد جـ١ ص ٩٥.
(٣) مختصر منهاج القاصدين ص ٢٨٧.

قال: فما شكر البطن؟

قال: أن يكون أسفله طعاما. وأعلاه علما.

قال: فما شكر الفروج؟

قال: كما قال الله عز وجل: ﴿إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾[١].

قال: فما شكر الرجلين؟

قال: إذا رأيت شيئا غبطته استعملتهما واذا رأيت شيئا مقته كففتهما فأنت شاكر الله عز وجل.

ثم قال: وأما من شكر بلسانه، ولما يشكر بجميع اعضائه. تمثله كمثل رجل له كساء فأخذ يطوقه. ولم يلبسه. فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر[٢].

وهكذا يتضح لنا أن شكر الأركان يكون بأداء فرائض الله عز وجل. والاكثار من نوافل العبادات. والتوقى من الاستعانة بالاركان على معصية الله عز وجل واستعمال كل عضو فى طاعة الله عز وجل.

ومما يشهد لشكر الأركان بالإكثار من نوافل العبادات مارواه أبو الشيخ ابن حبان عن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها. فقلت: أخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول اللهﷺ فبكت. وقالت: وأى شأنه لم يكن عجبا؟ أتانى ليلة فدخل معى فى فراشى. أو قالت: فى لحافى. حتى مس جلده جلدى.

ثم قال: يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى.

فقالت: قلت أنى أحب قربك. لكنى أوثر هواك فأذنت له فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء. ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره ثم

---

(١) المؤمنون: ٦ : ٧.

(٢) كتاب شرح الحكم لابن عجيبه جـ١ ص ١٠٠.

ركع فبكى. ثم سجد فبكى. ثم رفع رأسه فبكى. فلم يزل كذلك يبكى حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة.

فقلت: يا رسول الله مايبكيك وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: أفلا أكون عبدا شكورا. ولم لا أفعل ذلك. وقد أنزل الله تعالى على: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...﴾ الآية»[1].

فرسولنا صلى الله عليه وسلم وهو سيد العباد. وقد غفر الله له ماتقدم من ذنبه وماتأخر يهجر فراشه ليقوم بين يدى الله عز وجل مصليا باكيا. شكرا لله عز وجل حتى تورمت منه الأقدام كما جاء فى رواية أخرى.

ويؤكد صلى الله عليه وسلم الحث على الشكر بالأركان. فيقول: «ليس من نفس ابن آدم إلا عليها صدقة فى كل يوم طلعت فيه الشمس قيل: «يارسول الله. ومن أين لنا أن نتصدق. قال: إن أبواب الخير لكثيرة: التسبيح والتحميد والتهليل. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وتميط الاذى عن الطريق. وتسمع الصم. وتهدى العمى. وتدل المستدل على حاجته. وتسعى بشدة ساقيك مع اللهفان المستغيث. وتحمل بشدة ذراعيك مع الضعيف، فهذا كله صدقة منك على نفسك»[2].

فما ذكره صلى الله عليه وسلم من أبواب الخير فى هذا الحديث هو الشكر بالأركان على نعم الله عز وجل.

قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: لينظر العبد فى نعم الله عليه. فى بدنه وسمعه وبصره ويديه ورجليه وغير ذلك. وليس من هذا شيء إلا وفيه نعمة من الله عز وجل. وحق على العبد أن يعمل بالنعمة التى فى بدنه لله عز وجل فى طاعته. ولينظر العبد فى نعمة الرزق. فحق عليه أن يستعمل الرزق فى طاعة الله من عمل بهذا فقد أخذ بحزم الشكر. وأصله وفرعه[3].

---

(١) اخرجه أبو الشيخ ابن حبان. فى كتاب أخلاق رسول الله ﷺ. ومن طريقه ابن الجوزى فى الوفا وفيه أبو جناب. واسمه يحيى بن أبى حبة. ضعفه الجمهور «رواه ابن حبان فى صحيحه عن عطاء دون قولها: «وأى أمره لم يكن عجبا» وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصرا على أخر الحديث تخريج الحافظ العراقى على الإحياء جـ٤ ص ٨١.

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه. الترغيب والترهيب جـ٤ ص ٣٤- ٣٥.

(٣) شرح الحكم ص ١٢٩.

الفصل الرابع

درجات الشكر بحسب الشاكرين

أ. شكر العوام. «شكر الصالحين»

ب - شكر الخواص. «شكر الصوفية»

ج - شكر خواص الخواص. «شكر الأنبياء»

أ- شكر العوام .. «شكر الصالحين»

يقول ابن عجيب: إن الناس فى الشكر على ثلاث درجات، عوام وخواص وخواص الخواص.

شكر العوام: على النعم فقط.

وشكر الخواص: على النعم والنقم.

وشكر خواص الخواص: الغيبة فى المنعم على شهود النعم والنقم.

والنعم التى يقع الشكر عليها ثلاثة أقسام. دنيوية كالصحة والعافية والمال الحلال ودينية كالعلم والعمل والتقوى والمعرفة.

وأخروية كالثواب على العمل القليل بالعطاء الجزيل.

وأجل النعم الدينية التى يتأكد الشكر عليها نعمة الإسلام والإيمان والمعرفة وشكرها: هو اعتقاد أنها منة من الله تعالى. بلا حول ولا قوة قال تعالى: «ولكن حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان»(١).

ثم قال: «فضلا من الله ونعمة»(٢).

قال أبو طالب المكى رضى الله عنه: فلو قلب قلوبنا فى الشك والضلال كما يقلب نياتنا فى الأعمال. أى شىء كنا نصنع. وعلى أى شىء نعول. وبأى شىء كنا نطمئن ونرجو. فهذا من كبائر النعم.

ومعرفته هو شكر نعمة الإيمان. والجهل به هو غفلة عن نعمة الإيمان، يوجب العقوبة.

وادعاء أن الإيمان عن كسب معقول. أو استطاعة بقوة وحول هوكفر بنعمة الإيمان وأخاف على من توهم ذلك أن يسلب الإيمان لأنه بدل شكر نعمة الإيمان كفرا»(٣).

(١، ٢) الحجرات: ٧.

(٢) شرح الحكم لابن عجيبه ص ١٠١ جـ١

ويعبر البقاعى فى تفسيره عن انقسام الناس فى الشكر بأسلوب آخر فيقول: «الشكر على ثلاث درجات - أى باعتبار الشاكرين فمنهم من يشكر على المحاب فقط: أى الأشياء المحبوبة. وهو شكر يشترك فيه المسلمون واليهود والنصارى والمجوس.

فإن الكل يعتقد أن الاحسان الواصل من الرحمن تجب معرفته على الإنسان ومن سعة بر البارئ سبحانه وتعالى أن عده شكرا. مع كونه واجبا على الشاكر. ووعده عليه الزيادة. وأوجب فيه المثوبة احسانا ولطفا.

ومنهم من يشكر على المكاره. وهو إما رجل لا يميز بين الحالات. بل يستوى عنده المكروه والمحبوب.

فاذا نزل به المكروه شكر الله عليه. بمعنى أنه أظهر الرضا بنزوله به. وهذا مقام الرضا. وإما رجل يميز بين الأحوال. فهو لايحب المكروه ولايرضى بنزوله.

فإذا نزل به مكروه فشكره عليه انما هو كظم الغيظ وستر الشكوى. وان كان باطنه شاكيا.

والكظم انما هو لرعاية الأدب بالسلوك فى مسلك العلم. فانه يأمر العبد بالشكر فى السراء والضراء.

ومنهم من لا يشهد إلا المنعم باشتغاله بالاستغراق فى مشاهدته عن مشاهدة النعمة.

وهذا الشهود على ثلاثة أقسام :

أحدها أن يستغرق فيه عبودية. فيكون شاهدا له مشاهدة العبد للسيد بأدب العبيد إذا حضروا بين سيدهم. فانهم ينسون ما هم فيه من الجاه والقرب الذى ماحصل لغيرهم باستغراقهم فى الأدب. وملاحظتهم لسيدهم خوفا من أن يشير اليهم فى أمر فيجدهم غافلين وهذا أمر معروف عند من صحب الملوك.

فصاحب هذا الحال إذا أنعم عليه سيده فى هذه الحالة مع قيامه بحقيقة العبودية استعظم الاحسان، لأن العبودية توجب عليه أن يستصغر نفسه.

ثانيها: أن يشهد سيده شهود محبة غالية. فهو بسبب هذا الاستغراق فيه يستحلى منه الشدة.

ثالثها: أن يشهد شهود تفريد يرفع الثنوية. ويفنى الرسم ويذهب الغبرية. فاذا وردت عليه النعمة أو الشدة كان مستغرقا فى الفناء فلا يحس بشىء منهما[1].

ويتضح من كلام البقاعى. أن الشكر على المحاب فقط هو شكر العوام.

والشكر على المكاره. هو شكر الخواص.

والمستغرق فى المشاهدة. هم خواص الخواص.

فيلتقى البقاعى مع ابن عجيبه فى تقسيم الشاكرين إلى عوام وخواص وخواص الخواص.

وقد تعددت تعاريف السادة الصوفية للشكر. وكل تعريف منها يشير إلى ذوق خاص يغلب على صاحبه فى شكره لله عز وجل.

وهذا طرف من تعاريف السادة الصوفية للشكر عند كل منهم وكما قلت. فان كل تعريف يشير إلى الذوق الغالب على صاحبه فى فهم الشكر وممارسته.

قال صاحب الرسالة القشيرية: «الشكر ينقسم إلى أقسام. منها شكر باللسان. وهو اعترافه بالنعمة. وشكر بالقلب وهو اعتكاف على بساط الشهود بادامةحفظ الحرمة. وشكر بالبدن والأركان وهو اتصاف بالوفاق والخدمة.

ويقال شكر هو شكر العالمين يكون من جملة أقوالهم.

وشكر هو نعت العابدين يكون نوعا من أفعالهم.

وشكر هو شكر العارفين يكون باستقامتهم له فى عموم أحوالهم.

وقال أبو بكر الوراق شكر النعمة مشاهدة المنة. وحفظ الحرمة.

وقال حمدون القصار: شكر النعمة أى ترى نفسك فيه طفيليا.

---

(١) تفسير البقاعى ص ٥١ من رسالة عزت.

وقال الجنيد: الشكر فيه علة. لأنه طالب لنفسه فيه المزيد فهو واقف من الله تعالى على حظ نفسه.

وقال أبو عثمان: الشكر معرفة العجز عن الشكر. ويقال: الشكر على الشكر أتم من الشكر. وذلك بأن ترى شكرك إلى مالايتناهى.

وقيل الشكر: اضافة النعم إلى موليها. ينعت الاستكانة.

وقال الجنيد: الشكر أن لاترى نفسك أهل للنعمة.

وقال رويم: الشكر استفراغ الطاقة.

وقيل: الشاكر الذى يشكر على الموجود. والشكور الذى يشكر على المفقود.

ويقال: الشاكر الذى يشكر على الرفد. والشكور الذى يشكر على الرد.

ويقال: الشاكر الذى يشكر على النفع. والشكور الذى يشكر على المنع.

ويقال: الشاكر الذى يشكر على العطاء. والشكور الذى يشكر على البلاء.

يلاحظ أن التعاريف الأربعة الأخيرة للشاكر والشكور متطابقة من حيث المعنى. متخالفة من حيث العبارة فقط. والصوفية من مميزاتهم الأسلوب الأدبى العالى. فهم يجمعون بين السمو الروحى والخلقى والسمو فى الأسلوب والعبارة أيضا.

ويقول الشيخ أبو عبدالرحمن السلمى سمعت الأستاذ أبا سهل الصعلوكى يقول سمعت المرتعش يقول سمعت الجنيد يقول: كنت بين يدى السرى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى ياغلام ما الشكر؟

فقلت: أن لاتعصى الله بنعمة.

فقال: يوشك أن يكون حظك من الله لسانك.

قال الجنيد: فلازلت أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى.

وقال الشبلى: الشكر رؤية المنعم لارؤية النعمة.

وقيل: الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقال أبو عثمان: شكر العامة على المطعم والملبس. وشكر الخواص على مايرد على قلوبهم من المعانى.

وقيل: دخل رجل على سهل بن عبدالله فقال: ان اللص دخل دارى وأخذ متاعى.

فقال: اشكر الله تعالى: لو دخل اللص قلبك. هو الشيطان وأفسد التوحيد. ماذا كنت تصنع؟[1].

والصوفى يشكر ربه ويخاف من ذيوع شكره. خوفا من العجب الذى يورث المقت.

يقول الشعرانى:

«ومما أنعم الله تبارك وتعالى به على مبادرتى لشكر ربى إذا حفظنى من مضلات الفتن فان العجب يورث المقت وإحباط الأعمال كما ورد. لاسيما أن سمع الناس الذين يقتدى بهم يقولون: ليس فى مصر الآن على الصراط المستقيم فى العلم والعمل مثل فلان. وحصل له. جاه بذلك فى قلوب الخلق دون أقرانه فانه يهلك بالكلية.

ومن هنا أخفى الفقراء كثيرا من أعمالهم الصالحة خوفا من ميل النفس إلى مدح الناس لهم عليها. فيهلكوا من حيث لايشعرون»[2].

والصوفى يحب العطاء ليشكر:

قال بعض الصوفية: لأن أعطى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وكان الشيخ أبو العباسى المرسى - يرجح الغنى الشاكر على الفقير الصابر. وهو مذهب ابن عطاء ومذهب الحكيم الترمذى. ويقول الترمذى: الشكر صفة أهل الجنة. والفقر ليس كذلك.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٨٩.

(٢) كتاب لطائف المنن - للشعرانى ص ١٤٦.

قال فى لطائف المنن:

«والتحقيق أن الفقير الصابر هو الغنى الشاكر وبالعكس، لان الغنى أنما هو بالله. فان استغنى القلب بالله فصاحبه هو الغنى الشاكر. ولاعبرة بما فى اليد. فقد تكون اليد مغمورة والقلب فقير وقد يكون القلب غنيا بالله واليد فقيرة. وقد تكون اليد مغمورة والقلب مع الله غنيا به عما سواه»[١].

والشكر عند الصوفية: هو الأدب مع المنعم. ومن جاءت على يديه النعمة. فان أساء الأدب أدب. وقد يؤدب فى الباطن وهو لايشعر. كما أشار إلى ذلك بقوله: «من جهل المريد أن يسىء الأدب فتؤخر العقوبة عنه - فيقول: لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب البعاد».

فقد يقطع المدد عنه من حيث لايشعر. ولو لم يكن إلا منع المزيد. وقد تقام مقام البعد وأنت لاتدرى ولو لم يكن إلا أن يخليك وماتريد»[٢].

ويقسم ابن عجيبه الناس إلى ثلاثة من حيث شكر النعم فيقول: «الناس فى ورود المنن عليهم على ثلاثة أقسام. يعنى عوام. وخواص وخواص الخواص ثم ذكر مقام العوام فقال: «فرج بالمنن لا من حيث مبدئها ومنشئها. ولكن بوجود متعته فيها.

قلت: وهذا كالبهيمة ليس شأنه وهمه إلا نفسه وحسه.

ولله در ابن البنا حيث قال: «واعلم بأن عصبة الجهال بهائم فى صورة الرجال. ثم ذكر حكم العوام من حيث موقفهم من النعم فقال: فهذا من الغافلين. لأن النعم إذا أقبلت عليه اشتغل بها عن ذكر معطيها تلذذا وترفها. واذا ادبرت اشتغل فكره بطلبها والحرص عليها.

واذا نالها شغلته متعتها عن شكرها فيكون ذلك سببا فى زوالها قال تعالى: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٣].

---

(١) ابن عجيبه جـ١ ص٩٩.

(١) المرجع السابق جـ١ ص ١٠٢.

(٢) إبراهيم: ٧.

وربما يصدق عليه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[١].

فالآية وان نزلت فى الكفار فحكمها عام فكل من اشتغل بنعم الدنيا وزخارفها عن ذكر الله وماطلب منه يصدق عليه أنه فرح بما أوتى فبينما هو منهمك فى غفلته مستغرق فى شهوته أخذه الموت بغتة فاذا هو ملبس أى آيس من الرجوع اليها ومن الانتفاع بها وقد تؤخذ منه قبل موته فتشتد حسرته عليها»[٢].

القسم الثاني: هو مقام الخواص:

فقال: «وفرح بالمنن من حيث أنه شهدها منه فمن أرسلها ونعمة ممن أوصلها

قلت:

ويستفيد أيضا من أرسلها عليه وذكره بها أوحى الله تعالى إلى سيدنا موسى عليه السلام ياموسى اعلم أننى إذا أعطيتك ثمرة مسوسة فإنى قد ذكرتك بها فأشكرنى عليها فانه لايعطيها غيرى. أ. هـ.

فتكون تلك النعمة سببا يجره إلى محبة المنعم فيرتقى إلى الدرجة الثالثة ثم ذكر شاهد هذا القسم من القرآن فقال. فيصدق عليه قوله تعالى ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. قلت يعنى فيكون فرحه بفضل الله وهو الإيمان ورحمته وهو القرآن وغير ذلك. هو أى فضل الله ورحمته خير مما يجمعون من حطام الدنيا وشهواتها الغرارة[٣].

ثم ذكر القسم الثالث:

وهم خواص الخواص. فقال: «وفرح بالله ماشغله من المنن ظاهر متعتها ولاباطن منتها.

---

(١) الانعام: ٤٤:٤٥.

(٢) ابن عجيبه فى شروح الحكم جـ١ ص ٣٩٨.

(٣) ابن عجيبه. شرح الحكم

قلت ظاهر متعتها هو حظ البشرية وهى اللذة الحسية وهو حال أهل المقام الأول أعنى الغافلين. وباطن منتها هى ذكر المنعم واقباله عليه وهو حال أهل المقام الثانى وأشار إلى حال أهل المقام الثالث فقال: بل شغله النظر إلى الله عما سواه من المتعة الحسية أو المعنوية (و) شغله «الجمع» على الله بالتوكل عليه فكفاه شؤونه وأموره حتى لمن بقى له اهتمام بغير مولاه بل أغناه به عما سواه» فلا يشهد إلا أياه «ولايحب شيئا سواه ومما وجد فى بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى: «عبدى ان اطعتنى وآليتك وان اتقيتنى قربتك وأن استحييت منى اكرمتك وان توكلت على كفيتك. وان عصيتنى عاقبتك فعقوبتى لك من أجلك لا من أجلى جل قدرى وعظم فضلى. عبدى أنى أعلم منك مالو علمته زوجتك لسألتك الطلاق ولو علمه عبدك لسألك العتاق ولو علمه أبوك لهان عليه الفراق عبدى إن جئتنى تقول أسأت أقول لك وأنا قد غفرت. وان قلت تبت أقول وأنا قبلت أ. هـ.[1].

(١) ابن عجيبه شرح الحكم جـ١ ص ٤٠٠.

شكر الصحابة رضى الله عنهم

لقد كان الصحابة رضى الله عنهم نماذج عالية فى شكر الله عز وجل. وأمثلة تحتذى.

وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول فيهم: «أصحابى كالنجوم بأيهم أقتديتم أهتديتم»(١).

ولا يتسع البحث للإحاطة بأحاديث شكرهم. وليس هذا هدفا للبحث وبحسبى أن أذكر نماذج من شكرهم. فهى تطبيق عملى لهدى الإسلام فى الشكر ممثلا فى الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة.

فمن النماذج العملية لشكر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه المقتبسة من هدى المصطفى ﷺ: ما رواه أبو أمامة:

«أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه - لبس قميصا قلما بلغ ترقوته قال: الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى. وأتجمل به فى حياتى. ثم مد يده فنظر إلى كل شىء يزيد على بدنه فقطعه ثم أنشأ يحدث:

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من لبس ثوبا - أحسبه قال جديدا - فقال حين يبلغ ترقوته - أو قال قبل أن يبلغ ترقوته مثل ذلك. ثم عمد إلى ثوبه الخلق فكساه مسكينا لم يزل فى جوار الله وفى ذمة الله وفى كنف الله حيا وميتا. حيا وميتا. حيا وميتا. مابقى من الثوب شيلو».

قال قابيش: فقلت لعبيد الله: من أى الثوبين؟ قال: لا أدرى.(٢)

وفى هذا النص من الشكر ألوان. ففيه الإقتصار فى الثوب على القدر الذى يحتاجه الجسم دون زيادة فى القماش. وفيه الشكر بالقلب واللسان. فى قوله:

---

(١) كشف الخفاء جـ١ ص ١٤٧ قال: رواه البيهقى والفردوس عن ابن عباس وسكت عنه.

(٢) كتاب الشكر. لابن أبى الدنيا ص ٣٩ - ٤٠ والشلو: القطعة. وقابيش: أحد الرواة.. والثوب الخلقى. هو الثوب القديم.

«الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى وأتجمل به فى حياتى». ومثل سيدنا عمر يطابق قوله ما فى قلبه. وفيه الشكر العملى بالتصدق بالثوب القديم.

ومن نماذج شكرهم شكر صحابى محتاج أعطاه صلى الله عليه وسلم تمرة. فشكر الله عز وجل عليها.

أخرج البيهقى عن أنس رضى الله عنه. قال: جاء سائل إلى النبى ﷺ فأمر له بتمرة نوحش بها[1] وأتاه آخر فأمر له بتمرة فقال سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية: أذهبى إلى أم سلمة تمريها فلتعطه الأربعين درهما التى عندها وعنده أيضا عن الحسن رضى الله عنه أن سائلا أتى النبى ﷺ فأعطاه تمرة فقال الرجل سبحان الله نبى من الأنبياء يتصدق بتمرة. فقال له النبى ﷺ:

«أو ما علمت أن فيها مثاقيل ذر كثير «فأتاه آخر فسأله فأعطاه تمرة. فقال تمرة من نبى من الأنبياء لاتفارقنى هذه التمرة ما بقيت ولا أزال أرجو بركتها فأمر النبى ﷺ بمعروف وما لبث الرجل أن أستغنى»[2].

وأخرج عبد بن جميد عن عكرمة رضى الله عنه قال: مر عمر بن الخطاب برجل مبتلى أجزم. أعمى. أصم. وأبكم فقال لمن معه: هل ترون فى هذا من نعم الله شيئا قالوا لا قال: لا.. قال: بلى ألا ترونه يبول فلا يعتصر ولا يلتوى يخرج منه بوله مهلا فهذه نعمة من الله[3].

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن إبراهيم قال: سمع عمر رضى الله عنه رجلا يقول اللهم إنى استنفق نفسى ومالى فى سبيلك. فقال عمر أولا يسكت أحدكم فإن أبتلى صبر وإن عوفى شكر[4].

وأخرج مالك وابن المبارك والبيهقى عن أنس رضى الله عنه أنه سمع عمر بن

---

(١) نوحش بها : فرمى بها
(٢) كنز العمال جـ ٤ ص ٤٢
(٣) كنز العمال جـ ٢ ص ١٥٤
(٤) كنز العمال جـ ٢ ص ١٥٤

الخطاب رضى الله عنه وسلم عليه رجل فرد عليه السلام ثم سأله عمر: كيف أنت؟ فقال: أحمد إليك الله. فقال عمر: ذلك الذى أردت منك(١).

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن البصرى قال: كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما. أقنع برزقك من الدنيا فإن الرحمن فضل بعض عباده على بعض فى الرزق بلهاء يبتلى به كلا فيبتلى فيما رزقه وخوله(٢).

وأخرج الدينورى عن عمر قال: أهل الشكر مع مزيد من الله فالتمسوا الزيادة وقد قال الله ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣).

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن سليمان بن موسى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه دعى إلى قوم كانوا على أمر قبيح فخرج إليهم فوجدهم قد تفرقوا ورأى أثرا قبيحا. فحمد الله إذا لم يصادفهم وأعتق رقبة.

وأخرج البيهقى عن على رضى الله عنه قال : إن النعمة موصولة بالشكر والشكر متعلق بالمزيد وهما مقرونان فى قرن ولن ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد.

وعند ابن ماجه والعسكرى عن محمد بن كعب القرظى قال: قال على بن أبى طالب ما كان الله ليفتح باب الشكر ويخزن باب المزيد وما كان الله ليفتح باب الدعاء ويخزن باب الإجابة وما كان الله ليفتح باب التوبة ويخزن باب المغفرة. أتلوا عليكم من كتاب الله قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٤).

وقال ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٥) وقال ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾(٦))(٧).

---

(١) كنزل العمال جـ ٢ ص ١٥١.
(٢) كنزل العمال جـ ٢ ص ١٥١
(٣، ٤) إبراهيم: ٧
(٥) البقرة : ١٥٢
(٦) النساء: ١١٠، كنزل العمال جـ ٢ ص ١٥١.
(٧) حياة الصحابة جـ ٣ ص ٢٢٩.

وأخرج ابن عساكر عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال:

«ما أمسيت ليلة وأصبحت لم يرمنى الناس فيها بداهية. إلا رأيتها نعمة من الله على عظيمة وعنده أيضا. من لم ير أن الله عليه نعمة إلا فى الأكل والشرب فقد قل فهمه وحضر عذابه[1].

وأخرج ابن أبى الدنيا وابن عساكر عن عائشة رضى الله عنها قالت:

«ما من عبد يشرب الماء القراح. فيدخل بغير أذى. ويخرج بغير أذى إلا وجب عليه الشكر»[2].

وأخرج الطبرانى فى الكبير عن أسماء بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما:

أنه لما قتل ابن الزبير رضى الله عنهما. كان عندها شىء أعطاها إياه النبى ﷺ فى سفط. ففقدته. فأخذت تطلبه فلما وجدته خرت ساجدة[3].

وروى أن جابر بن عبد الله صنع طعاما لرسول الله ﷺ فاجتمع هو ونفر من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم فتذاكروا فى الطاعة كله ولرسوله إلى أن قال أبو بكر إنما حبب لى من الدنيا يارسول الله ثلاث:

أنفاق مالى عليك. والجلوس بين يديك وكثرة الصلاة عليك. وقال عمر وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث أكرام الضيف والصيام فى الصيف والضرب بين يدى رسول الله ﷺ بالسيف.

وقال عثمان: حبب إلى الدنيا ثلاث. إطعام الطعام. وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام وقال على مثل ذلك فقال لهم رسول الله ﷺ وأنا حبب إلى من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عينى فى الصلاة.

---

(١) الكنز جـ ٢ ص ١٥٢.

(٢) الكنز جـ ٢ ص ١٥٢.

(٣) الكنز ج ٢ ص ٢٩٠. وقال الهيثمى: إسناده حسن وفى بعض رجاله كلامه.

فنزل جبريل فقال وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث تبليغ الرسالة وأداء الأمانة وعيادة المرضى ثم غاب وظهر. وقال يا رسول الله ورب العزة يقول وأنا حبب إلى من الدنيا ثلاث لسان ذاكر وقلب شاكر وجسم على البلاء صابر. أ. هـ)[1].

ويتضح لنا مما تقدم من نصوص فى شكر الصحابة رضى الله عنهم:

١ ـ أنهم كانوا نماذج عالية فى شكر الله عز وجل. وأمثلة يحتذى بها. فقد كانوا يجمعون بين الشكر بالقلب واللسان والجوارح. تجد هذا فى فعل سيدنا عمر. عندما قطع كل مازاد عن بدنه في الثوب الجديد. اكتفاء بما يحتاج إليه. وتوفيرا للمال أن يهدر بلا حاجة وفى تصدقة بالثوب القديم. وهذا كله من شكر الجوارح. كما شكر الله بلسانه يواطئه قلبه. بقوله: «الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى. وأتجمل به فى حياتى. فجمع رضى الله عنه بذلك بين ألوان الشكر فى نعمة واحدة. وهذا مثل يحتذى.

٢ ـ وأنهم كانوا يعظمون نعمة الله عز وجل. وأن قل حجمها فهذا الصحابى الذى تصدق عليه بتمرة من رسول الله ﷺ عظمها. وحرص على ألا تفارقه حرصا منه على بركتها قائلا: «ثمرة من نبى من أنبياء الله. لاتفارقنى هذه التمرة ما بقيت. ولا أزال أرجو بركتها».

٣ ـ وأنهم كانوا لا يغفلون عن نعم الله عز وجل. وأن حرموا من غيرها. «يمر سيدنا عمر على أجزم أعمى أصم أبكم. وينكر البعض أن عنده من نعم الله شيئا ولكن سيدنا عمر يذكرهم بما غفلوا عنه.

فيقول: ألا ترونه يبول فلا يعتصر يخرج منه بوله سهلا. فهذه نعمة من الله. فيذكرهم بما غفلوا عنه.

٤ ـ وأنهم كانوا يحرصون على اشاعة شكر الله بينهم. ويتحاضون عليه. فسيدنا عمر يسأل صحابيا عن حاله. فيجيب الصحابى بحمد الله. فيصرح عمر بأنه ما سأله عن حاله إلا ليجيب بالحمد لله ليكون من الشاكرين.

---

(١) ابن عجيبة جـ ١ ص ٣٩٧. وقال: ذكره الشطبى فالله أعلم بصحته غير أنه كلام صحيح فى نفسه.

٥ ـ ويتحاضون على شكر النعم بصرفها فيما خلقت له. هذا سيدنا عمر يقول لسيدنا أبى موسى الأشعرى: «وشكره لله أداء للحق الذى افترض عليه فيما رزقه وخوله».

٦ ـ ويحرص سيدنا عمر على الشكر بأن مع الشكر الزيادة. يذكر بذلك الغافلين.

٧ ـ ويشكر سيدنا عثمان المولى عز وجل بلسانه حامدا. حمدا يواطئه فيه قلبه. مع شكره بالأركان بعتق عبد إن لم ير منكرا كان عليه بعض الناس. وحصل خبره إليه.

٨ ـ وبحث سيدنا على على الشكر بالتذكير بما جاء فى القرآن من أن الشكر يثمر ازدياد النعم.

٩ ـ وكانوا من الفقه بحيث كانوا يرون النعم أعم وأوسع من مجرد نعمتى الأكل والشرب.

شكر الأنبياء
«شكر نبينا صلى الله عليه وسلم»

ويبلغ الشكر القمة إذا كان من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وخاصة شكر سيد الأنبياء وإمام المرسلين سيدنا محمد ﷺ وشرف وكرم.

فقد بلغ الغاية التى تنقطع دونها الأعناق فى شكر المولى عز وجل.

ولا سبيل لباحث للإحاطة بشكره ﷺ. وإنما حسب الباحث أن يقدم نماذج من شكره ﷺ.

فلقد قام ﷺ حتى انتفخت قدماه.

عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه قال:

«قام النبى ﷺ حتى انتفخت قدماه. فقيل له: يانبى الله تكلف هذا. وقد غفر لك؟. قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟[(١)]

وعن عطاء أنه قال: دخلت على عائشة رضى الله عنها. فقلت: أخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ فبكت. وقالت: وأى شأنه لم يكن عجبا؟. أتانى ليلة فدخل معى فراش. أو قالت: فى لحافى حتى مس جلده جلدى. ثم قال: يا ابنة أبى بكر ذرينى أتعبد لربى. فقالت: قلت أنى أحب قربك. لكنى أوثر هواك. فأذنت له.

فقام إلى قربة ماء فتوضأ فلم يكثر صب الماء. ثم قام يصلى فبكى حتى سالت دموعه على صدره. ثم ركع فبكى. ثم سجد فبكى. ثم رفع رأسه فبكى. فلم يزل كذلك يبكى حتى جاءه بلال. فآذنه بالصلاة. فقلت: يارسول الله ما يبكيك. وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدا شكورا. ولم لا أفعل ذلك. وقد أنزل الله تعالى علىّ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٢)].

---

(١) اتم تخريجه فى مبحث الشكر بالأركان. ، صحيح البخارى ص ٢ ص ٦٣.

(٢) تم تخريجه فى مبحث - (الشكر بالأركان)

فها هو ﷺ يهجر لذيذ المنام. ليقوم الليل بين يدى المولى عز وجل باكيا. وقد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ومن شكره ﷺ أنه كان يذكر الله على كل أحيانه. عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه»[1].

فكان صلى الله عليه وسلم ذاكرا لله أبدا فى خلوته وفى جولته. وفى يقظته وفى منامه. تنام عينه ولا ينام قلبه .

والذكر رأس الشكر كما قدمت.

وكان ﷺ يوصى أمته بمداومة ذكر الله عز وجل.

عن عبد الله بن بشر قال: أتى النبى ﷺ رجل فقال: «يا رسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت على. فباب نتمسك به جامع. . قال: لايزال لسانك رطبا من ذكر الله»[2].

وكان صلى الله عليه وسلم يطيل السجود شكرا لله عز وجل. فى سجود الشكر حتى يظن من رآه أنه قد قبض.

أخرج أحمد عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال:

«خرج رسول الله ﷺ فتوجه نحو مشربته. فدخل فاستقبل القبلة فخر ساجدا. فأطال السجود حتى ظننت أن الله عز وجل قد قبض نفسه فيها. . فدنوت منه فجلست. فرفع رأسه. قال: من هذا؟ قلت: عبد الرحمن. قال: ما شأنك؟ قلت: يارسول الله سجدت سجدة خشيت أن يكون الله عز وجل قد قبض نفسك فيها.

فقال: إن جبريل عليه السلام أتانى فبشرنى. فقال: إن الله عز وجل يقول:

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه جـ٤ ص ٦٨ كتاب الحصين باب ذكر الله تعالى فى حال الجناية ورواه البخارى جـ١ ص٨٣.

(٢) خرجه الأمام أحمد بهذا اللفظ ج١ ص ٨٣. كتاب الحصين، باب تقضى الحائض المناسك كلها وخرجه الترمذى وابن ماجه وابن حبان فى صحيحه. فبمعناه. وقال الترمذى حسن غريب.

«من صلى عليك صليت عليه. ومن سلم عليك سلمت عليه. فسجدت لله عز وجل شكرا»[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يطيل السجود إذا انفرد فى صلاته شكرا لله عز وجل.

أخرج الطبرانى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال: أقبلت إلى رسول الله ﷺ. فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلى فلم يزل قائما حتى أصبح. فسجد سجدة ظننت أن نفسه قد قبضت فيها. قال: تدرى لم ذاك؟. أنى صليت ماكتب لى ربى. وأتانى ربى. فقال لى فى آخرها: ما أفعل بأمتك؟ قلت: أى ربى أنت أعلم. فأعادها على ثلاثا أو أربعا. فقال لى فى آخرها: ما أفعل بأمتك؟

قلت: أنت أعلم يارب. قال: إنى لا أحزنك فى أمتك. فسجدت لربى. وربى شاكر يحب الشاكرين[2].

وأخرج الطبرانى عن عبد الرحمن بن أبى بكر رضى الله عنهما.

قال: جئت أزور رسول الله ﷺ فإذا هو يوحى إليه فلما سرى عنه قال لعائشة رضى الله عنها: «ناولينى ردائى». فخرج فدخل المسجد. فإذا فيه قوم ليس فى المسجد غيرهم. فجلس ففى ناحية القوم حتى قضى المذكر تذكرته. قرأ تنزيل للسجدة فأطال السجود حتى إذا جاء من كان على قدر مبين. وتسامع الناس سجوده فعجز المسجد عن الناس.

فأرسلت عائشة إلى أهلها أحضروا رسول الله ﷺ فلقد رأيت منه شيئا لم أره. فرفع رأسه.

فقال أبو بكر رضى الله عنه: يارسول الله أطلت السجود.

---

(١) المسند ج١ ص ١٩١، قال الهيثمى: ورجال ثقات ص ٢ ص ٢٨٧

(٢) قال الهيثمى: ج٢ ص ٢٨٨. رواه الطبرانى فى الكبير. وعن حجاج ابن عثمان السكسكى عن معاذ ولم يدرك معاذا. فقد ذكره ابن حبان فى اتباع التابعين. وهو من طريق بقية. وقد عنعنه - أى قال عن فلان عن فلان. . وقوله: أتانى ربى: أى أتانى رسول ربى.

فقالت: «سجدت لربى شكرا. فيما أعطانى من أمتى. سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب».

فقال أبو بكر: يارسول الله أمتك أكثر وأطيب فاستكثرهم. مرتين أو ثلاثا وقال عمر رضى الله عنه: بأبى أنت وأمى يارسول الله قد أستوهبت أمتك(١).

وأخرج الطبرانى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى ﷺ مر به رجل به زمانه. فنزل وسجد. ومر به أبو بكر رضى الله عنه فنزل وسجد. ومر به عمر فنزل وسجد(٢).

فهذا سجود شكر من المصطفى ﷺ والصاحبين على معافاتهم مما ابتلى الله عز وجل به هذا الرجل الزمن.

وأخرج البيهقى عن على رضى الله عنه قال:

بعث رسول الله ﷺ سرية من أهله فقال: «اللهم إن لك علىّ أن رددتهم سالمين أن أشكرك حق شكرك» فما لبثوا أن جاءوا سالمين. فقال رسول ﷺ: «الحمد لله على سابغ نعم الله».

فقلت: يارسول الله ألم تقل : إن ردهم الله أشكره حق شكره؟.

فقال: أو لم أفعل؟(٣)

ويتضح لنا مما قدمناه من نصوص فى شكر نبينا ﷺ.

١ ـ أنه قام مصليا حتى انتفخت منه الأقدام. مع غفران ذنوبه ماتقدم منها وما تأخر.

٢- وأنه كان يهجر لذيذ المنام ليقوم الليل. ذاكرا شاكرا. مستغفرا مصليا. تاليا للقرآن.

---

(١) طلبت من الله أن يهبهم لك فلا يعذبهم. وفى الحديث موسى بن عبيدة. وهو ضعيف.. مجمع الزوائد جـ ٢ ص ٢٨٩.

(٢) الزمانه: المرض الدائم.. وسجود المصطفى ﷺ والصحابة إنما هو شكر لله على معاناتهم من هذا البلاء. وهذا الحديث به عبد العزيز بن عبيد الله.. وهو ضعيف.. كما فى مجمع الزوائد ج٢ ص ٢٨٩.

(٣) جامع العلوم والحكم لابن عجيبه. ص ١٢٤ - تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور.

٣ ـ وأنه كان يذكر الله عز وجل على كل أحيانه. فى خلوته وجلوته ويقظته ومنامه.

٤ ـ وأنه كان يأمر أمته بذلك .

٥ ـ وأنه كان يسجد للشكر. ويطيل السجود حتى يظن من رآه أنه قد قبض.

٦ ـ كما كان يطيل السجود شاكرا لله عز وجل فى صلاته إذا انفرد إذا من الله عز وجل عليه بنعمة. حتى يظن من رآه أنه قد قبض.

٧ ـ وأنه كان يسجد لله شكرا على معافاته مما أبتلى الله به خلقه.

٨ ـ وأنه كان يسجد لله شكرا عند دفع النقم المتوقعة.

٩ ـ وأن قول: «الحمد لله على سابغ نعمة» إذا واطأ اللسان القلب كان من قبيل: «شكرا لله حق شكره».

شكر آدم عليه السلام

أبونا آدم صلى الله عليه وعلى سيدنا محمد أفضل الصلاة وأتم التسليم أبو البشرية خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته وعلمه الأسماء كلها.

وكل ذلك من جلائل النعم. التى تحتاج إلى شكر يليق بها.

ومن هنا عجب سيدنا موسى عليه السلام من استطاعة أبينا آدم شكر هذه النعم. وسأل الله عز وجل عن كيفية شكر أبينا آدم لهذه النعم.

عن الحسن قال: قال موسى عليه السلام:

«يارب كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه؟. خلقته بيدك. ونفخت فيه من روحك. وأسكنته جنتك. وأمرت الملائكة ذلك شكرا لما صنعته»(١).

ويشهد لهذا ما رواه الحاكم بسنده عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «ما أنعم الله على عبد نعمة فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله شكرها قبل أن يشكرها وما أذنب عبد ذنبا فندم عليه إلا كتب الله له مغفرته قبل أن يستغفره»(٢).

فالعلم بأن النعمة من عند الله شكر لها. وشكرها بالقلب واللسان شكر ثان لها. وبذلك يكون الشاكر قد شكر الله حق شكره.

قال ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله. إلا كان الذى أعطى أفضل مما أخذ»(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن عجيبة. ص ١٢٤ - تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور

(٢) المستدرك جـ ٤ ص٢٥٣. وصححه. لكن الذهبى ضعفه ببعض رواته. وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ١٠ ص ١٩٩١ تاما عن الطبرانى. من طريقين ضعيفين.

(٣) رواه ابن ماجه بسنده عن أنس مرفوعا جـ ٢ ص ١٢٥٠ فى كتاب الأدبى باب فضل الحامدين وقال صاحب الزوائد : فى إسناده شبيب بن بشر مختلف فيه. در أبو النور ص ١٢٥ .

وأبونا آدم جمع بين العلم بأن النعم كلها من الله. وحمده عليها. فجمع بين العلم والحمد. فكان شاكرا لله عز وجل.

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: «إنى بأرض قد كثرت فيها النعم. حتى لقد أشفقت على أهلها من ضعف الشكر.

فكتب إليه عمر: «إنى قد كنت أراك أعلم بالله مما أنت. إن الله لم ينعم على عبد نعمة فحمد الله عليها إلا كان حمده أفضل من نعمه لو كنت لاتعرف ذلك إلا فى كتاب الله المنزل قال الله تعالى: «ولقد آتينا داود وسليمان علما وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين»[1].

وقال تعالى: «وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوا وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فأدخلوها خالدين وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده»[2].

رأى نعمه أفضل من دخول الجنة.

وقد ذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب الشكر عن بعض العلماء أنه صوب هذا القول.. أعنى قول من قال.. إن الحمد أفضل من النعم.

وعن ابن عيينة أنه خطأ قائله.. وقال لايكون فعل العبد أفضل من فعل الرب عز وجل ولكن الصواب قول من صوبه. فإن المراد بالنعم النعم الدنيوية وكلاهما نعمة من الله لكن نعمة الله على عبده بهدايته لشكر نعمة بالحمد عليها أفضل من نعمه الدنيوية على عبده فإن النعم الدنيوية إن لم يقترن بها الشكر كانت بلية كما قال أبو حازم كل نعمة لاتقرب من الله فهى بلية.

فإذا وفق الله عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر كانت هذه النعمة خيرا من تلك النعم وأحب إلى الله عز وجل فإن الله يحب الحامد ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها[3].

---

(١) النمل: ١٥

(٢) الزمر: ٧٣: ٧٤

(٣) كما جاء فى الحديث الذى رواه أنس عن النبى ﷺ قال: «إن الله ليرضى عن العبد كان يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمده عليها. أخرجه الترمذى فى كتاب الأطعمة: باب ماجاء فى الحمد على الطعام إذا فرغ منه جـ٤ ص ٢٦٥.

والثناء بالنعم والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم. فهم يبذلونها طلبا للثناء والله عز وجل أكرم الأكرمين. وأجود الأجودين. فهو يبذل نعمه لعباده.. ويطلب منهم الثناء بها وذكرها والحمد عليها ويرضى منهم بذلك شكرا عليها. وإن كان ذلك كله من فضله عليهم. وهو غير محتاج إلى شكرهم لكنه يحب ذلك من عباده. حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه ومن فضله سبحانه: أنه نسب الحمد والشكر اليهم وإن كان من أعظم نعمه عليهم وهذا كما أنه أعطاهم ما أعطاهم من الأموال ثم استقرض منهم بعضه ومدحهم بإعطائه والكل ملكه ومن فضله. ولكن كرمه اقتضى ذلك.

ومن هنا يعلم الأثر الذى جاء مرفوعا وموقوفا[١].

الحمد لله حمدا يوافى نعمه ويكافىء مزيده[٢].

(١) راجع الترغيب والترهيب.
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب ص ١٢٧.

شكر نوح عليه السلام

لقد مدح القرآن سيدنا نوح بأنه كان شكورا.

قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[١].

«وورد فى الحديث وفى الأثر عن السلف أن نوحا عليه السلام كان يحمد الله على طعامه وشرابه ولباسه وشأنه كله فلهذا سمى عبدا شكورا»[٢].

وعن سعد بن مسعود الثقفى قال: «انما سمى نوح عبدا شكورا لأنه كان إذا أكل أو شرب حمد الله»[٣].

وروى الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة أو يشرب الشربة فيحمد الله عليها»[٤].

وكان الشكر صفة مميزة لسيدنا نوح عليه السلام.

بدليل أن الخلائق عندما تدنو الشمس من الرؤوس يوم القيامة وتتحرك الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم فى فصل القضاء. يتوجهون إلى نوح ويسألونه الشفاعة العظمى محتجين بأن الله سماه عبدا شكورا.

إذن فالشكر أرفع أوسمة نوح بعد الرسالة والنبوة.

روى البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة - بطوله وفيه - فيأتون نوحا فيقولون يانوح انك أنت أول رسول إلى أهل الأرض. وقد سماك الله عبدا شكورا. فاشفع لنا إلى ربك[٥].

---

(١) الإسراء: ٣.

(٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٢٤.

(٣) الطبرانى جـ ص

(٤) المسند جـ٣ ص ١٠٠، ١١٧ وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى.

(٥) صحيح البخارى ـانبياء : ٣

وحدثت أم النعمان أن عائشة حدثتها عن النبى ﷺ أنه قال: «إن نوحا عليه السلام لم يقم عن خلاء قط إلا قال: الحمد لله الذى أذاقنى لذته وأبقى على منفعته فى جسدى وأخرج عنى أذاه»[1].

وورد أن نوحا عليه السلام كان إذا خرج من الكنيف قال ذلك. فسمى عبدا شكورا[2].

وقد أمره الله بحمده. والحمد كما قدمت رأس الشكر وهو أفضل من النعم.

أمره بحمده عند استوائه ومن معه على الفلك بقوله عز من قائل: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[3]. وقد أمتثل نوح عليه السلام هذا لأنه نبى مرسل ينفذ أوامر الله عز وجل.

وروى الإمام أحمد بسنده عن أبى هريرة قال: مر النبى ﷺ بأناس من اليهود وقد صاموا يوم عاشورا فقال: ماهذا الصوم؟.. فقالوا هذا اليوم الذى نجى الله به موسى وبنى إسرائيل من الغرق وغرق فيه فرعون.

وهذا يوم استوت فيه السفينة على الجودى. فصام نوح وموسى عليهما السلام شكرا لله عز وجل. فقال النبى ﷺ: «أنا أحق بموسى وأحق بصوم هذا اليوم. فصام. وقال لأصحابه: «من كان أصبح منكم صائماً فليتم صومه. ومن كان أصاب من غذاء أهله فليتم بقية يومه»[4].

وعن ابن عمر رضى الله عنهما: «أن نوحا هبط من السفينة على الجودى يوم عاشوراء فصام وأمر من معه بصيامه شكرا لله»[5].

وهكذا يتميز سيدنا نوح بالشكر. فهو يشكر الله على كل أحيانه كما كان نبينا ﷺ يشكر الله على كل أحيانه.

ومن هنا سماه الله عبدا شكورا

---

(١) مسند احمد - مسند عائشة. جـ٦ ص ٢٩

(٢) ابن أبى الدنيا فى كتابه الشكر ص ٦٠.

(٣) المؤمنون: ٢٨.

(٤) المسند جـ١ ص ٢٩١. وهو حديث غريب من هذا الوجه. ولبعضه شاهد فى الصحيح. ابن كثير جـ٣ ص ٤٤٧. والبخارى: صوم ٦٩٠ باب صيام يوم عاشوراء جـ٣ ص ٥٧.

(٥) المسند جـ ٣ ص ٣٦٠.

شكر إبراهيم عليه السلام

لقد مدح القرآن سيدنا إبراهيم بأنه كان شاكرا لأنعم الله.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾(١).

ومن شكر سيدنا إبراهيم حمده لله عز وجل. والحمد كما قدمت رأس الشكر. وهو أفضل من النعم(٢).

قال تعالى حاكيا حمد سيدنا إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾﴾(٣).

شكر موسى عليه السلام

وكان موسى عليه السلام من الشاكرين لله عز وجل.

روى البخارى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة فوجد اليهود صياما فقال: ماهذا؟ فقالوا: هذا يوم أنجى الله فيه موسى وأغرق فرعون. فصامه موسى شكرا. فقال رسول الله ﷺ: نحن أحق بموسى منكم. فصامه وأمر بصيامه»(٤).

فموسى عليه السلام شكر الله بصيامه لله عز وجل. كما كان سيدنا موسى من الشاكرين لله عز وجل بكثرة ذكره. والشكر بكثرة الذكر هو رأس الشكر وقمته. وما شكر الله أحدكن شكره بكثرة ذكره. وكان موسى عليه السلام من هذا الفريق.

عن عبد الله بن سلام أن موسى عليه السلام قال: «يارب ما الشكر الذى ينبغى لك؟ قال: ياموسى ألا يزال لسانك رطبا من ذكر الله»(٥).

---

(١) النحل: ١٢٠ - ١٢١.

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢٢٠١.

(٣) إبراهيم: ٣٩.

(٤) صحيح البخارى جـ٣ ص ٥٧ كتاب الصيام باب صوم يوم عاشوراء . . الأنبياء: ٣٤، ابن ماجه جـ١ ص ٥٥٤ صيام ٤١.

(٥) كتاب الشكر ص ٢٧.

وكان سيدنا موسى من الشاكرين لله عز وجل بقلبه بمعرفته أن جميع النعم منه سبحانه وتعالى.

عن أبى الجلد قال: قرأت فى مسألة موسى عليه السلام. قال يارب كيف أشكرك. وأصغر نعمة وضعتها عندى من نعمك لايجازى بها عملى كله»؟ قال: فأتاه الوحى: أن «ياموسى الآن شكرتنى»[1].

وقال أبو عمرو الشيبانى: قال موسى عليه الصلاة والسلام يوم الطور «يارب إن أنا صليت فمن قبلك. وإن أنا تصدقت فمن قبلك. وإن أنا بلغت رسالاتك فمن قبلك فكيف أشكرك؟ قال: الآن شكرتنى»[2].

وعن الحسن قال: قال موسى عليه السلام: «يارب كيف يستطيع آدم أن يؤدى شكر ما صنعت إليه؟ خلقته بيدك ونفخت فيه من روحك. وأسكنته جنتك. وأمرت الملائكة فسجدوا له. فقال: ياموسى. علم أن ذلك منى فحمدنى عليه. فكان ذلك شكرا لما صنعته»[3].

وفى هذا الحديث كما فى الحديث الذى قبله نرى أن سيدنا موسى عليه السلام كان مهتما بشكر الله عز وجل. وحريصا على معرفة كيفية أدائه على أكمل وجه. كما أنه كان يعرف أن جميع ما بالعباد من نعم الله عز وجل. وقد أجابه المولى عز وجل بأن معرفة أن النعم من عند الله شكر لله. وإذا انضم إلى تلك المعرفة الشكر باللسان والجنان. بلغ الشكر الذروة.

ويشهد لكون معرفة أن النعمة من عند الله شكر لها من سنة نبينا ﷺ.. شارحة القرآن ومبينته كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[4].

أقول يشهد لكون معرفة أن النعمة من عند الله شكر لها قوله ﷺ: «ما أنعم

(١) جامع العلوم والحكم ص ١٢٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) النحل: ٤٤

الله على عبد نعمة. . فعلم أنها من عند الله إلا كتب الله شكرها قبل أن يشكرها. وما أذنب عبد ذنبا فندم عليه إلا كتب الله له مغفرته قبل أن يستغفره[1].

شكر داود عليه السلام

يقول عز وجل: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[2].

«أى قلنا لهم أعملوا شكرا على ما أنعم به عليكم فى الدين والدنيا».

وروى ابن أبى حاتم بسنده عن ثابت البنانى قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة. فكانت لا تأتى عليهم ساعة من الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلى فغمرتهم هذه الآية «اعملوا آل داود شكرا».

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحب الصلاة إلى الله صلاة داود. كان ينام نصف الليل. ويقوم ثلثه وينام سدسه. وأحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود. كان يصوم يوما ويفطر يوما ولا يفر إذا لاقى»[3].

وروى ابن ماجه بسنده عن جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قالت أم سليمان بن داود عليهما السلام لسليمان: يابنى لاتكثر النوم بالليل. فان كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيرا يوم القيامة»[4].

ومن هذه النصوص يظهر لنا أن آل دواد أى داود وأهل بيته كانوا فى ذروة الشكر لله عز وجل.

ويروى عن داود عليه السلام أنه قال: يارب كيف أشكرك. والشكر نعمة أخرى منك احتاج عليها إلى شكر آخر؟ فأوحى الله تعالى إليه: ياداود إذا علمت

---

(١) رواه النسائى راجع المستدرك جـ٤ ص ٢٥٣ فقد أخرج فى هذا الموضوع الشطر الأخير من الحديث وصححه. لكن الذهبى ضعفه ببعض رواته. وأخرجه الهيثمى فى مجمع الزوائد جـ ١٠ ص ١٩٩ تاما عن الطبراني من حديث عائشة لكن من طريقين ضعيفين كذلك. جامع العلوم والحكم ص ١٢٤. تحقيق الدكتور الأحمدى أبو النور.

(٢) سبأ : ١٣.

(٣) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٤) ابن ماجه - جـ ١ ص ٤٢٢ باب ما جاء فى قيام الليل.

أن مابك من نعمة فمنى فقد شكرتنى»[1]. وقد عرف داود ذلك فكان شاكرا لله بجنانه بإسناد النعم كلها لله عز وجل.

وسأل داود عليه السلام قائلا: رب أخبرنى: ما أدنى نعمك على؟ فأوحى الله إليه يا داود تنفس فتنفس. فقال: هذا أدنى نعمتى عليك[2] فداود عليه السلام يحرص على السؤال عن أدنى نعمة لله عليه ليشكر الله عز وجل عليها. ومن شكر على الأدنى من النعم. فهو على الأعظم منها أشكر لله عز وجل.

وكان داود ممن يشكر الله عز وجل بحمده والحمد رأس الشكر كما قدمت مرارا.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3].

وكان سيدنا داود لكثرة شكره لله عز وجل يرى أنه حسب علمه لا يوجد أحد من خلق الله مدح الله شكرا له أفضل من مدح داود لربه شكرا له.

حدث خالد بن مخدوج أبو روح قال: سمعت أنس بن مالك يقول: «إن داود نبى الله ظن فى نفسه أن أحدا بما علمه خالقه أفضل مما مدحه[4] وإن ملكا نزل وهو قاعد فى المحراب والبركة إلى جنبه فقال: ياداود افهم إلى ما تصوته الضفدع. فأنصت فإذا الضفدع يمدحه - أى ترى ياداود؟ أفهمت ماقالت؟. قال الملك انها قالت: «سبحانك وبحمدك منتهى علمك يارب» قال داود: والذى جعلنى نبيا إنى لم أمدحه بهذا»[5].

ومن صيغ الحمد التى حمد الله تعالى بهما سيدنا داود فأتعبت الملائكة فى تقيمها عند كتابتها ما رواه سفيان بن سعيد أن نبى الله داود عليه السلام قال: «الحمد لله حمدا كما ينبغى لكرم وجه ربى عز وجل فأوحى الله اليه: يا داود أتعبت الملائكة»[6].

---

(١) تفسير البقاعى. نقلا عن رسالة مخطوطة كتبها الباحث عزت ص ٥٠، جامع العلوم والحكم ص ١٣٤.
(٢) كتاب الشكر ص ٧٠.
(٣) النمل: ١٥.
(٤) أى فى ثنائه على خالقه. والمعنى أنه لا يعلم أحدا أفضل فى ثنائه على الله من ثناء داود على الله.
(٥) كتاب الشكر ص ٢٦.
(٦) كتاب الشكر ص ٢٦.

شكر سليمان عليه السلام

كان سليمان من الشاكرين لله عز وجل فهو من آل داود وفيهم قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾.

وقد روى ابن أبى حاتم بسنده عن ثابت البنانى قال: كان داود عليه السلام قد جزأ على أهله وولده ونسائه الصلاة.. فكانت لا تأتى عليهم ساعة من الليل أو النهار إلا وانسان من آل داود قائم يصلى. فغمرتهم هذه الآية «اعملوا آل داود شكرا»[1].

وقال تعالى حاكيا شكر سيدنا سليمان: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾[2].

فنرى فى هذه الآيات شكر سيدنا سليمان للمولى عز وجل متمثلا فى حمد الله وكما قلت مرارا إن الحمد رأس الشكر. وهو أعظم من النعمة وهو شكر للنعمة حق شكرها. ونراه يعدد نعم الله عليه وعلى آل داود تلك النعم التى يشكر الله عليها. فهو يذكر نعمة تفضيل الله لآل داود على كثير من عباده المؤمنين. كما يذكر نعمة تعليم الله له منطق الطير. وايتائه من كل شىء. وتسخير الجن والانس والطير له. وتعليمه منطق الطير والحيوانات المختلفة.

---

(١) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

(٢) النمل: ١٥: ١٩

يذكر هذه النعم كلها وينسبها لمانحها ومعطيها وهو الله عز وجل، وذلك لون من الشكر بالجنان واللسان أيضا.

ثم يسأل فى ختام الآيات المولى عز وجل أن يعينه الله على شكر هذه النعم.

وكان سيدنا سليمان شديد الحرص على شكر النعم. والخوف من التقصير فى الشكر. يشير إلى ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا سليمان لما أحضر الذى عنده علم من الكتاب عرش بلقيس أمام سيدنا سليمان: . . ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

لقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سيدنا سليمان عليه السلام وراعه أن يحقق الله له مطالبه على هذا النحو المعجز. واستشعر أن النعمة - على هذا النحو - ابتلاء ضخم مخيف يحتاج إلى يقظة منه ليجتازه. ويحتاج إلى عون من الله ليتقوى عليه. ويحتاج إلى معرفة النعمة والشعور بفضل المنعم ليعرف الله منه هذا الشعور فيتولاه والله غنى عن شكر الشاكرين. ومن شكر فإنما يشكر لنفسه فينال من الله زيادة النعمة وحسن المعونة على اجتياز الابتلاء. ومن كفر فإن الله غنى عن شكر الشاكرين يعطى عن كرم لا عن ارتقاب للشكر على العطاء[2].

---

(١) النمل : ٤٠.

(٢) فى ظلال القرآن جـ ٥ ص ٢٦٤٢.

شكر لقمان عليه السلام

كان لقمان عليه السلام من الشاكرين. أمره الله بالشكر فشكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

لقد ذكرت لقمان عليه السلام بين الأنبياء لآثار وردت تعده بين الأنبياء. والراجح أنه كان حكيما فحسب.

قال ابن كثير فى تفسيره: «اختلف السلف فى لقمان هل كان نبيا أو عبدا صالحا من غير نبوة؟ على قولين الأكثرون على الثانى. فعن ابن عباس قال: كان لقمان عبدا حبشيا نجارا. وعن عبد الله بن الزبير قال: قلت لجابر بن عبد الله: ما انتهى اليكم من شأن لقمان؟ قال: كان قصيرا أفطس الأنف من النوبة.

وعن سعيد بن المسيب قال: كان لقمان من سودان مصر ذا مشافر أعطاه الله الحكمة ومنعه النبوة.

فكونه عبدا ينافى كونه نبيا لأن الرسل كانت تبعث فى «أحساب قومها ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبيا. وإنما ينقل كونه نبيا عن عكرمة إن صح السند إليه. فإنه رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال: كان لقمان نبيا.

وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفى. وهو ضعيف. والله أعلم[2].

لقمان هذا آتاه الله الحكمة أى الفهم والعلم والتعبير وأمره الله تعالى بشكره على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل الذى خصصه به عمن سواه من أنبياء جنسه وأهل زمانه.

---

(١) لقمان: ١٢

(٢) ابن كثير جـ ٣ ص ٤٤٣

وأعلمه وأعلم الخلائق أن نفع الشكر إنما يعود على الشاكر. فالله غنى عمن خلق وعما خلق. وقد وضع الله الأمر بشكر الوالدين بين وصايا سيدنا لقمان لابنه بقوله عز من قائل: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. للحث على شكر الله عز وجل وشكر الوالدين كذلك. وللإشارة إلى أنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس وتوسيعا لدائرة الشكر.

هذا ما تيسر لى من شكر الأنبياء مما يتصل بالنصوص القرآنية أو النبوية الشارحة لها. أو المؤسسة وما ورد على ألسنة الصحابة من عبارات تتصل بشكر الأنبياء. والراجح أنها من المرفوع مالم يعلم أن الصحابى ممن يأخذ عن أهل الكتاب.

وقلت مما يتصل بالنصوص القرآنية والنبوية وأقوال الصحابة لأن شكر الأنبياء أوسع من أن تحيط به صفحات معدودات أو تحيط به باحثة مثلى وإنما هو جهد المقل وفى حدود النصوص.

البَابُ الثَّالِثُ

١ ـ شكر الإنسان لله

إن شكر الإنسان لله عز وجل قد استغرق الفصول السابقة كما سيستغرق الفصول اللاحقة فى الرسالة .

ومن هنا فلا يحتاج لإعادة الحديث عنه هنا .

وإنما عنونت له لأنه قيّم شكر الإنسان للإنسان .

وكلاهما ينطوى تحت تقسيم لابد منه للشكر .

وهو تعدد الشكر بالنسبة للمشكور .

١ ـ شكر الإنسان للإنسان

أشار القرآن الكريم إلى شكر الإنسان للإنسان بقوله عز من قائل: «ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير»[١].

و«أن» فى قوله تعالى: «أن أشكر لى ولوالديك» على ما اختاره الزمخشرى وغيره تفسيرية فما بعدها بيان لفعل التوصية. إذ هو متضمن معنى القول. أى قلنا له: أشكر لى ولوالديك وإنما وسط الأمر بشكر الله تعالى. مع أن الوصية فى الآية مخصوصة بالوالدين. لإفادة أنه لا يقع شكر الوالدين موقعه إلا بعد شكر الله.

فشكر الله تعالى هو حسن رعاية النعم التى أنعم الله بها على الإنسان وصرفها فيما خلقت له. بالطاعة وإخلاص العبادة لله وفعل ما يرضيه.

وشكر الوالدين طاعتهما وبرهما والقيام بكل ما يرضيهما إلا أن تكون فيه معصية لله.

عن سفيان بن عيينة قال: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله. ومن دعا لوالديه فى أدبارها فقد شكرهما. ولعل هذا بيان لبعض أفراد شكرهما.

وحثت السنة النبوية فى الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة على شكر الإنسان للإنسان قال صلى الله عليه وسلم: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[٢].

وعن أنس أن المهاجرين قالوا: «يارسول الله ذهبت الأنصار بالأجر كله. قال: لا مادعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم»[٣].

---

(١) لقمان : ١٤.

(٢) أبو داود جـ ٢ كتاب الأدب ص ٥٥٥. باب فى شكر المعروف. ورواه أحمد جـ٣ ص ٢٥٨، ص ٢٩٥ وقال فى مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد ثقات. جـ٨ ص١٨٠.

(٣) المصدر السابق.

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أعطى عطاء فوجد فليجز به. فإن لم يجد فليثن به فمن أثنى به فقد شكره ومن كتمه فقد كفره»[1].

وعن جابر عن النبى ﷺ قال: «من أُبْلى بلاء فذكره فقد شكره. وإن كتمه فقد كفره»[2].

فى هذه النصوص النبوية الحث على شكر الناس على ما يأتى على أيديهم من نعم الله وأن شكر الناس من شكر الله عز وجل.

كما أن هذه النصوص تحذر من ترك شكر الناس. وتسميه كفرا.

وهذه النصوص تجعل شكر الناس قسمين:

القسم الأول: المكافأة على المعروف بمثله.

والقسم الثانى: الثناء على صاحبه باللسان وذكر معروفه واشاعته.

وقد حث سيدنا رسول الله ﷺ النساء على الإكثار من الصدقة والاستغفار حتى لا يدخلن النار بسبب كفران العشير. أى كفران نعم الزوج عليهن. وعدم شكرهن لها.

فعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«يا معشر النساء تصدقن. وأكثرن الاستغفار فإنى رأيتكن أكثر أهل النار. فقالت إمرأة منهن جزلة: وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير. ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن.

قالت: يا رسول الله وما نقصان العقل والدين ؟

(١) أبو داود جـ ٢ كتاب الأدب ص ٥٥٥ والبخارى فى الأدب وصححه السيوطى فى الجامع الصغير جـ٢، ص٢٨٣.

(٢) المصدر السابق. ومعنى أبلى بلاء: أى أعطى عطاء ولم يحكم عليه السيوطى واكتفى بقوله أبو داود والضياء. عن جابر وقال صاحب عون المعبود جـ٢، ص٢٧٠. جـ١٣، ص ١٦٧ كتاب الأدب والحديث سكت عنه المنذرى.

قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل واحدة فهذا نقصان العقل.

وتمكث الليالى ما تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين»(١).

وعنه ﷺ قال: «رأيت النار فى عرض هذا الحائط. فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع. ورأيت أكثر أهلها النساء.

قالوا: بم يارسول الله؟

قال : يكفرن.

قيل: يكفرن بالله؟

قال: يكفرن العشير.. ويكفرن الإحسان. لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله. ثم رأت منك شيئا قالت: ما رأيت منك خيرا قط»(٢).

والمختار أن رؤية النار رؤية عين فى اليقظة. والمختار أن النار مثلت له. ويؤيده حديث أنس فى البخارى : «لقد عرضت على الجنة والنار آنفا فى عرض هذا الحائط وأنا أصلى»(٣).

ويقول ابن عطاء الله: حاثا على شكر الإنسان للإنسان.

«وإن كانت عين القلب تنظر أن الله واحد فى منته فالشريعة تقتضى أنه لابد من شكر خليقته.

ويقول ابن عباد فى شرح هذه الحكمة:

«إذا أوصل الحق تعالى إليك نعمة على يد إنسان. سواء كانت دينية أو دنيوية فعليك فى ذلك وظيفتان احداهما أن تشهد انفراد الله تعالى بذلك. فلا ترين النعمة إلا منه وحده وترى من سواه ممن أجراها الله على يديه مقهورا مجبورا على

---

(١) رواه مسلم إيمان ١٣٢، البخارى الحيض ١٦.

(٢) البخارى - إيمان ٣١.

(٣) البخارى صلاة ٥١. اعتصام ٣، مواقيت ١١.

ذلك. مسلطا عليه الدواعى والبواعث حتى لم يجد انفكاكا عنه. وهذا هو حق التوحيد.

والثانية: أن تشكر من وصلت إليك على يده النعمة.

بأن تدعو له. وتثنى عليه امتثالا لأمر الله تعالى. وعملا بما جاءت به الشريعة قال تعالى: «أن أشكر لى ولوالديك إلى المصير». وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله».

وفى حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أشكر الناس لله أشكرهم للناس». ولأن الله اختصه بأن أقامه فى ذلك وأهله له. ومن اسمائه تعالى. «الشكور» فليتخلق العبد بذلك. وهذا هو حق الشرع»[1].

«وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه لعائشة رضى الله عنها لما نزلت براءتها من الإفك على لسان رسول الله ﷺ يا عائشة اشكرى رسول الله ﷺ. فقالت: والله لا أشكر إلا الله.

دلها أبو بكر رضى الله عنه على المقام الأكمل. مقام البقاء المقتضى لإثبات الآثار وقد قال تعالى: «إن أشكر لى ولوالديك». وقال ﷺ: لا يشكر الله من لا يشكر الناس.

وكانت هى فى ذلك الوقت مصطلمة[2] عن شاهدها غائبة عن الآثار فلم تشهد إلا الواحد القهار»[3].

«ومعنى قوله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» أن الله لايقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس ويكفر معروفهم

---

(١) ابن عباد جـ ٢ ص ٨٥ - ٨٦.

(٢١) مصطلمه : أى منقطعة عن شاهدها وهو حكم بشريتها.

(٣) ابن عباد جـ ٢ ص ٨٧.

لاتصال أحد الأمرين بالآخر. وقيل: معناه أن من كان من طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لهم كان من عادته كفر نعمة الله تعالى وترك الشكر له.

وقيل: معناه: أن من لايشكر الناس كان كمن لايشكر الله وإن شكره.

كما تقول: لا يحبنى من لا يحبك. أى أن محبتك مقرونة بمحبتى فمن أحبنى يحبك ومن لم يحبك فكأنه لم يحبنى»[1].

ويزيد الأمر وضوحا. أمر شكر الناس وجعله من شكر الله الشيخ محمد الملا الحنفى فيقول: «اعلم أن المخلوق مضطر سلط الله عليه الإرادة وهيج عليه الدواعى. وألقى فى قلبه أن يعطيك فلم يجد بعد ذلك سبيلا إلى دفعك.

ولا يعطيك والحالة هذه إلا لغرض نفسه لا لغرضك. ولو لم يكن له غرض فى الاعطاء لما أعطاك. ولو لم يعتقد أن له نفعًا فى نفعك لما نفعك.

فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفعك. ويتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى يوجدها لنفسه.

وما أنعم عليك إلا الذى سخره لك. وألقى فى قلبه ما حمله على الإحسان اليك.

فإن قلت: فلم ورد الشرع بشكرى إياه حيث قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس» رواه أبو داود بهذا اللفظ والترمذى بلفظين. أحدهما: من لايشكر الناس لا يشكر الله» والآخر: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله».

وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله. والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر» الحديث.

وفى إسناده الجراح بن مليح. والد وكيع تكلم فيه بعضهم والعمل على توثيقه وأخرج له مسلم.

---

(١) النهاية لابن الأثير جـ ٢ ص ٤٩٣.

وفى حديث الأشعث بن قيس الكندى: «أن أشكر الناس لله أشكرهم للناس» أخرجه أحمد بن منيع فى مسنده.

قلت: ورد بذلك لكونه تعالى أجرى النعمة على يديه. فيكون شكرك إياه داعيا له إلى أن يزيد من فعل الخير.

فعليك شكر من أجرى الله النعمة على يديه من الناس لأجل أمر الله تعالى. لا لاعتقاد أنه فاعل. بل لو شكرته بذلك الاعتقاد لكنت مشركا. لا شاكرا. فاشكره وأعلم أنه لاينفع ولا يضر.

وأنه ربما تغير عليك بأيسر الأسباب. وانقلب حبه بغضا وزالت تلك الدواعى وتبدلت بأضدادها.

والمحسن الذى لا يتغير ولا يحول ولا يزول إنما هو رب الأرباب والواسطة بين الخلق والحق الذى هو بنا رؤوف رحيم لاتتغير حالته هو سيدنا محمد ﷺ.

فلا فاعل إلا الله. ولا سبب لخير إلا نبيه المصطفى الأمين خير الخلق أجمعين ﷺ»[١].

وإنما شرع شكر من أجرى الله على يديه نعمة. مع كون ذلك يجعله يزداد من فعل الخير ويساعد على شيوع الخير بين الناس. أقول شرع مع ذلك أيضا لأن المبتدىء بالمعروف متفضل.

ومن هنا كان من الواجب أن يكافأ بأفضل من معروفه.

قال أبو حاتم رضى الله عنه: الواجب على من أسدى إليه معروف أن يشكره بأفضل منه أو مثله. لأن الإفضال على المعروف فى الشكر لايقوم مقام ابتدائه وإن قل.

فمن لم يجد فليثن عليه. فإن الثناء عند العدم يقوم مقام الشكر للمعروف. وما استغنى أحد عن شكر أحد.

---

(١) كتاب «حادى الأنام إلى دار السلام» تأليف العلامة الشيخ أبو بكر ابن الشيخ محمد الملا الحنفى ص ٦.

ولقد أنشدني محمد بن زنجي البغدادي:

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد.. لعزة ملك أو علو مكان

لما أمر الله العباد بشكره.. فقال: اشكروني أيها الثقلان[1].

وكان سلف هذه الأمة الصالح يحرص على المكافأة على النعمة وإن قلت وإن هان صاحبها» عن أبي عيسى قال: كان إبراهيم بن أدهم إذا صنع إليه أحد معروفا حرص على أن يكافئه أو يتفضل عليه قال أبو عيسى: فلقيني وأنا على حمار. وأنا أريد بيت المقدس جائيا من الرملة. قال: وقد اشترى بأربعة دوانيق تفاحا وسفرجلا وخوخا وفاكهة.

فقال: يا أبا عيسى أحب أن تحمل هذا. قال: وإذا عجوز يهودية في كوخ لها. فقالت: أحب أن توصل هذا إليها. فإنني مررت وأنا ممسى فبيتتني عندها. فأنا أحب أن أكافئها على ذلك»[2].

ومن هذا كله يتبين لنا أن الواجب على المسلم العاقل أن يشكر من يسدى إليه معروفا من الناس. كما يجب عليه أن يشكر الله عز وجل على هذا المعروف لأنه المسدى له على التحقيق.

وعلى المسلم أن يشكر النعمة ويحمد المعروف على حسب وسعه وطاقته.

إن قدر فبالضعف وإلا فبالمثل. وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده مع بذل الجزاء له بالشكر. وقوله. جزاك الله خيرا. فمن قال ذلك عند العدم فكأنه أبلغ في الثناء»[3].

«ومن الناس من يكفر النعم. وكفران النعم يكون من أحد رجلين. إما رجل لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها. لم لم يركب فيه من التفقد لمراعاة العشرة. فإن كان كذلك. وجب الاغضاء عنه وترك المناقشة على فعله.

والرجل الآخر أن يكون ذا عقل، ولا يشكر النعمة استخفافا بالمنعم واستحقارا للنعمة وتهاونا في نفسه لهما أو لأحدهما.

وإذا كان كذلك يجب على العاقل ترك العود إلى فعل مثل ذلك»[4].

---

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء. للحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي ص ٢٤٣.

(٢) روضة العقلاء. ونزهة الفضلاء. للحافظ أبي حاتم محمد بن حبان البستي ص ٢٤٣.

(٣) المصدر السابق. بتصرف.

(٤) المصدر السابق.

الباب الرابع

ترك الشكر وما يترتب عليه من آثار وأمثله قرآنية على ذلك. مقارنة بأمثلة نبوية

1 - أصحاب الجنة.

2 - جنتا سورة الكهف.

3 - جنتا سبإ.

4- جنة عاد.

5- القرية التي كانت آمنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف

الكفر بالنعم

أنعم الله عز وجل على هذه الأمة بل على البشرية كلها بدين الإسلام الذى أخرج الناس من الظلمات إلى النور. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[1].

والنعمة عظمت أم صغرت تستوجب الشكر وذكر المنعم بها.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[2].

وقال جل شأنه حكاية عن سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾[3].

وحينما يكفر الناس بالنعم تنزل نقمة الله وتتبدل الأحوال من سرور إلى ألم وحزن ومن عز إلى ذل. ومن رخاء وأمن إلى فقر وخوف.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢)﴾[4].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[5].

وقال سيدنا سليمان فيما حكاه عنه القرآن:

---

(١) المائدة : ٣

(٢) آل عمران : ١٠٣

(٣) النمل : ١٩

(٤) النحل : ١١٢.

(٥) إبراهيم : ٧

﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾(1).

وقال تعالى: ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾(2).

تعريف كفر النعم: لغة وشرعا

كفر فى اللغة ستر الشىء. ووصف الليل بالكافر لستره الأشياء. والزارع لستره البذور فى الأرض. وليس ذلك باسم لهما كما قال أهل اللغة.

والكافور: إسم أكمام الثمرة التى تكفرها.

وكفر النعمة وكفرانها: سترها بترك أداء شكرها. قال تعالى: «فلا كفران لسعيه» وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة.

والكفران فى جحود النعمة أكثر استعمالا. والكفر فى الدين أكثر والكفور فيهما جميعا.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ تنبيه على ما ينطوى عليه الإنسان من كفران النعمة. وقلة ما يقوم بأداء الشكر.

وعلى هذا قوله: ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾(3).

---

(1) النمل : ٤٠

(2) الزمر : ٧

(3) المفردات للراغب ص ٢٣٤

١ - أصحاب الجنة

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلاوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾[1] . . .

تحدثنا هذه الآيات «أنه كان فيمن مضى رجل صالح يملك بستانا وكان ينادى الفقراء والمساكين وقت جنيه. فلما مات الصالح قال بنوه: إن فعلنا مثلما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر. فإن المال قليل والعيال كثير.

وأقسموا ليقطعنها فى وقت الصباح الباكر حتى لايتبعهم المساكين. ولم يقولوا إن شاء الله. فجمعوا بذلك بين العزم على حرمان المساكين والاعتماد على صولهم وقوتهم فحسب. وهنا نزل على جنتهم ليلا بلاء مخصوص أحاط بها من جميع جوانبها فأصبحت كأنها قطعت ثمارها بحيث لم يبق فيها شىء. أو صارت كالليل فى اسودادها واحتراقها. ولما أصبح الصباح ذهبوا إلى حديقتهم متخفين عن أعين المساكين مصرين على جنى ثمر الحديقة وحرمان الفقراء منها. فلما رأوها هالهم ما رأوا.

وظنوا لأول وهله أنهم ضلوا طريقهم وأن الحديقة التى أمامهم ليست حديقتهم. ثم لما تأملوا فى أماراتها وجزموا أنها حديقتهم أيقنوا أنهم حرموا منها.

---

(١) القلم ١٧ : ٣٣.

وهنا قال أعدلهم رأيا: ألم أقل لكم حين تشاورتم على حرمان الفقراء: هلا تذكرون الله بخير.

وهنا. هنا فقط أدركوا خطأهم وعظيم جرمهم فتابوا وأنابوا.

يالله للمسلمين فكم من بلاء نزل. وآية حلت بزرعهم فى ضراوة العام بعد العام.

وكم من جهد بذل لمكافحتها إن أفلح حينا خاب أحيانا. وهم فى كلتا الحالتين قد خسروا خسرانا مبينا.

أليسوا فى حال نجاحهم فى مكافحة الآفة قد خسروا جهدهم الموجه لمكافحتها ومالهم المبذول ثمنا لمبيداتها.

والعلاج هين لو كانوا يعلمون.

انه يكمن فى بذل ولا فخر. وشكر لله على ما أنعم به. شكر يدفع إلى صالح الأعمال وكريم الفعال»[١].

ومن هذه القصة يتبين لنا أن أصحاب الجنة لما هموا بكفران النعمة سلب الله تعالى النعمة من أيديهم. عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال فى تفسير قوله تعالى: «إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة.. الآيات».

قال: هى بستان باليمن يقال له الضروان. دون صنعاء بفرسخين يطؤه أهل الطريق وكان قد غرسه قوم من أهل الصلاة. وكان لرجل فمات. وكان يأخذ منه قوت سنة ويتصدق بالباقى على الفقراء فلما مات قال بنوه: إن فعلنا مثل ماكان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر. ونحن أكثر عيالا فحلفوا ليقطعنها مصبحين. خفية من المساكين. ولم يستثنوا فى يمينهم - أى لم يقولوا: إن شاء الله - فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كأنها قطعت ثمارها بحيث لم يبق منها شىء. وقيل: أنزل الله عليها نارا فأحرقتها فصارت كالليل المظلم.

---

(١) من مقال للدكتور الحسينى، أبو فرحة. نشر بمجلة الأزهر سنة ١٩٦٣م تحت عنوان «جنات واعظة».

فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا إنا كنا ظالمين. أى طاغين فى نعم الله فلم نشكرها. ولم نصنع ماكان يصنع أبونا من قبل»[1].

٢ - جنتا سورة الكهف

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴿٣٧﴾ لَّكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾[2].

فى هذه الآيات نرى عاقبة كفران النعم واضحة جلية.

«ففيها يدور الحوار بين رجلين أوتى أحدهما جنتين من أعناب محفوفتين بنخل وجعل بينهما زرع وفجر خلالهما نهر. وكان له ثمر».

«فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال: ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة.

---

(١) كتاب البصائر ص ٦٥٠.

(٢) الكهف ٣٢ - ٤٣.

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

إذن فقد كفر الرجل. بعد أن بطر وركن إلى ماله مفتخرا به. وبغى وطغى وتجبر. واعتز بماله وجاهه. وجعل المال. وهو نعمة من الله عليه سببا لطغيانه وكفرانه.

وهنا يمبرى له صاحبه مذكرا له بنعمة الله عليه فى خلقه اطوار شتى طور بعد طور حاثا له على النظرة الصحيحة لنعمة المال.

بنسبته لله. وشكره عليه. والتبرى من حوله وقوته فى كسبه.

فكم من مجتهد لاينال ثمرة كدحه. ولو كان جهد الإنسان هو كل شيء لما تخلفت ثمرة عن عمل.

وفى هذه الآيات نرى أنفسنا أمام رجل أوتى مالا. جنتين عظيمتين. فكفر بعد أن بطر وافتخر وبغى وتجبر. فماذا كان من شأنه بعد ذلك؟

هنا موضع العظة والعبرة.

أهلك الله حد يقينه. فلم يعد «أكثر مالا. وناب الرجل إلى رشده بعد أن جرد من المال قائلا: «ياليتنى لم أشرك بربى أحدا».

وبطل الجاه. فلم يجد فئة تنصره من دون الله وماكان منتصرا»[1].

وتلك عاقبة كفران النعم. وترك الشكر.

---

(١) من مقال «جنات واعظة» السابق. بتصرف.

٣- جنتا سبإ

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾[1].

صدق الله العظيم. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

وهل طلب منهم كفاء ما أنعم عليهم إلا أن يعرفوا له حقه. ويؤدوا له شكره. والشكر لله على نعمة سياج لها. يحفظها من الهلاك. ويزيد فيها. ولكن القوم غلبت عليهم شقوتهم فأعرضوا عن شكر الله. فحقت عليهم كلمة الله: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[2].

وأى عذاب نزل بهم أنه السد الذى بنوه ليحتجزوا المياه خلفه لوقت حاجتهم. وليحميهم من غائلة الغرق . قد تهدم بنيانه . فأغرق مساكنهم . وأتلف بساتينهم.

ثم بدلهم الله من جنتيهم المغرقتين مالا يسمن ولا يغنى من جوع. وأسماه جنتين تهكما بهم وأى خير فى ثمر مر بشع. وطرفاء لاظل ولا ثمر. وسدر قليل النفع.

ذلك جزاء كفرانهم وعدم شكرهم .

وموطن العبرة هنا. هو ما ترتب على ترك الشكر من آثار مدمرة للنعمة.

ويقول ابن كثير: «كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها. وكان التبابعة منهم. وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام منهم. وكانوا فى نعمة وغبطة فى

---

(١) سبأ: ١٥: ١٧. والعرم: جمع عرمة. . وهو ما يمسك الماء من بناء وغيره الى وقت حاجته.
الخمط: المر البشع. . والأثل: طرفاء لا ثمر لها، ولا ظل. . والسدر : النبق.

(٢) إبراهيم: ٧

بلادهم وعيشهم واتساع ارزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله اليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته. فكانوا كذلك ماشاء الله تعالى.

ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل والغرف فى البلاد.

قال الإمام أحمد رحمه الله. حدثنا أبو عبد الرحمن حدثنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة عن عبد الرحمن بن وعله قال سمعت ابن عباس يقول: إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبإ ماهو أرجل أم إمرأة أم أرض؟.

قال ﷺ: «بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة. والشام منهم أربعة. فأما اليمانيون فمذ حج وكنده والأزد والأشعريون وإنمار وحمير.

وأما الشاميون. فلخم وجزام وعاملة وغسان[1].

وهكذا يعرفنا ابن كثير بسبإ. وبنعم الله عليهم وكفرهم بها. وعقاب الله عز وجل لهم.

وتشهد هذه القصة بما يترتب على ترك الشكر من آثار ضارة. وصدق الله العظيم ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾.

---

(١) ابن كثير جـ ٣ ص ٥٣٠. قال ابن كثير فى هذا الحديث: وهذا اسناد حسن ولم يخرجوه.

٤ - جنة عاد

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ۞﴾[١].

روى أنه كان لعاد ابنان شداد وشديد فملكا وقهرا ثم مات شديد وخلص الأمر لشداد فتملك الدنيا ودانت له ملوكها. فسمع بذكر الجنة فقال أبنى مثلها فبنى إرم فى بعض صحارى عدن فى ثلثمائة سنة وكان عمره تسعمائة سنة وهى مدينة عظيمة قصورها من الذهب والفضة وأساطينها من الزبرجد والياقوت وفيها أصناف الأشجار والأنهار. فلما تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته. فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحه من السماء فهلكوا»[٢].

وفى هذا كان مصرع أقوى الجبارين الذين عرفهم التاريخ القديم مصرع عادإرم وهى عاد الأولى. وقيل أنها من العرب العاربة أو البائدة. وكان مسكنهم بالأحقاف وهى كثبان الرمال فى جنوبى الجزيرة بين حضرموت واليمن وكانوا بدوا ذوى خيام تقوم على عماد.

وقد وصفهم القرآن بالقوة والبطش. فقد كانت قبيلة عاد هى أقوى قبيلة فى وقتها وأميزها[٣].

وهكذا نرى فى قصة عاد أن الله مكن لهم وأنعم عليهم بالقوة وبالبلاد الجميلة ذات المساكن الفخمة والبساتين الغناء. فلم يشكروا نعم الله عليهم. وأكثروا فى الأرض الفساد. فأهلكهم الله تعالى.

---

(١) الفجر: ٦ - ٧.
(٢) التفسير الكبير للإمام الفخر الرازى جـ ٢٩ ط أولى ص ١٦٨، تفسير النسفى جـ ٤ ص ٢٦٤.
(٣) فى ظلال القرآن. سيد قطب ص ٣٩٠٣ جـ ٦

٥ - القرية التي كانت آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله. فأذاقها لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾[(١)].

«هذا مثل أريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا لايخاف.

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾[(٢)].

وهكذا قال ههنا يأتيها رزقها رغدا أى هنيئا سهلا» من كل مكان فكفرت بأنعم الله أى جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[(٣)].

ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما. فقال: «فأذاقها الله لباس الجوع والخوف أى أذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شىء ويأتيها رزقها رغدا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله ﷺ وأبوا إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف فأصابتهم سنة أذهبت كل شىء لهم فأكلوا العلهز.

وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا نحروه. «والخوف» وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفا من رسول الله ﷺ وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة خافوا من سطوته

(١) النحل: ١١٢.
(٢) القصص: ٥٧
(٣) إبراهيم: ٢٨، ٢٩.

وسراياه وجيوشه وجعل كل مالهم فى دمار حتى فتحها الله على رسول الله ﷺ وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول ﷺ الذى بعثه الله فيهم ومنهم وأمتن به عليهم فى قوله: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ**﴾ الآية[1].

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم فخافوا بعد الأمن وجاعوا بعد الرغد فقد بدل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا ورزقهم بعد العيلة وجعلهم امراء الناس وحكامهم وسادتهم وقادتهم وأئمتهم. وهذا مثل ضرب لأهل مكة قاله الصوفى عن ابن عباس وإليه ذهب مجاهد وقتادة وعبد الرحمن[2].

وهكذا اتضح لنا مما تقدم من امثلة قرآنية مايترتب على ترك الشكر من آثار ضارة فحديقة أصبحت كالصريم.

وحديقتان أحيط بثمرهما. فأصبح صاحبها الذى لم يشكر الله عليهما يقلب كفيه على ما أنفق فيهما وهما خاويتان على عروشهما. ويتحسر على ترك الشكر لله عز وجل.

وحديقتان أرسل عليهما سيل العرم. وبدل الله اصحابهما بهما جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل. وذلك جزاء من يكفر بالنعمة والمنعم ومدينة عامرة أهلكت بأهلها وبساتينها. تلك هى مدينة «عاد أرم».

وقرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف. بسبب كفرها بأنعم الله.

فهل يحتاج من يهمل الشكر زواجر أبلغ من هذه الزواجر؟

---

(١) آل عمران: ١٦٤.

(٢) ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٩.

الباب الخامس

ثمار الشكر

الفصل الأول

ثمار الدنيوية

الفصل الثاني

الثمار الأخروية

الفصل الأول

الثمار الدنيوية للشكر

١ - الشكر يحفظ النعم من الزوال

٢ - الشكر يزيد النعم

٣ - الشكر يسعد الإنسان فى حياته

١ ـ الشكر يحفظ النعم من الزوال

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾[٢] «يخبر تعالى فى هذه الآيات عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة على أحد إلا بسبب ذنب ارتكبه. كصنعه بآل فرعون وأمثالهم حين كذبوا بآياته فأهلكهم بسبب ذنوبهم. وسلبهم تلك النعم التى أسداها إليهم من جنات وعيون وزروع وكنوز ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين. وما ظلمهم الله فى ذلك. بل كانوا هم الظالمين[٣].

«فالإنسان يملك أن يستبقى نعمة الله عليه. إذا هو عرف فشكر»[٤] فمن شكر نعم الله حفظها أولا وازداد منها ثانيا .

«ومن أقبل على الله بملاحظة إحسانه وجب عليه شكر ما أسدى من لطائف كرمه وامتنانه وإلا زالت عنه بسبب كفره وعصيانه.

وإلى ذلك أشار - أى صاحب الحكم - بقوله: «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها. ومن شكرها فقد قيدها بعقالها».

فقد اتفقت مقالات الحكماء على هذا المعنى. وهو أن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

وقالوا أيضا: من أعطى ولم يشكر سلب ولم يشعر.

فمن شكر النعمة فقد قيدها بعقالها. ومن كفرها فقد تعرض لزوالها قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

---

(١) الرعد : ١١

(٢) الانفال : ٥٣ ـ ٥٤

(٣) ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠

(٤) فى ظلال القرآن جـ ٣ ص ١٥٣٥ - ١٥٣٦.

أى لا يغير مابقوم من النعم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الشكر. وتغيير الشكر هو اشتغالهم بالمعاصى والكفر»[1].

وقال تعالى مشيرا إلى أن الشكر يحفظ النعم: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[2].

كما قال تعالى مشيرا إلى ذلك أيضا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾[3].

كما قال تعالى مشيرا إلى ذلك ايضا: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[4]. ومن ظلم نفسه فلم يشكر ربه يهلك وتصير بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم لأنفسهم بترك شكر الله عز وجل.

فيمكن فى الأرض للشاكرين لله عز وجل، باقام الصلاة وإيتاء الزكاة وبالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومن ظلم نفسه فلم يشكر ربه يهلك وتصير بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم لأنفسهم بترك شكر الله عز وجل.

وعن ابن عمر قال: «الحمد لله على النعمة أمان لزوالها»[5].

فهو يصرح بأن الحمد. وهو ذروة الشكر. أمان يحفظ النعم من الزوال.

وفى التوراة: «اشكر لمن أنعم عليك. وأنعم على من شكرك. فإنه لازوال للنعمة إذا شكرت. ولا مقام لها إذا كفرت. والشكر زيادة فى النعم، وأمان من الغير»[6].

(١) ابن عجيبة جـ ١ ص ٩٩ - ١٠٠
(٢) النمل: ٥٢
(٣) الأنبياء: ١٠٥
(٤) الحج ٤٠ و ٤١
(٥) البيهقى فى شعب الايمان، الفردوس: الجامع الصغير جـ ١ ص ٢٦٠ وحسنه.
(٦) كتاب الشكر ص ١٠٦. والغير صروف الزمان وتقلباته.

وعن أنس قال: «ما أنعم على الله عبد نعمة من أهل ومال وولد فيقول: ماشاء الله لا قوة إلا بالله. فيرى فيه آفة. دون الموت»(١).

وعنه أيضا قال: «احسنوا جوار نعم الله. لاتنفروها. فقل مازالت عن قوم فعادت اليهم»(٢).

وقال ﷺ: «اثبت الناس نعمة أشدهم شكرا»(٣).

وروى أبو نعيم فى الحلية عن وهب بن منبه أنه سئل عن سبب سلب بلعام بن باعورا بعد تلك الآيات والكرامات.

فقال: ان بعض الأنبياء سأل ربه عن سبب ذلك فأوصى الله تعالى اليه: «إنه لم يشكرنى يوما قط على ما أعطيته. ولو شكرنى على ذلك مرة واحدة لما سلبته نعمتى. لكن جرى بذلك قضائى وتمت فيه ارادتى ومشيئتى»(٤).

وهكذا تتوارد النصوص القرآنية والنبوية تبين لنا أن الشكر يحفظ النعم من الزوال فهو وثيقة تأمين آلهية. تختلف عن وثائق الناس. ان وثائق الناس لاتحفظ المؤمن عليه وإنما تدفع تعويضا عنه.

أما الشكر فهو وثيقة تأمين إلهية تحفظ النعم من الزوال. وهذا افضل من زوال المؤمن عليه والتعويض عنه. وقد صرح القرآن الكريم بأن الشكر وثيقة تأمين.

قال تعالى: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولو قولا سديدا»(٥).

---

(١) البيهقى فى شعب الايمان. الجامع جـ٢ ص ٢٤٢ وضعفه.
(٢) ابو يعلى. وابن عدى فى الكامل. الجامع الصغير جـ١ ص ١٨ وضعفه.
(٣) مجمع الزوائد جـ ٨ ص ١٨٢ كتاب البر والصلة ، انظر الملحق. هذا ولم أجده بهذا اللفظ فى كتب الحديث وأقرب الألفاظ له ما أخرجه احمد عن النعمان بن بشير قال: قال النبى ﷺ من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير. ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله.. التحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر. جـ٤، ص٢٧٨. قال فى مجمع الزوائد: «أبو عبد الرحمن راويه عن الشعب لا أعرفه. وبقية رجاله ثقات .
(٤) لطائف المنن. ص٥٥
(٥) النساء: ٩

٢- الشكر يزيد النعم

قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[(١)].

وقال الامام أحمد حدثنا أسود قال حدثنا عمارة الصيدلانى عن ثابت عن أنس قال:

أتى النبى ﷺ سائل فأمر له بتمرة فلم يأخذها. أو وَحَّشَ بها - قال - وأتاه آخر فأمر له بتمرة. فقال: سبحان الله تمرة من رسول الله ﷺ فقال للجارية:

«اذهبى إلى أم سلمة فأعطيه الأربعين درهما التى عندها»[(٢)].

وعن على رضى الله عنه أنه قال لرجل من همدان:

«ان النعمة موصولة بالشكر. والشكر معلق بالمزيد. وهما مقرونان فى قرن فلا ينقطع المزيد من الله حتى ينقطع الشكر من العبد»[(٣)].

ومما يشهد لأن الشكر يزيد النعم ماورد عنه ﷺ من قصة حديث الحديقة» وهى قصة يؤمر فيها ماء السماء بالتوجه إلى حديقة معينة لريها. ويسمع ذلك الأمر إنسان بأذنى رأسه. حتى تكون الموعظة أتم. والعبرة أكمل. ويتابع ذلك الرجل هذا الماء المأمور. فإذا به يتجه لحديقة يعمل فيها صاحبها.

فيسأله الرجل عما يعمل فى حديقته.

فإذا به يتصدق بالثلث. ويطعم هو وعياله الثلث. ويرد فيها الثلث.

---

(١) إبراهيم: ٧

(٢) تفرد به الامام احمد. وعمارة بن زاذان: وثقة بن حبان واحمد ويعقوب بن سفيان، وقال ابن معين: صالح. وقال ابو زرعة: لا بأس به. وقال أبو حاتم يكتب حديثه. ولا يحتج به. ليس بالمتين. وقال البخارى: ربما يضطرب فى حديثه. وعن أحمد ايضا قال: روى أحاديث منكرة. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه الدار قطنى. وقال ابن عدى: لا بأس به ممن يكتب حديثه ابن كثير جـ ٢ ص ٥٢٤. ومجمع الزوائد جـ٨، ص١٨٢ كتاب البر والصلة باب شكر القليل. ومعنى وحشى: أى رمى بها مختار الصحاح ص٧١٢.

(٣) كتاب الشكر ص ١٨.

ومما يلفت النظر فى ترتيب مايعمله أنه ابتدأ بالصدقة قبل ذكر طعامه وطعام عياله وبذلك يكون الرجل قد قدم حق الله على حقه. وأعظم الصدقة ما بادر به صاحبه. قال تعالى: «وآتوا حقه يوم حصاده».

وهذا الرجل عند التحقيق قد تصدق بنصف التمر - لأنه قد رد ثلث التمر فى خدمة الارض.

وبذلك يكون شكره لله عز وجل قد بلغ الغاية. فزاده الله من نعمه بتسخير ماء السماء له على هذا النحو المثير كما سيأتى فى حديثه ﷺ.

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «بينا رجل فى فلاة من الارض. فسمع صوتا فى سحابة. اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة. فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله. فتتبع الماء. فإذا رجل قائم فى حديقة يحول الماء بمسحاته. فقال له: ياعبد الله ما اسمك:

قال: فلان. . للاسم الذى سمع فى السحابة.

فقال له: يا عبد الله لم سألتنى عن اسمى؟

قال: سمعت فى السحاب الذى هذا ماؤه صوتا يقول: اسحق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها؟

قال: أما إذا قلت ما قلت. فإنى أنظر إلى ما يخرج منها. فأتصدق بثلثه. وآكل أنا وعيالى ثلثه وأرد فيها ثلثه»(١).

وموضع العظة هنا يكمن فى تصدق الرجل بالثالث. وهو عند التحقيق النصف. لأنه رد فى البستان الثلث. وابتداءه به. فسخر الله له ماء السماء هذا التسخير واسمعه لذلك الرجل فى الفلاة. ليكون ذلك التسخير لماء السماء عظة

---

(١) رواه مسلم جـ١٨، ص١١٤ كتاب الزهد باب فضل الانفاق على المساكين. . والحرة: الأرض التى بها حجارة سود. . . والشرجة: مسيل الماء إلى الأرض السهلة. . . والمسحاة: هى المجرفة من الحديد «الفأس».

وعبرة للناس. يدفعهم إلى شكر المنعم حتى يستوجبوا المزيد من النعم.

ولقد قال تعالى مشيرا إلى ذلك.

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[1].

٣ - الشكر يسعد الإنسان فى حياته

إن الشكر هو رأس الأعمال الصالحة. ولا أدل على ذلك من أنه يشمل ذكر الله عز وجل.

وذكر الله عز وجل وهو روح العبادات جميعها. قال تعالى مشيرا إلى ذلك ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾[2].

والأعمال الصالحة يسعد بها الإنسان فى دنياه وأخراه معا.

قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾[3].

«وهذه الآية وعد من الله لمن عمل صالحا. وهو العمل بالكتاب والسنة. من ذكر أو انثى من بنى آدم. وقلبه مؤمن بالله ورسوله. بأن يحييه الله حياة طيبة فى الدنيا. وأن يجزيه بأحسن ما عمله فى الدار الآخرة.

والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أى جهة كانت»[4].

«إن العمل الصالح مع الإيمان جزاؤه حياة طيبة فى هذه الارض. لايهم أن

---

(١) الأعراف: ٩٦. والنص من مقال «جنات واعظة» للدكتور الحسينى أبو فرحة. نشر بمجلة الأزهر سنة ١٩٦٣.

(٢) طه: ١٤.

(٣) النحل: ٩٧.

(٤) ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٥.

تكون ناعمة رغدة ثرية بالمال. فقد تكون به. وقد لايكون معها وفى الحياة اشياء كثيرة غير المال الكثير تطيب بها الحياة فى حدود الكفاية.

فيها الاتصال بالله. والثقة به. والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه وفيها الصحة والهدوء والرضى والبركة. وتسكن البيوت.

وفيها الفرح بالعمل الصالح وآثاره فى الضمير وآثاره فى الحياة.

وليس المال إلا عنصرا واحدا يكفى منه القليل. حين يتصل القلب بما هو أعظم وأذكى وأبقى عند الله.

وأن الحياة الطيبة فى الدنيا لاتنقص من الأجر الحسن فى الآخرة»[1].

ومما يصرح بأن الشكر يسعد الإنسان فى حياته. مارواه أبو الحسن الشاذلى حيث يقول: «لايكمل شكر العبد حتى يرى نعمة ملوك الدنيا دون نعمته هو. من حيث انهم مسخرون له. وايضاح ذلك ان جميع من هو فوق مقام العبد من جملة نعم الله عليه كالأنبياء والملوك.

فلولا الانبياء ما اهتدى.

ولولا الملوك ما أمن على نفسه وما له وحريمه.

فكل من هو فوقه ممن ذكر من جملة نعم الله عليه. فكأنهم مسخرون له. وهو الرئيس عليهم. فافهم. ومن هنا ورد: «سيد القوم خادمهم»[2].

فالشاكر إنسان يعيش فى بحبوحة الرضا . وفى الرضا السعادة الكاملة ومن حرم الرضا حرم الحياة السعيدة. وان جمع الاموال الكثيرة. وأوتى السلطان العظيم.

ان الشاكر إنسان يرى نفسه منعما عليه. فهو سعيد بهذا الاحساس غاية السعادة. يرى أنه أعطى حاجته. ولبيت رغباته.

---

(١) فى ظلال القرآن جـ ٤ ص ٢١٩٣.

(٢) لطائف المنن ص ٥٥.

الفصل الثاني

الثمار الأخروية للشكر

قال تعالى مشيرا إلى الثمار الأخروية للشكر: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1].

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾[2].

﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[3] الذين يعرفون مقدار النعمة التى منحها الله لعباده. فيشكرونه. ويشكرونها بالثناء على الله عز وجل. ومن ثم يسعدون بالمنهج فيكون هذا جزاء طيبًا على شكرهم ثم يسعدون بجزاء الله لهم فى الآخرة. وهو أكبر وأبقى

نعم ثم يسعدون بجزاء الله لهم فى الآخرة وهو أكبر وأبقى.

وعن أم هانىء قالت: أتيت إلى رسول الله ﷺ فقلت:

يارسول الله دلنى على عمل فانى قد كبرت وضعفت وبَدُنْتُ.

فقال: «كبرى الله مائة مرة. واحمدى الله مائة مرة. وسبحى الله مائة مرة. خير من مائة فرس ملجم مسرج فى سبيل الله. وخير من مائة بدنه. وخير من مائة رقبة»[4].

ومفهوم أن الخيرية إنما هى فى الثواب الأخروى.

كما أننا علمنا أن الذكر رأس الشكر. وهذا من الذكر.

وعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ مر به وهو يغرس غرسا فقال:

يا أبا هريرة ما الذى تغرس؟. قلت: غراسا لى.

قال: ألا أدلك على غراس خير لك من هذا؟

قلت: بلى يا رسول الله.

---

(١) آل عمران: ١٤٤

(٢) آل عمران: ١٤٥

(٣) فى ظلال القرآن جـ ١، ص ٤٨٦.

(٤) ابن ماجه جـ ٢، ص ١٢٥٢، كتاب الأدب، باب فضل التسبيح وفى الزوائد على بن ماجه فى إسناده زكريا وهو ضعيف.

قال: «سبحان الله. والحمد لله. ولا إله إلا الله. والله أكبر. يغرس لك بكل واحدة شجرة فى الجنة»[1].

وواضح من الحديث أن من ثمرات الشكر بذكر الله عز وجل غرس الشجر فى الجنة. وهو من الثمار الأخروية.

وعن أنس عن النبى ﷺ قال:

«لو أن الدنيا بحذافيرها فى يد رجل من أمتى. ثم قال: الحمد لله. لكان الحمد لله أفضل من ذلك»[2].

قال القرطبى وغيره: أى لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا. لأن ثواب الحمد لا يفنى. ونعيم الدنيا لايبقى. قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴿٤٦﴾﴾[3].

ومحل الشاهد فى هذا النص قوله: لأن ثواب الحمد لايفنى. والذى لايفنى هو ثواب الآخرة.

وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبدا من عباد الله قال:

«يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهلك وعظيم سلطانك «فعضلت بالملكين. فلم يدريا كيف يكتبانها.

فصعدا إلى الله. فقالا: ياربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها.

قال الله وهو أعلم بما قال عبده: ماذا قال عبدى؟

قالا: يارب أنه قال: «يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك».

فقال الله لهما: اكتباها كما قال عبدى حتى يلقانى فأجزيه بها»[4].

ومحل الشاهد هنا أن هذا العبد شكر الله عز وجل بذكره بهذه الجملة. التى عضلت بالملكين.

---

(١) ابن ماجه جـ٢، ص ١٢٥١، كتاب الأدب. باب فضل التسبيح. وفى الزوائد على بن ماجه إسناده حسن وفى روايته أبو سنان. مختلف فيه.

(٢) ابن عساكر عن أنس ضعيف الجامع الصغير جـ٢، ص ٢١٦.

(٣) الكهف: ٤٦.

(٤) ابن ماجه أدب ٥٥ جـ٢، ص١٢٤٩. وفى الزوائد على ابن ماجه فى إسناده قدامه بن إبراهيم ذكره بن حبان فى الثقات وصدق بن بشير لم أر من جرحه. ولا من وثقه وباقى رجال الإسناد شقات.

وأن الله عز وجل قال: «اكتباها كما قال عبدى. حتى يلقانى فأجزيه بها.

وهذا من الثمار الأخروية:

وعنه ﷺ قال: «ينادى يوم القيامة ليقم الحمادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة». قيل: ومن الحمادون؟ قال: «الذين يشكرون الله على كل حال»(١).

وهذا الحديث يشهد لأن الشكر بذكر الله عز وجل ينصب لأهله لواء فيدخلون الجنة».

والشكر يثمر غفران الذنوب فى الآخرة.

قال ﷺ: «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله إلا أدى شكرها فإن قالها ثانية جدد الله له ثوابها. فان قالها ثالثة غفر الله له ذنوبه»(٢).

والشاكر أول من يدعى إلى الجنة.

قال ﷺ: «أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله فى السراء والضراء»(٣).

وثواب الشاكر فى الآخرة أعظم مما تطلع عليه الشمس فى الدنيا.

قال ﷺ: «لئن أقول: سبحان الله. ولا إله إلا الله. والله أكبر أحب إلىّ مما تطلع عليه الشمس»(٤).

وأختم نصوص الثواب الأخروى. بقوله ﷺ:

«كلمتان حبيبتان إلى الرحمن.. خفيفتان على اللسان.. ثقيلتان فى الميزان: سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم»(٥).

---

(١) المسند جـ٤، ص٤٢٤، قال الحافظ العراقى فى تخريجه على إحياء علوم الدين: أخرجه الطبرانى وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب وفيه قيس بن الربيع ضعفه الجمهور إحياء علوم الدين جـ٤، ص٨١.

(٢) المستدرك للحاكم. وشعب الايمان للبيهقى. وصححه السيوطى، الجامع الصغير جـ٢، ص ٢٤٢.

(٣) الطبرانى. والمستدرك للبيهقى. الجامع الصغير جـ١، ص ١٩٤.

(٤) رواه مسلم جـ١٧، ص ١٩ كتاب الذكر باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٥) البخارى، آخر أحاديث البخارى.

الباب السادس

مقارنة بين الصبر والشكر

الفصل الأول	تعريف الصبر لغة وشرعا
الفصل الثاني	الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية
الفصل الثالث	درجات الصبر
الفصل الرابع	ثمرة الصبر وفضله
الفصل الخامس	أثر الصبر في تكوين الفرد والمجتمع
الفصل السادس	اجتماع الصبر والشكر
الفصل السابع	أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

الفصل الأول

تعريف الصبر لغة.. وشرعا

الصبر لغة: حبس النفس عن الجزع. وفى حديث الرسول ﷺ. فى رجل أمسك رجلا وقتله آخر. قال: «اقتلوا القاتل واصبروا الصابر أى احبسوا الذى حبسه للموت حتى يموت.

والتصبر تكلف الصبر. وتقول: اصطبر»[1].

وقيل: هو: الحبس والكف فى ضيق. وفيه قيل فلان صبر. إذا امسك وحبس للقتل.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[2] أى أحبس نفسك معهم.

فالصبر حبس النفس عن الجزع والسخط. وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش[3].

ويقال: صبير القوم للذى يصبر لهم ومعهم فى أمورهم. وهو صبور ومصطبر ومتصبر»[4].

والصبر شرعا: ثبات باعث الدين فى مقابلة باعث الشهوة.

وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين»[5].

---

(١) مختار الصحاح ، المصباح المنير .

(٢) الكهف: ٢٨ .

(٣) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٣ ص ٣٧١ .

(٤) الأسماء الحسنى ، طبعة الشعب ص ٢٧٨ .

(٥) الأحياء حـ ٤ ص ٦٦ ، الأخلاق عند الغزالي ص ١٥٢ .

الفصل الثاني

الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية

الصبر من أبرز الأخلاق القرآن التى عنى بها الكتاب العزيز. وقد كرر القرآن الكريم ذكره أكثر من غيره من الأخلاق الاسلامية.

وقد مدحه القرآن الكريم ورفع منزلته.

يقول الإمام الغزالى: «ذكر الله تعالى الصبر فى القرآن فى نيف وسبعين موضعا»[١].

وينقل ابن القيم فى «مدارج السالكين» عن الامام أحمد قوله:

«الصبر فى القرآن فى نحو تسعين موضعا»[٢].

قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[٧].

وقد ذكر الصبر فى القرآن الكريم على ستة عشر نوعا.

الأول الأمر به:

مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾[٨].

---

(١) احياء علوم الدين جـ٤ ص ٦١. طبعة دار المعارف فى بيروت.

(٢) مدارج السالكين جـ ٢ ص ١٥٨.

(٣) الشورى: ٤٣.

(٤) الاحقاف: ٣٥

(٥) الرعد: ٢٤

(٦) النحل: ١٢٦

(٧) الفرقان: ٤٢

(٨) البقرة: ١٥٣

الثاني :

النهى عن ضده: كقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[1].

الثالث: الثناء على أهله.

مثل ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[2].

الرابع : حفظه لهم.

مثل ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[3].

الخامس : ايجاب محبته لهم.

مثل: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[4].

السادس : اخباره بأن الصبر خير.

مثل: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾[5].

السابع : ايجابه الجزاء لهم بأحسن ماكانوا يعملون» مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[6].

الثامن ايجابه الجزاء بغير حساب.

مثل: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[7].

---

(١) الأحقاف: ٣٥.
(٢) آل عمران: ١٧.
(٣) الأنفال: ٤٦.
(٤) آل عمران: ١٤٦.
(٥) النحل: ١٢٦.
(٦) النحل: ٩٦.
(٧) الزمر: ١٠.

التاسع: إطلاق البشرى لأهل الصبر.

كقوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾[1].

العاشر: إيجابه النصر والمدد.

كقوله تعالى: ﴿ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[2].

الحادي العاشر: الإخبار عن أهل الصبر أنهم من آهل العزائم.

قال تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾[3].

الثاني العاشر: الإخبار أنه ما يلقى الأعمال الصالحة وجزاءها إلا أهل الصبر.

قال تعالى: ﴿ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ﴾[4].

الثالث العاشر: الانتفاع بالعبر يكون لأهل الصبر.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾[5].

الرابع لعاشر: الإخبار بأن الفوز والجنة والنجاة إنما يكون بالصبر قال تعالى:

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾[6].

---

(١) البقرة: ١٥٥.

(٢): آل عمران: ١٢٥.

(٣) الشورى: ٤٣.

(٤) القصص: ٨٠.

(٥) إبراهيم: ٥.

(٦) الرعد: ٢٣.

الخامس العاشر: يورث الصبر صاحبه قوة فى الدين.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤) ﴾(١).

السادس العاشر: قرنه تعالى بالتقوى والشكر.

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾(٣)(٤).

---

(١) السجدة: ١٤.

(٢) آل عمران: ١٢٠.

(٣) إبراهيم: ٥.

(٤) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ ٣ ص ٣٧١ «للإمام الفيروزيادى».

الفصل الثالث

درجات الصبر

للصبر فى القرآن درجات ثلاث:

الأولي: الصبر عن المعصية.

بمطالعة الوعيد. وأحسن منه الصبر عن المعصية حياء.

الثانية: الصبر عل الطاعة. بالمحافظة عليها دوامًا. وبرعايتها إخلاصًا. وبتحسينها علمًا.

الثالثة: الصبر فى البلاء. بملاحظة حسن الجزاء. وانتظار روح الفرج. وتهوين البلية بعد ايادى المنن. وتذكر سوالف النعم.

وأضعف الصبر: الصبر لله. وهو صبر العامة. رجاء ثواب الله. وخوف عقابه.

وصبر المريدين: بالله. وهو أعلى درجة وأجل شأنًا[1].

هذا والصبر مقام من مقامات الدين. ومنزل من منازل السالكين.

وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور.

معارف. وأحوال. وأعمال.

فالمعارف: هى الأصول. وهى تورث الأحوال. والأحوال تثمر الأعمال.

فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار.

وهذا مطرد فى جميع منازل السالكين إلى الله تعالى.

والصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة. وبحالة قائمة. فالصبر على التحقيق عبارة عن هذه الحالة. والعمل هو كالثمرة تصدر عنها»[2].

---

(١) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز جـ٣ ص٣٨٢ ـ ٣٨٣

(٢) المصدر السابق.

وللصبر أسماء كثيرة بحسب ما يصبر المرء عنه. وكل اسم منها يشير إلى نوع من الصبر.

فإن كان صبراً عن شهوة البطن والفرج سمى عفة.

وإن كان فى احتمال مكروه سمى صبرًا. وضده الجزع.

وإن كان فى الحرب سمى شجاعة. وضده الجبن.

وإن كان فى كظم الغيظ سمى حلمًا. وضده التذمر.

وإن كان فى نائبة مضجرة سمى سعة الصدر. وضده الضجر.

وقد تعددت تعاريف السادة الصوفية للصبر.

وما ذلك إلا لتعدد أذواقهم التى تشير إلى تعدد درجات الصبر وتعدد أنواعه كذلك «قال ذو النون: الصبر التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية. وإظهار الغنى مع الحلول الفقر بساحات المعيشة.

وقال ابن عطاء: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب.

وقيل: هو الفناء فى البلوى. بلا ظهور شكوى.

وقال أبو عثمان: الصبار. هو الذى عود نفسه الهجوم على المكاره.

وقيل: الصبر. هو المقام مع البلاء بحسن الصحبة كالمقام مع العافية.

وقال الخواص: الصبر. هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة.

وقال رويم: الصبر ترك الشكوى.

وقال أبو عبد الله بن خفيف: الصبر على ثلاثة أقسام: متصبر وصابر وصبار[1].

فالمتصبر: هو كل من صبر فى الله. ومثل هذا يصبر أحيانًا على المكاره. وأحيانًا يبقى عاجزاً.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٩٢.

والصابر: هو من يصبر لله وفى الله ولا يجزع ولا يشكو.

قال ذو النون المصرى: عدت ذات مرة مريضًا. وبينما كنت أحدثه أنَّ أنةً فقلت له: إن كل من أصابته ضربة فإنَّ منها فليس بصادق فى المحبة.

فأجاب: إن كل من لا يتلذذ من الضربة التى تصيبه فليس بصادق.

ويحكى عن الشبلى أيضًا أنه عندما حملوه إلى المستشفى وأقاموه هنالك ذهب إليه بعض أصدقائه. فسألهم الشبلى: من أنتم؟

قالوا: نحن أصدقاؤك.

فرمى الشبلى آجرة نحوهم ففروا جميعًا.

فقال الشبلى : أيها الكاذبون كيف تدعون صداقتى. فى حين أنكم لا تصبرون على ضربى؟

أما الصبار: فهو من كان صبره فى الله ولله ومن الله[1].

ومن درجات الصبر إظهار البلاء على غير وجه الشكوى.

وليس من الصبر. حالة التلذذ بالبلاء.

يقول صاحب الرسالة القشيرية: سمعت الأستاذ أبا على يقول: إن الصبر وحدّه ألا تعترض على التقدير.

فأما إظهار البلاء على غير وجه الشكوى فلا ينافى الصبر.

قال الله تعالى فى قصة أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ﴾. مع اخباره عنه أنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾.

وسمعته يقول: استخرج الله منه هذه المقالة. يعنى قوله: «إنى مسنى الضر» لتكون متنفسا لضعفاء هذه الأمة.

---

(١) ص٣٩٨ من كتاب تاريخ التصوف فى الإسلام تأليف د/ قاسم غنى. ترجمه عن الفارسية صادق نشأت. نشر وطبع مكتبة النهضة المصرى.

وقال بعضهم قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ ولم يقل: صبورا لأنه لم تكن جميع أحواله الصبر. بل كان فى بعض أحواله يستلذ البلاء ويستعذبه. فلم يكن فى حالة الاستلذاذ صابرًا. فلذلك لم يقل صبورا[1].

ومن درجات الصبر الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه.

قال صاحب الرسالة القشيرية: «سمعت الأستاذ أبا على يقول: حقيقة الصبر الخروج من البلاء على حسب الدخول فيه».

مثل أيوب عليه السلام فى آخر بلائه قال: مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين فحفظ أدب الخطاب حيث عرض بقوله: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. ولم يصرح بقوله: ارحمنى.

واعلم أن الصبر على ضربين. صبر العابدين. وصبر المحبين.

فصبر العابدين أحسنه أن يكون محفوظًا. وصبر المحبين أحسنه أن يكون مرفوضًا فقد أصبح يعقوب عليه السلام. وقد وعد الصبر من نفسه فقال: «فصبر جميل» أى فشأنى صبر جميل. ثم لم يمس حتى قال: يا أسفا على يوسف[2].

وإذا كنت قد تحدثت عن تعدد درجات الصبر فيما سبق. وآراء العلماء فيها.

فإنى أقدم تقسيمًا آخر للصبر. بإعتبار مقوماته.

«فالصبر يعتمد على دعامتين تقومانه وتكونان حقيقته. هما قوة اليقين وقوة الإرادة وذلك أن الأعمال النافعة. تجد دائمًا ميولاً فى النفس مضادة لها. تصرفها عنها.

وتلك الميول غرائز سابقة فى النشأة على وجود الفضيلة فى النفس.

فإذا همت النفس بعمل مما يجدر بها أن تعمله. ويطلبه داعى الدين هبت تلك الميول فى وجهها هبوب العاصفة تصرفها عنه. وتطالبها بأن تستوفى متعها ونعيمها. فتقع النفس فى الحيرة بين هاتين الداعيتين.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٩٣

(٢) المصدر السابق.

داعية الهوى. يقويها ألف النفس له. وإعتبارها إياه منفعة لها عاجلة. وقد طبعت النفوس على حب العاجل.

وداعية الفضيلة. يقويها عظم شأنها. ودوام نعيمها.

وهنا تنشأ المعركة بين الداعيتين. وتتصارع القوتان. فتحتاج داعية الفضيلة إلى مدد يقويها حتى تظفر بخصمها وتقهره.

وذلك المدد هو قوة اليقين وقوة الإرادة.

فأما اليقين فيقوى بتكرار التذكر لعقيدته. وإليه الإشارة بقوله تعاليك ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينْ﴾. وإذا هو السر فى طلب ادامة الذكر.

وأما الإرادة فتقوى بالمران والتعود. بأن يتتبع المرء خواطره المتنافرة ويتعهدها بيقظة تحملها على تغليب مرضاة الله عل مرضاة الهوى. فإذا ما ظفر مرة عاود الثانية. فإذا ما تكرر هذا سهل عليه أن يقود نفسه[1].

وهكذا تتعدد درجات الصبر. كما تتعدد مقوماته. ويبدو مختلف الصنوف والألوان.

---

(١) من مقال للشيخ إبراهيم الجبالى. منشور بمجلة «نور الإسلام» عدد رمضان ١٣٤٩ ص٦٥٨.

الفصل الرابع

ثمرة الصبر وفضله

«حسبك فى تقديرها اجمالاً ما رأيناه فيما سبق من دخوله فى كل الطاعات. احتياج المرء إليه فى جميع الحالات. وواضح كل الوضوح أن الانتهاء عن المحظورات بحاجة إلى الصبر عنها. كاحتياج امتثال الطاعات إلى الصبر عليها.

وانظر إلى قوله تعالى. بعد أن أمر عباده بالذكر والشكر ونهاهم عن الكفر. بقوله:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾(1).

يقول تعالى بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾(2).

فأنت ترى فى تعقيب الأمر بالذكر والشكر والنهى عن الكفر بالأمر بالاستعانة بالصبر والصلاة.

أن الصبر قوام الطاعات. ومعين عليها. وإن اقترانه فى الآية الكريمة بالصلاة التى هى عماد الدين. لآية جلية فى ذلك.

وهل يمارى أحد فى تلك المنزلة الرفيعة التى منحها الله للصابرين وهى معيته تعالى لهم. وأى شرف وفوز أعظم من هذه المنزلة الرفيعة. التى منحها الله للصابرين.

وإنك لتلمح فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. واقتصاره على الصبر.

---

(1) البقرة: ١٥٢.

(2) البقرة: ١٥٣ ـ ١٥٧.

ولم يضف إليه الصلاة. ومع اقترانها به فى الأول. تلمح من ذلك ما قدمناه من دخول الصبر فى أنواع العبادات.

فالمصلى صابر فى صلاته. فالله معه.

ثم أنه تعالى قد بين عقب ذلك حقائق يعين فهمها على الصبر[١].

ومن ثمرات الصبر إطلاق البشرى للصابرين. ومثوبتهم بصلوات من ربهم. ورحمته. وقصر الاهتداء عليهم.

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾[٢].

ففى هذه الآيات يذكر الله أن الصابرين يفوزون بثلاث مزايا لا تتوافر لغيرهم. وهى:

أولاً: أنهم عليهم صلوات من ربهم. أى غفران من الله لهم. وثناء حسن عليهم. وتشريف لهم فى الدنيا والآخرة.

ثانيا: أن عليهم رحمة من ربهم . وهى ما يكون فى نفس المصيبة من لطف الله وإحسانه.

ثالثا: أنهم هم المهتدون. إلى الحق والصواب فيما ينبغى عمله فى أوقات الشدائد فلا يستحوذ الجزع على نفوسهم. ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم[٣].

ومن ثمرات الصبر عدم نشر ميزان أو ديوان لهم يوم القيامة.وذلك يعنى غفران جميع ذنوبهم.

قال تعالى فى الحديث القدسى: «إذا وجهت إلى عبدى مصيبة فى بدنه أو

---

(١) من مقال للشيخ إبراهيم الجبالى. بمجلة نور الإسلام. رمضان سنة ١٣٤٩هـ.

(٢) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) روح الدين الإسلامى. للأستاذ عفيف عبد الفتاح طباره. طبع دار العلم للملايين.

ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانًا أو أنشر له ديوانًا»(١).

وقد رتب القرآن خيرات الدنيا والآخرة عل فضيلة الصبر.

فالنجاح فى الدنيا. والفلاح فى الآخرة. والفوز بالجنة والنجاة من النار من ثمرات الصبر.

ومن هذه الخيرات التى ذكرها القرآن:

١ـ معية الله الصابرين:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(٢). وهى معية خاصة تتضمن الحفظ والرعاية والتأييد والحماية.

٢ - محبة الله تعالى لهم:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾(٣).

٣- إطلاق البشرى لهم وجمع لهم من المثوبة ما لم يجمع لغيرهم

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾(٤) فجمع لهم بين الصلوات من الله والرحمة وقصر الاهتداء عليهم.

٤- إيجاب الجزاء لهم بأحسن أعمالهم

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٥).

---

(١) رواه القضاعى والديلمى والحكيم الترمذى عن أنس

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) آل عمران: ١٤٦.

(٤) البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٥) النحل: ٩٦.

٥ - توفيتهم أجورهم بغير حساب

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[(١)].

6 - ضمان النصر لهم

قال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾[(٢)].

٧ - الحصول على درجة الإمامة في الدين

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾[(٣)].

٨ - الثناء عليهم بأنهم أهل العزائم

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[(٤)].

٩ - حفظهم من كيد الأعداء

قال تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[(٥)].

١٠ - استحقاقهم دخول الجنة وتسليم الملائكة عليهم

قال تعالى: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾[(٦)].

وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا﴾[(٧)].

وقال تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[(٨)].

---

(١) االزمر: ١٠.
(٢) آل عمران: ١٢٥.
(٣) السجدة: ٢٤.
(٤) آل عمران: ١٨٦.
(٥) آل عمران: ١٢٠.
(٦) الإنسان: ١٢.
(٧) الفرقان: ٧٥..
(٨) الرعد: ٢٤.

١١ ـ انتفاعهم بعبر التاريخ واتعاظهم بآيات الله فى الأنفس والآفاق

قال تعالى لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾[١، ٢].

وكما رتب القرآن الكريم خيرات الدنيا والآخرة على الصبر فقد رتبت السنة كذلك. وهى شارحة القرآن الكريم خيرات الدنيا والآخرة على الصبر.

١ ـ فمن يتصبر يصبره الله. وما أعطى أحد عطاء خير وأوسع من الصبر.

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه. أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ. فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم. حتى نفد ما عنده. فقال لهم حين أنفق كل شىء بيده. ما يكن عندى من خير فلن أدخره عنكم. ومن يستعفف يعفه الله. ومن يستغن يغنه الله. ومن يتصبر يصبره الله. وما أعطى أحد عطاء خيراً وأوسع من الصبر[٣].

٢ ـ وأشادت السنة بمن يملك نفسه عند الغضب. وهذا لون من الصبر حيث يحبس المغضب نفسه عن الاستسلام لثورة الغضب التى تدفعه للانتقام.

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة. إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»[٤].

٣ ـ من صبر على فقد بصره عوضه الله الجنة.

عن أنس رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عز وجل قال: إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة. يريد عينيه»[٥].

٤ ـ من صبر على ما ينزل به من أذى يمحق الله سيئاته.

---

(١) إبراهيم: ٥.

(٢) كتاب الصبر فى القرآن الكريم. للدكتور يوسف القرضاوى.

(٣) متفق عليه. انظر الملحق. رواه البخارى بسنده فى صحيحه جـ٢ ص١٢٤ كتاب الرقاق.

(٤) متفق عليه رواه البخارى بسنده فى صحيحه جـ٨ ص٣٤ كتاب الأدب.

(٥) رواه البخارى جـ٧ ص١٥١ كتاب الطب باب فضل من ذهب بصره.

عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما من مسلم يصيبه أذى. من مرض فما سواه إلا حط الله عنه من سيئاته كما تحط الشجرة ورقها»(١).

٥ ـ وتصف السنة الصبر بأنه ضياء.

عن أبى مالك الحارث بن عاصم الأشعرى رضى الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان. والحمد لله تملأ الميزان. وسبحان الله والحمد لله تملآن. أو تملأ السموات والأرض. والصلاة نور. والصدقة برهان. والصبر ضياء. والقرآن حجة لك أو عليك. كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»(٢).

٦ ـ من صبر على ما به من أذى فله الجنة. واختيار البعض بقاء المرض طلبا للجنة.

عن عطاء بن أبى رباح قال: قال لى ابن عباس رضى الله عنهما " «ألا أُرِيك امرأة من أهل الجنة؟

فقلت: بلى.

قال: هذه المرأة السوداء. أتت النبى ﷺ. فقالت: إنى أصرع وإنى أتكشف فادع الله تعالى لى.

قال: إن شئت صبرت ولك الجنة. وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك.

فقالت: أصبر. فقالت: إنى أتكشف. فادع الله أن لا أتكشف. فدعا لها»(٣).

ويذكر فضل الصابرين صاحب قوت القلوب.

---

(١) رواه البخارى وسلم. واللفظ له. جـ١٦ ص١٢٧ كتاب البر والصلة والأداب.

(٢) رواه مسلم جـ٣ ص٩٩، ١٠٠ انظر الملحق ص٢٢ كتاب الطهارة باب فضل الوضوء

(٣) متفق عليه. رواه البخارى فى صحيحه بسنده جـ٧ ص١٥٠، ١٥١ كتاب الطب.

فيقول: «جعل الله تعالى الصابرين أئمة المتقين. وتمم كلمته الحسنى عليهم فى الدين».

فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾(٢).

وقال ﷺ: «إن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا»(٣).

وقال المسيح عليه السلام: انكم لا تدركون ما تحبون إلا بصبركم على ما تكرهون»(٤).

ويقول أيضًا لما دخل الإمام على البصرة. واستقام له الأمر دخل جامعها. فجعل يخرج القصاص . ويقول: القصص بدعة. فانتهى إلى حلقة شاب يتكلم على جماعة فاستمتع إليه فاعجبه كلامه.

فقال يافتى أسألك عن شيئين. فإن خرجت منهما تركتك تتكلم على الناس. وإلا أخرجتك كما أخرجت أصحابك.

فقال: سل يا أمير المؤمنين.

فقال: أخبرنى ما صلاح الدين وما فساده؟

فقال: صلاحه الورع. وفساده الطمع.

قال: صدقت تكلم. فمثلك يصلح أن يتكلم على الناس.

ويقال: إن هذا الشاب هو الإمام الحسن البصرى(٥).

هذا وما الورع إلا الصبر على المحرمات والشبهات معا.

---

(١) السجدة: ٢٤. .

(٢) الأعراف: ١٣٧ .

(٣) مسند أحمد جـ١ ص٢٠٧ وله شاهد عند الطبرانى فى الكبير قال فى مجمع الذوائد فى حديث الطبرانى رواه الطبرانى فى الكبير. وفيه إبراهيم بن محمد شيخ الطبرانى ضعفه الذهبى ولم يذكر سببا. وبقيه رجاله موثقون. مجمع الذاوئد جـ٢ ص٢٩١ كتاب الجنائز.

(٤) قوت القلوب لأبى طالب المكى جـ١ ص٨٧

(٥) المصدر السابق جـ١ ص٨٨

الفصل الخامس

وقد ربى الله سبحانه رسله وأنبياءه بالصبر.

قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾(١).

فأمره ﷺ بالصبر. وأعلمه أنه إنما يستعان على الصبر بالله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(٢).

يأمره تعالى بأن يجالس هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه. وهم من فقراء المسلمين.

ويقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾(٣).

وفى هذه الآية تربية له ﷺ بالصبر.

وإشارة إلى أن التربية بالصبر هى سنة الهية فى تربية أولى العزم من الرسل.

وأولو العزم من الرسل هم سادة الأنبياء والمرسلين.

وهم سيدنا محمد ﷺ. وسيدنا نوح. وسيدنا إبراهيم وسيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهم الصلاة والسلام.

وقد وصف الله الكثير من الأنبياء بالصبر. قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾(٤).

وقال تعالى عن سيدنا أيوب: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾(٥).

---

(١) النحل: ١٢٧.
(٢) الكهف: ٢٨.
(٣) الأحقاف: ٣٥.
(٤) الأنبيا: ٨٥.
(٥) ص: ٤٤.

لقد ربى الله عز وجل أنبياءه ورسله بالصبر وعلى الصبر.

وهم بدورهم قد ربوا أقوامهم وأصحابهم على الصبر وبالصبر. لأنه أساس التمكين فى الأرض.

قال تعالى مشيرًا إلى ذلك: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وقال تعالى آمرًا بالصبر ومصرحًا بأنه طريق الفلاح:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[2].

فيأمر تعالى بالصبر. يعنى محاولة الصبر. كما يأمر بأن يصبر بعضهم بعضًا.

من هذه الآيات نعلم أن المولى عز وجل قد ربى أنبياءه ورسله بالصبر وعلى الصبر.

وأن الرسل قد ربوا أصحابهم وأممهم «بالصبر وعلى الصبر».

وكلما كان المؤمن متحليًا بالصبر فإنه يتمكن من تخطى العقبات والأزمات فى هذه الحياة.

يقول تعالى مشيرًا إلى ذلك بما وقع لسيدنا يوسف من صبره وتقواه. وحسن عاقبته بسبب ذلك.

يقول تعالى: ﴿قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾[3].

وبالصبر تتماسك المجتمعات لأن الأفراد إذا كانوا موصوفين بالصبر كان المجتمع كله موصوفًا بالصبر. والصبر دواء لاصلاح المجتمع وأفراده.

---

(١) السجدة: ٢٤.

(٢) آل عمران: ٢٠٠.

(٣) يوسف: ٩٠.

قال تعالى مشيراً إلى ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾[1].

«وإذا تأملت مراتب الكمال المكتسب فى العالم رأيتها كلها منوطة بالصبر. وإذا تأملت النقصان الذى يذم صاحبه عليه. ويدخل تحت قدرته رأيته كله من عدم الصبر.

فالشجاعة والعفة والجود والإيثار كله صبر ساعة.

وأكثر أسقام البدن والقلب إنما تنشأ من عدم الصبر. فما حفظت صحة القلوب والأبدان والأرواح بمثل الصبر. ولو لم يكن فيه إلا معية الله مع أهله لكفى. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وهو خير لأهله. وقال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[2].

ويشير ﷺ إلى أن الصبر طريق إلى الخير بقوله: «من يرد الله به خيرا يصب منه»[3].

والمراد يصب منه. ويصبر على ذلك. وإلا فلو أصاب منه. ولم يصبر. بل سخط وجزع فإنه لا يصيب بذلك خيرا.

ويؤكد أثر الصبر فى تكوين الفرد والمجتمع قول الغزالى:

«إن المرء محتاج إلى الصبر فى كل حال. فهو يحتاج إليه فى السراء. كما يحتاج إليه فى الضراء وهو إليه فى السراء أحوج فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية. والصبر عل العافية. بأن يراعى الصابر حقوق الله فى ماله بالانفاق منه فى سبيل الخير. وفى بدنه ببذل المعونة للخلق. وفى لسانه ببذل الصدق.

والطاعة تحتاج إلى الصبر. لأن النفس بطبعها تنفر من العبودية. وللصبر على الطاعة ثلاثة أحوال:

---

(١) البقرة: ١٥٣.

(٢) زاد المعاد لابن القيم جـ٣ ص ١٧٢ بتصرف.

(٣) رواه البخارى جـ٧ ص ١٤٩ كتاب الطب باب ما جاء فى كفارة المرض.

١ ـ قبل الطاعة: وذلك بتصحيح النية. والإخلاص والصبر على شوائب الرياء والعزم على الإخلاص والوفاء.

٢ ـ وحالة العمل: حتى لا يفتر قبل الفراغ منه.

٣ ـ وبعد العمل: إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه. والتظاهر به. والنظر إليه.

ويحتاج الإنسان إلى الصبر عن المعاصى. وعلى الأخص المعاصى التى صارت مألوفة بالعادة لأن إضافة العادة إلى الشهوة وسهولة فعل المعصية مما يضاعف من حاجة الإنسان إلى الصبر.

وذلك كالصبر عن معاصى اللسان من الغيبة والكذب والمراء[١].

«وكان سهل يقول: الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء. وكذلك قال الصحابة رضى الله عنهم لما فتحت الدنيا فنالوا من العيش واتسعوا: قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا. وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر. فعظموا الاختبار بالسراء.

ومن هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ۝٩﴾[٢].

لأن فيهما ما يسر ويشغل عن الذكر. ثم قال تعالى: ﴿**إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ**﴾[٣].

لأن فى الأزواج ما يفرح به فيوافق فيه الهوى. ويخالف بوجودهما الموالى فصارا عدوين فى العقبى.

ومن هذا الخبر الذى روى عن النبى ﷺ: أنه لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قميصه نزل عن المنبر واحتضنه. ثم قال: صدق لله ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ لما رأيت ابنى هذا لم أملك نفسى أن نزلت وأخذته.

---

(١) الأخلاق عند الغزالى. للدكتور زكى مبارك ص١٥٤.

(٢) المنافقون: ٩.

(٣) التغابن: ١٤.

وفى الحديث أيضًا أن الأولاد مجبنة مبخلة .

فمن صبر على السراء. وهى العوافى والغنى والأولاد وغير ذلك وأخذ الأشياء من حقها ووضعها فى حقها فهو من الصابرين[١].

وهكذا يؤدى الصبر دوره فى تكوين الفرد والمجتمع. ويدخل فى جميع أحوال الإنسان من عسر ويسر. وشدة وفرج وطاعة ومعصية.

«فنسبة الصبر للأخلاق الفاضلة كنسبة الأصل إلى الفروع. أو كمنزلة الماء من الأحياء تلك المنزلة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٢].

فلا تكاد تجد المرء فى حال من أحوال حياته غنيا عن التذرع بفضيلة الصبر ليتجلى بالخلق الذى تستدعيه حاله.

فالغنى فى حاجة إلى الصبر ليضبط نفسه عن البطر والطغيان. المشار إليه فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝٧﴾[٣].

ولا تظن أن الصبر على هذه الحال. حال الغنى وما على شاكلته من التمتع بالصحة والجاه والولد وأنواع النعم من الهنات الهينات.

فالنفس شغوفة بالاسترسال فى ملاذها. والاستزادة فيها. والطعام يقوى شهوة النهم. وقد جاء قوله جل شأنه: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

فالإنسان بحاجة إلى أن ينظر إليها بعين نعمة أوجبت عليه حقًا يقوم به. وليس من حقها عليه أن ينهمك فى ملاذها. ويغفل عن شكرها. ويستوجب على الناس حقًا لا يلزمهم من أجلها.

فهو بين فتنة الانهماك فيها. وفتنة التقصير فى الشكر عليها. وفتنة زعمه أنه وقد أنعم الله عليه بها يجب على الناس أن يعطوه من التوقير والتعظيم والتمييز من أجلها مالا يملكه عليهم.

---

(١) قوت القلوب. لأبى طالب المكى جـ١ ص٨٨

(٢) الأنبياء: ٣٠.

(٣) العلق: ٦، ٧.

أفلا تراه يغضب أن خوطب خطاب المساواة بمن لم يساوه فيها؟

وهل هذا إلا جنوح للعظمة الممقوتة وإدعاء ما ليس له؟

فالغنى بحاجة إلى ضبط نفسه عن هذه الأحوال. وذلك من أبواب الصبر.

والفقير أو المحروم من بعض متع الحياة بحاجة إلى ضبط النفس وحبسها عن التذمر والتضجر والجزع مما حل به. وأن يرى فى نفسه أنه عبد منحه سيده الذى خلقه نعمًا. لو قاس بها ما حرم منه لم يكن شيئًا مذكورًا. فضلاً منه تعالى. لا وجوبًا عليه. ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾. فهل تأمل الفقير نعمة وجوده وامتاعه بحواسه وصحته وقواه؟ بل هل التفت إلى قوة تدبير غذائه. ومراتب جهاز هضمه مما يتم على أكمل وجه. ولا شعور له به. وهل دفع ثمن ذلك؟ وهل راعى المريض أنه قد سلم من الأمراض الأخرى التى عوفى منها. وأنه ما من بلاء إلا والمرء معرض لما هو أشد منه وأكبر.

واستعرض بعد ذلك الأخلاق تفصيلا. واستخرج منزلة الصبر منها فإنك تجد العفة صبرًا عما يشتهى.

والشجاعة صبرًا حين البأس.

والصدق صبرًا عما يطمع فى احرازه لو كذب.

وكتمان السر صبرًا عن الافشاء المحبوب.

والأمانة صبرًا عل منازعة النفس فى الرغبة فى الظفر بما اؤتمنت عليه.

وهكذا تجد الصبر من الأخلاق الفاضلة كالماء من الأحياء.

ثم استعرض الطاعات تجد الصلاة بحاجة إلى الصبر على أداء تلك الأركان والتغلب على الشواغل التى تصرف عنها. بل تحتاج إلى الصبر على استحضار أسرار الصلاة والخشوع وحضور القلب. وهو أعظم من صبر الجوارح.

والصوم ما هو؟ أليس هو الصبر عن الشهوات. وكف النفس عما تميل إليه بطبعها.

ولشدة الاتصال بين الصوم والصبر ورد فى شأنها جزاء متناسب فقال عز وجل: فى شأن الصبر: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وقال عليه الصلاة والسلام: «فى شأن الصوم. فيما يرويه فى الحديث القدسى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به والحسنة بعشر أمثالها» فجعل جزاء كل من الصبر والصوم خارجا عن التقدير موكولا إلى فضل العليم الخبير فهو أعلم بمقدار ما يعانيه الصائم والصبور من مكافحة الميل ومعاناة المشقة.

والزكاة بحاجة إلى ضبط النفس. وكفها عن البخل. ومنعها من الاستئثار بما ليس لها بحق.

وهل تغيب عنا المشاق التى يتحملها الحاج. والمتاعب التى تعترضه فى طريقه. فضلا عن بذل المال المحبوب فى سبيل طاعة الله.

ولعلك قائل وما علاقة الصبر بالإيمان؟

وأقول قد ورد أن: «الصبر نصف الإيمان». وقد فسر ذلك بتفسيرين:

أحدهما: أن الإيمان المعتد به شرعًا. هو المعنى الجامع لليقين والعمل على مقتضاه وقد رأيت جميع الأعمال الصالحة تحتاج إلى الصبر.

والثاني: أن الإيمان إنما يكون إيمانًا إذا أثمر ثمرة فى نفس المؤمن. وذلك أن يكون شاكرًا على السراء. صابرًا على الضراء. والمرء فى حياته لا يخلو عنهما.

فالصبر صبران: صبر على ما تكره. وصبر عما تحب. ولعل الثانى أشق من الأول(١).

---

(١) من مقال للشيخ إبراهيم الجبالى. بمجلة نور الإسلام. رمضان سنة ١٣٤٩هـ.

الفصل السادس

اجتماع الصبر والشكر

قد ينفرد كل من الصبر والشكر. وهذا هو الغالب والكثير. وقد يجتمعان. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. كما جاء فى الحديث النبوى الشريف.

عن أبى يحى صهيب بن سنان رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عجبا لأمر المؤمن. إن أمره كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن. إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له. وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له»(١).

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خصلتان من كانتا فيه كتبه الله شاكرا صابرا. ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا».

من نظر فى دينه إلى من هو فوقه فاقتدى به. ونظر فى دنياه إلى من هو دونه فحمد الله على فضله به. كتبه الله شاكرا صابرا.

ومن نظر فى دينه إلى من هو دون. ونظر فى دنياه إلى من هو فوقه فأسف على ما فاته لم يكتبه الله شاكرا ولا صابر»(٢).

ويقول ابن قيم الجوزية فى اجتماع الصبر والشكر مثنيا على من جمع الله عز وجل له ذلك:

«أن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر. وإذا ابتلى صبر. وإذا أذنب استغفر فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد. وعلامة فلاحه فى دنياه وأخراه ولا ينفك عبد عنها أبدًا. فإن العبد دائم التقلب بين هذه الثلاث.

الأول نعم من الله تترادف عليه فقيدها الشكر.

---

(١) رواه مسلم جـ١٨ ص١٢٥ انظر الملحق كتاب الزهد باب فى أحاديث متفرقة.

(٢) أخرجه الترمذى عن سويد عن المصنف عن المثنى عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده. وقال: لم يذكر سويد عن أبيه. ثم أخرجه من طريق على بن اسحاق عن ابن المبارك. وفيه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده جـ٤ ص٦٦٥ كتاب صفة القيامة باب ٥٨ وقال حسن غريب وقال الحافظ العراقى: أخرجه الترمذى وقال غريب وفيه المثنى بن الصباح ضعيف. تخريج الحافظ العراقى على الإحياء جـ٤ ص١٢٥.

وهو مبنى على ثلاثة أركان. الاعتراف بها باطنًا. والتحدث بها ظاهرًا. وتصريفها فى مرضاة وليها ومسديها ومعطيها. فإذا فعل ذلك فقد شكرها.

الثانى محن من الله تعالى يبتليه بها. ففرضه فيها الصبر. والتسلى عن الشكوى. وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة. فإذا قام بها العبد كما ينبغى انقلبت المحنة منحة. واستحالت البلية عطية. وصار المكروه محبوبًا.

فإن الله تعالى لم يبتله ليهلكه. وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته.

فإن لله تعالى على العبد عبودية فى الضراء كما له عليه عبودية فى السراء. وله تعالى عبودية عليه فيما يكره. كما له عبودية فيما يجب.

وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون. والشأن فى إعطاء العبودية فى المكاره.

ففيه تتفاوت مراتب العباد. وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى.

فالوضوء بالماء البارد فى شدة الحر عبودية. ومباشرة زوجته الحسناء التى يحبها عبودية ونفقته عليها وعلى نفسه وعياله عبودية.

هذا والوضوء بالماء البارد فى شدة البرد عبودية. وتركه المعصية التى اشتدت دواعى نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية. ونفقته فى الضراء عبودية.

ولكن هناك فرق عظيم بين العبوديتين.

فمن كان عبدا لله فى الحالتين. قائمًا بحقه فى المكروه والمحبوب. فذلك الذى تناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. وفى القراءة الأخرى «عباده». وهما سواء لأن المفرد مضاف فيعم عموم الخلق.

فالكفاية التامة مع العبودية التامة. والناقصة مع الناقصة.

فمن وجد خيرًا فليحمد الله. ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

---

(١) الرسالة القشيرية ص٩٢.

وهؤلاء هم عباده تعالى الذين ليس لعدوه عليهم سلطان. قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[1].

وقد تكرر فى القرآن الجمع بين صفتى الصبر والشكر فى معرض الثناء فى أربع سور مكية:

فى سورة إبراهيم: الآية ٥.

فى سورة سبأ: الآية ١٩.

فى سورة لقمان: الآية ٣١.

فى سورة الشورى: الآية ٣٣.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تكررت تلك الآية فى السور الأربع السابقة.

والصبار الشكور: هو المؤمن الكامل. الذى جمع بين شطرى الإيمان. الصبر والشكر لأن الإيمان نصفان. نصف صبر ونصف شكر.

قال ﷺ: «الإيمان نصفان. نصف صبر ونصف شكر»[2].

ومما يشهد لاجتماع الصبر والشكر فى معرض الثناء. وتحقيق الإيمان الكامل.

ما رواه ابن عباس عن النبى ﷺ أنه دخل يومًا على الأنصار فقال:

«أمؤمنون أنتم؟ فسكتوا.

فقال عمر بن الخطاب: نعم يا رسول الله.

قال: فما علامة إيمانكم؟

فقال عمر: نشكر على الرخاء. ونصبر على البلاء. ونرضى بالقضاء.

فقال عليه الصلاة والسلام: مؤمنون ورب الكعبة»[3].

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن قيم الجوزية جـ٣ ص٣٣.

(٢) البيهقى فى شعب الإيمان عن أنس ضعيف الجامع الصغير جـ١ ص٢١٣.

(٣) قال فيه الحافظ العراقى أخرجه الطبرانى فى الأوسط من رواية يوسف بن ميمون وهو منكر الحديث. إحياء علوم الدين جـ٤ ص٦٢.

اجتماع الصبر والشكر على وجه واحد

فيما تقدم رأينا اجتماع الصبر والشكر. لكن على التبادل ينعم على العبد تارة فيشكر على النعمة. ويبتلى تارة أخرى فيصبر على البلية.

لكن ذكر ابن قدامة . أن الشيء الواحد قد يكون نعمة من جهة ونقمة من جهة أخرى وأن لله تعالى فى كل موجود نعمة.

يقول ابن قدامة: «إن لله تعالى فى كل موجود نعمة. وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا. فما معنى الصبر؟

وإن كان البلاء موجودًا. فما معنى الشكر على البلاء؟

وكيف يجتمع الصبر والشكر؟

فإن الصبر يستدعى ألمًا. والشكر يستدعى فرحًا. وهما متضادان.

ثم يقول: «اعلم أن البلاء موجود. كما أن النعمة موجودة. وأنه ليس كل بلاء يؤمر بالصبر عليه. فالكفر بلاء. ولا معنى للصبر عليه. وكذا المعاصى بلاء ولا يؤمر بالصبر عليها.

غير أن الكافر لا يعلم أن كفره بلاء. فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بها بسبب غشيته.

فإذن يرجع الصبر فى الدنيا إلى ما ليس ببلاء مطلق. بل يجوز أن يكون نعمة من وجه. فلذلك يتصور أن تجتمع عليه وظيفة الشكر ووظيفة الصبر.

فإن الغنى مثلا يجوز أن يصير سبب هلاك الإنسان. حتى يقصد قتله بسبب ماله.

وأن الله سبحانه وتعالى جعل فى كل موجود نعمة. حتى أن الآلام قد تكون نعمة فى حق المتألم وقد تكون نعمة فى حق غيره. كألم الكفار فى النار فى الآخرة. فإنه نعمة فى حق أهل الجنة. إذا ذكروا ألم أهل النار.

فإذن صح قولنا: إن الله تعالى لم يخلق شيئًا إلا وفيه حكمة ونعمة إما على جميع العباد أو على بعضهم.

ففى خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضًا إما على المبتلى أو على غيره. فتجتمع على العبد وظيفة الشكر ووظيفة الصبر فى كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة.

فإن الإنسان قد يفرح بالشىء الواحد من وجه ويغتم به من وجه. فيكون الصبر من حيث الاغتمام والشكر من حيث الفرح.

ويزيد ابن قدامة المقام تفصيلا.

فيقول: اعلم أن فى كل فقر ومرض وخوف وبلاء فى الدنيا خمسة أشياء ينبغى أن يفرح العاقل بها ويشكر عليها.

أحدها: أن كل مصيبة ومرض يتصور أن يكون عليه أكثر منها. لأن مقدورات الله لا تتناهى. فلو أضعفها الله عز وجل على العبد فما كان يمنعه. فليشكر إذ لم تكن المصيبة أعظم.

الثانى: أن المصيبة لم تكن فى الدين.

قال عمر بن الخطاب: ما ابتليت ببلاء ألا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن فى دينى. وإذ لم يكن أعظم. وإذ لم أحرم الرضى به. وإذ أرجو عليه الثواب.

وقال رجل لسهل بن عبد الله: دخل اللص بيتى وأخذ متاعى. فقال: اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد إيمانك ماذا كنت تصنع؟

ومن استحق أن يضربك مائة سوط. فاقتصر على عشرة فهو مستحق للشكر.

الثالث: إنه ما من عقوبة ألا ويتصور أن تؤخر للآخرة. ومصائب الدنيا يتسلى عنها فتخف. ومصيبة الآخرة دائمة.

وفى صحيح مسلم. أن كل ما يصاب به المسلم يكون كفارة له حتى الشوكة يشاكها.

الرابع: أن هذه المصيبة كانت مكتوبة فى أم الكتاب عليه. ولم يكن بد من وصولها إليه. فقد وصلت واستراح منها. فهى نعمة.

الخامس: أن ثوابها أكثر منها. فإن مصائب الدنيا طرق إلى ثواب الآخرة.

فما من شىء من هذه الأشياء يوجد إلا ويتصور أن يكون للعبد فى ذلك خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله. ويقدر الخير فيما يصيبه ويشكر الله تعالى عليه.

وفى الحديث: «لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيرًا له»(1).

---

(١) مختصر منهاج القاصدين. لابن قدامة المقدسى ص٣٠٤. بتصرف.

الفصل السابع

أيهما أفضل الصبر أم الشكر؟

اختلف الناس: هل الصبر أفضل من الشكر أو بالعكس أو هما متساويان؟

وفى ذلك كلام طويل.

وخلاصة ما قيل: أن البعض رأى تساويهما. منهم سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقد حكى عنه أنه قال: «لو كان الصبر والشكر بعيرين لم أبال أيهما ركبت».

ورأى البعض أنه لا يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر.

فما يندرج من الأعمال والأقوال تحت اسم الصبر والشكر لا ينحصر. وهى درجات مختلفة.

فأقل درجات الصبر ترك الشكوى مع الكراهة. ووراءها الرضا. وهو مقام وراء الصبر. ووراء ذلك الشكر على البلاء. وهو وراء الرضا.

ودرجات الشكر كثيرة. فإن حياء العبد من تتابع نعم الله عليه شكر. ومعرفته بتقصيره عن الشكر شكر. والمعرفة بعظيم حلم الله وستره شكر.

والإعتراف بأن النعم ابتداء من الله بغير استحقاق شكر. والعلم بأن الشكر نعمة من نعم الله شكر.

لكن نقول: إذا أضيف الصبر إلى الشكر الذى هو صرف المال إلى الطاعة. فالشكر آنذاك أفضل. لأنه تضمن الصبر أيضًا. من حيث أنه احتمل ألم صرف المال إلى الفقراء.

لكن إذا كان شكر المال أن لا يستعين به على المعصية فحسب. بل يصرفه إلى التنعم المباح. فالصبر هنا أفضل من الشكر.

والفقير الصابر أفضل من الممسك ماله الصارف له فى المباحات. لأن الفقير قد جاهد نفسه. وأحسن الصبر على بلاء الله تعالى.

وجميع ما ورد من تفضيل أجزاء الصبر عل الشكر. إنما أريد به هذه الرتبة على الخصوص والغنى الشاكر هو أفضل من الفقير الصابر. فهو غنى جمع بين الصبر والشكر. فهو يرى نفسه مثل الفقير الذى لا يمسك لنفسه من المال إلا قدر الضرورة. ويصرف الباقى فى الخيرات. أو يمسكه اعتقادًا منه أنه خازن للمحتاجين. فهو ينتظر محتاجًا يأتى حتى يصرف له حاجته. وهو ينفق لا طلبًا لجاه. ولا لمنة. فهذا هو الغنى الشاكر الذى هو أفضل من الفقير الصابر(1). وهو عند التحقيق قد جمع بين مقامى الصبر والشكر.

أما من تحقق بالشكر فقط أو بالصبر فقط. فذلك يختلف القول فيه باختلاف درجات ومقامات كل من الصبر والشكر. فتارة يسبق الصبر. وأخرى يسبق الشكر.

وهنا سؤال قد يرد.

وهو إذا كان الصبر فى بعض مقاماته. أفضل من الشكر.

فهل لنا أن نسأل الله آنذاك البلاء؟

وقد أجاب على ذلك ابن قدامة بقوله:

«لا وجه لذلك. فقد روى أنس أن رسول الله ﷺ «عاد رجلا من المسلمين صار مثل الفرخ.

فقال له رسول الله ﷺ: «هل كنت تدعو بشىء أو تسأله؟ فقال: نعم. كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا.

فقال رسول الله ﷺ:

«سبحان الله. لا تطيقه. ولا تستطيعه. فهلا قلت: اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة. وقنا عذاب النار».

---

(1) مختصر منهاج القاصدين. لابن قدامة ص٣٠٩. بتصرف.

ومن حديث أنس رضى الله عنه أيضًا أن رجلا قال: يا نبى الله أى الدعاء أفضل؟ قال: سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ثم أتاه الغد فقال: يا رسول الله. أى الدعاء أفضل؟ قال: سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة. ثم أتاه اليوم الثالث فقال: سل الله العفو والعافية فى الدنيا والآخرة. فإن أعطيت العفو والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أفلحت».

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال:

«تعوذوا بالله من جهد البلاء. ودرك الشقاء. وسوء القضاء،. وشماتة الأعداء»[1].

وقال مطرف: لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبتلى فأصبر.

وما تقدم كله يتضح لنا أنه لا يحسن بالمسلم أن يسأل الله البلاء. ليصبر عليه فيؤجر لما تقدم من نهيه ﷺ عن ذلك.

ولتعوذه ﷺ من جهد البلاء. ودرك الشقاء. وسوء القضاء. وهو ﷺ أسوة أمته.

كما أن العبد قد يسأل الله البلاء ليصبر فيؤجر. وقد يعجز عن الصبر ويقع فى الجزع.

نسأل الله عز وجل العفو والعافية فى الدنيا والآخرة، إنه سميع قريب مجيب.

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة - صحيح.

المصادر والمراجع

أولاً ١ - القرآن الكريم

ثانيا: مراجع التفسير.

١ - أنوار التنزيل وأسرار التأويل.

ناصر الدين البيضاوى. ط «دار الفكر» بيروت.

٣ - ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم.

أبو السعود العمادى. ط «دار المصحف» القاهرة.

٤ - تفسير القرآن العظيم.

ابن كثير ط عيسى الحلبى القاهرة.

٥ - التفسير الكبير: الفخر الرازى ط عبد الرحمن محمد. ميدان الأزهر.

٦ - تفسير النسفى: أبو البركات النسفى. ط مكتبة ومطبعة صبيح القاهرة.

٧ - تفسير المنار: محمد رشيد رضا. ط مكتبة القاهرة. ميدان الأزهر.

٨ - تأويلات أهل السنة: لأبى منصور محمد بن محمد الماتريدى السمرقندى.

٩ - جواهر القرآن: طنطاوى جوهرى. ط المكتبة الإسلامية. بيروت.

١٠ - جامع البيان عن تأويل القرآن: أبو جعفر الطبرى ط دار المعارف بمصر.

١١ - الجامع لأحكام القرآن: للقرطبى. ط دار الشعب القاهرة.

١٢ - حاشية الشهاب على البيضاوى: ط دار صادر. بيروت.

١٣ - روح المعانى: للألوسى ط دار الفكر. بيروت.

١٤ - فتح القدير: للإمام محمد بن على بن محمد الشوكانى. ط مصطفى الحلبى. بمصر.

١٥ - فى ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب. ط دار الشروق. بمصر.

١٦ ـ الكشاف: لجار الله الزمخشرى. مصطفى الحلبى. بمصر.
١٧ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور: للبقاعى. مخطوط بمكتبة الأزهر.

ثالثا: مراجع الحديث:

١٨ ـ تهذيب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلانى ط. دار صادر. بيروت.
١٩ ـ الترغيب والترهيب: للحافظ المنذرى. ط. دار إحياء التراث العربى.
٢٠ ـ الجامع الصغير: للسيوطى. ط دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى.
٢١ ـ جامع العلوم والحكم: لزين الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين ابن أحمد بن رجب الحنبلى البغدادى. تحقيق الدكتور محمد الأحمدى أبو النور. ط عيسى الحلبى.
٢٢ ـ سنن أبى داود: أبو داود ط مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى.
٢٣ ـ سنن الترمذيك أبو عيسى الترمذى ط المكتبة الإسلامية. بيروت.
٢٤ ـ سنن النسائى: «المجتبى» للإمام النسائى. ط مصطفى البابى الحلبى. بمصر.
٢٥ ـ سنن ابن ماجه: لابن ماجه. ط عيسى البابى الحلبى وشركاه بمصر.
٢٦ ـ صحيح البخارى: للإمام البخارى ط الشعب.
٢٧ ـ صحيح مسلم: للإمام مسلم. ط مصطفى البابى الحلبى. بمصر.
٢٨ ـ صحيح ابن حبان: لابن حبان. ط المكتبة السلفية. بالمدينة المنورة.
٢٩ ـ فتح البارى: ابن حجر العسقلانى. ط مصطفى البابى الحلبى بمصر.
٣٠ ـ كنز العمال: لعلى بن حسام الدين. على هامش المسند للإمام أحمد. طبع دار صادر. بيروت.

٣١ ـ مسند البزار .

٣٣ ـ المستدرك: لأبى عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم. مطابع النصر الحديث بالرياض.

٣٤ ـ مجمع الزوائد: للهيثمى. مكتبة القدسى. القاهرة.

٣٥ ـ نيل الأوطار: للشوكانى. ط. المطبعة المنيرية بالقاهرة.

٣٦ ـ النهاية لابن الأثير: لمجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد الجزرى ابن الأثير. ط. عيسى البابى الحلبى.

رابعاً مراجع التصوف الإسلامي :

٣٧ ـ إحياء علوم الدين: للإمام الغزالى. ط المكتبة التجارية بمصر.

٣٨ ـ الأسماء الحسنى: ط الشعب.

٣٩ ـ الأخلاق عند الغزالى: للدكتور زكى مبارك.

٤٠ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز: للإمام الفيروزبادى.

٤١ ـ تاريخ التصوف الإسلامى: تأليف د. قاسم عتى. ترجمة عن الفارسية صادق نشأت نشر وطبع. مكتبة النهضة المصرية.

٤٢ ـ حلية الأولياء: لأبى نعيم الأصبهانى. مطبعة السعادة بمصر.

٤٣ ـ حياة الصحابة: تأليف الشيخ محمد يوسف الكاندهلوى. ط دار القلم. دمشق. بيروت.

٤٤ ـ حادى الأنام إلى دار السلام: للعلامة الشيخ أبو بكر بن الشيخ محمد الملا الحنفى.

٤٥ ـ الرسالة القشيرية.

٤٦ ـ روضة العقلاء ونزهة الفضلاء: للحافظ أبى حاتم بن حبان البستى.

٤٧ ـ شرح الحكم لابن عجيبة الحسنى.

٤٨ ـ الصوفية فى الهامهم: للأستاذ حسن الملطاوى.

٤٩ ـ فضائل الذكر والدعاء: لابن قيم الجوزية. ط مكتبة التراث الإسلامى. القاهرة.

٥٠ ـ قوت القلوب: لأبى طالب المكى.

٥١ ـ لطائف المنن والأخلاق: للإمام الشعرانى. ط عالم الفكر. ميدان الحسين بمصر.

٥٢ ـ مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية.

خامساً مراجع العقيدة

٥٣ ـ كتاب عقائد التوحيد: من تحفة المريد على الجوهرة لعبد الكريم حسن الفوى.

سادساً كتب الفقه

٥٤ ـ أضواء على نظام الأسرة فى الإسلام: للدكتورة سعاد صالح.

٥٥ ـ المغنى: لابن قدامة.

٥٦ ـ المهذب فى فقه مذهب الإمام الشافعى.

سابعاً كتب الطب:

٥٧ ـ الإعجاز الطبى: للدكتور السيد الجميلى. ط دار التراث العربى. القاهرة.

٥٨ ـ الطب محراب الإيمان: للدكتور خالص حلبى جـ١ مؤسسة الرسالة. بيروت، جـ٢ دار الكتب العربية. دمشق.

٥٩ ـ الموسوعة الطبية: تأليف مجموعة من علماء هيئة المطبعة الذهبية. رئيسا التحرير: الدكتور أحمد عمار، الدكتور محمد أحمد سليمان. ترجمة الدكاترة: إبراهيم أبو النجا. عيسى حمدى المازنى لويس دوس.

ثامناً: كتب اللغة والمعاجم:

٦٠ ـ القاموس المحيط: للفيروزبادى. دار الفكر. بيروت.

٦١ ـ مختار الصحاح: للشيخ الإمام محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى. ط المطبعة الأميرية بالقاهرة.

٦٢ ـ المصباح المنير.

٦٣ ـ المفردات للراغب: الراغب الأصفهانى. دار المعرفة للطباعة والنشر.

٦٤ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى مطابع الشعب.

٦٥ ـ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف: أ. ى. ونستك. مكتبة بريل/ ليدن سنة ١٩٣٦ لندن.

تاسعاً: المقالات والمجلات:

٦٦ ـ مقال، ذكر الله: للدكتور الحسينى أبو فرحة. نشر بمجلة الزهراء. تصدرها كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات. جامعة الأزهر. مجلة حولية سنة ١٩٨٢.

٦٧ ـ مقال: جنات واعظة: للدكتور الحسينى أبو فرحة. نشر بمجلة الأزهر سنة ١٩٦٣.

٦٨ ـ مقال عن «الصبر» للشيخ الجبالى. نشر بمجلة نور الإسلام. عدد رمضان سنة ١٣٤٩هـ.

عاشراً: مصادر عامة

٦٩ ـ الإسلام يتحدى: وحيد الدين خان. المختار الإسلامى. القاهرة.

٧٠ ـ الإسلام عقيدة وشريعة: للشيخ محمود شلتوت.

٧١ ـ الإعلام.

٧٢ ـ الاقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع.
٧٣ ـ الإسلام فى عصر العلم: محمد أحمد الغمراوى. مطبعة السعادة القاهرة.
٧٤ ـ اعرف نفسك: كتاب الشعب. تأليف يوستاف قشر.
٧٥ ـ الله والكون: لمحمد جمال الدين الفندى. الهيئة العامة للتأليف. القاهرة.
٧٦ ـ الله يتجلى فى عصر العلم: تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين. ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان. مؤسسة الحلبى. القاهرة.
٧٧ ـ الإنسان لا يقف وحده: تأليف رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك. ترجمة محمد صالح الفلكى. بعنوان «العلم يدعو للإيمان».
٧٨ ـ الله والعلم الحديث: للأستاذ عبد الرازق نوفل: دار الجيل. القاهرة.
٧٩ ـ الإنسان والطاقة: للأستاذ على كامل الحمامصى. دار المعارف. مصر.
٨٠ ـ البر والصلة: رسالة ماجستير. مخطوطة. لعتيقة نور على الأنور بكلية البنات الإسلامية.
٨١ ـ تاريخ الحياة: محمد كامل سند. الهيئة المصرية العامة للتأليف.
٨٢ ـ تفصيل النشأتين: للراغب الأصفهانى. المطبعة العربية. بالقاهرة.
٨٣ ـ ثروات من البحار: للأستاذ أنور عبد العليم. دار الكتاب العربى. القاهرة.
٨٤ ـ جامع العلوم فى اصطلاحات الفنون: تأليف القاضى عبد النبى الأحمد فكرى. منشورات مؤسسة الأعلى للمطبوعات. بيروت.
٨٥ ـ الحواس فى الإنسان والحيوان: لوراس ميلين. مارجير ميلين. ترجمة ثابت قصبجى. المؤسسة الوطنية للطباعة. بيروت.

٨٦ ـ دلائل الحق فى عظمة الخالق: للأستاذ عزت محمد خيرى. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة.
٨٧ ـ روح الدين الإسلامى: للأستاذ عفيفى عبد الفتاح طباره. ط دار العلم للملايين.
٨٨ ـ زاد المعاد : لابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية. بيروت.
٨٩ ـ الشخصية بين الانحراف والسواء: للدكتور مصطفى فهمى.
٩٠ ـ الشكر لابن أبى الدنيا.
٩١ ـ الصبر فى القرآن الكريم: للدكتور يوسف القرضاوى.
٩٢ ـ صفة الصفوة.
٩٣ ـ عالم الفكر. تكنولوجيا بيولوجية: للأستاذ عبد المحسن صالح.
٩٤ ـ عبقرية الصديق: للأستاذ عباس العقاد.
٩٥ ـ العلم فى دنيانا: ترجمة زكريا فهمى. وسيد رمضان هداره. دار النهضة العربية. القاهرة.
٩٦ ـ العلاج بعسل النحل: د. محمد نزار الدقر. المكتب الإسلامى بيروت.
٩٧ ـ العلم ومشكلات الإنسان المعاصر: للأستاذ زهير الكومى. عالم المعرفة رقم ٥ الكويت.
٩٨ ـ غرائب فى مملكة الحيوان: للأستاذ صبرى القبانى.
٩٩ ـ الفكر الإسلامى والمجتمع المعاصر: مشكلات الأسرة والتكافل للدكتور محمد البهى.
١٠٠ ـ فى أعماق الفضاء: للأستاذ عبد الحميد سماحة. وكيل مرصد حلوان.
١٠١ ـ الفيزيقا. للصف الثانى الثانوى: تأليف الأستاذ محمد عبد المقصود النادى.

١٠٢ ـ قصة الإيمان: للشيخ نديم الجسر. توزيع دار العربية.
١٠٣ ـ القرآن والعلم: للأستاذ أحمد محمود سليمان.
١٠٤ ـ القرآن وإعجازه العلمى: للأستاذ محمد إسماعيل إبراهيم. دار الفكر العربى. القاهرة.
١٠٥ ـ كوكبنا النابض بالحياة: للأستاذ محمد سعيد النقاعى. دار النهضة مصر. القاهرة.
١٠٦ ـ لغة الحيوان: للأستاذ يوسف عز الدين.
١٠٧ ـ المستطرف فى كل فن مستظرف: للشيخ شهاب الدين أحمد الابشيهى.
١٠٨ ـ المنطلق: للأستاذ لبيب بيضون.
١٠٩ ـ المجتمعات الحشرية.
١١٠ ـ مختصر منهاج القاصدين.
١١١ ـ منهج القرآن الكريم فى إثارة الأرض وعمارتها. مخطوط رسالة ماجستير. إعداد فريد مصطفى سلمان، بمكتبة كلية أصول الدين بالقاهرة.
١١٢ ـ النشأة الأولى: للأساتذة أحمد كنعان، محمد كمال شرشر الوكالة العامة للنشر. دمشق.
١١٣ ـ نظرات فى القرآن الكريم: للشيخ محمد الغزالى.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهـــداء	
المقدمـــة	أ
البـــاب الأول	ب - ج
الفصل الأول	
١- بيان حقيقة الشكر لغة	٧ ـ ١٠
٢- بيان حقيقة الشكر شرعا	١٠ ـ ١٤
٣- المقارنة بين الشكر وكل من	١٥ ـ ١٧
- الحمد والمدح والثناء	
- اقسام الحمد	١٨ ـ ٢٥
- خلاصة المقارنة	٢٦ ـ ٢٧
٤- الشكر المحمود والشكر المذموم	٢٨ ـ ٣٣
الفصل الثاني: أمهات النعم التى يشكر الله عليها	
أ- نعمة الايجاد «خلق الانسان»	٣٧ ـ ٦٣
ب - نعمة الامداد «بالنعم النفسية»	٦٤
١- نعمة خلق الجهاز الهضمي	٦٥ ـ ٧٩
٢- نعمة خلق الدورة الدموية	٨٠ ـ ٩٣
٣- نعمة خلق الجهاز التنفسى	٩٤ ـ ١٠٢
٤- نعمة خلق الجهاز العصبي	١٠٣ ـ ١٠٤
٥- نعمة خلق العظام	١٠٥ ـ ١٠٩
٦- نعمة خلق الاذنين	١١٠ ـ ١١٩
٧- نعمة خلق العينين	١٢٠ ـ ١٢٥
٨- نعمة خلق الأنف	١٢٦ ـ ١٢٩

الموضوع	الصفحة
٩- نعمة خلق اللسان	١٣٠ ـ ١٣٤
١٠- نعمة خلق اليد والقدم	١٣٥ ـ ١٣٦
١١- نعمة خلق الصحة العامة	١٣٧ ـ ١٣٨
١٢- نعمة خلق العقل	١٣٩ ـ ١٤٦
١٣- نعمة خلق الدين	١٤٧ ـ ١٦٠
١٤- نعمة خلق الزوجة الصالحة	١٦١ ـ ١٧٠
١٥- نعمة خلق الأولاد	١٧١ ـ ١٧٤
جـ- نعمة الإمداد بالنعم الآفاقية.	١٧٥
١- تسخير الأرض والجبال والأنهار والبحار	
أ- تسخير الأرض	١٧٧ ـ ١٧٩
ب- تثبيتها بالجبال	١٨٠ ـ ١٨٣
- حديث العلم عن ابداع الله عز وجل في خلق الارض المسخرة لنا	١٨٤ ـ ١٨٨
- تسخيره جميع مافي باطن الارض لنا	١٨٩ ـ ١٩٠
- خلقه فيها قوة الجذب لما عليها وما يحيط بها	١٩١ ـ ١٩٣
جـ - تسخير البحار والأنهار	١٩٤ ـ ٢٠١
- من خواص الماء تلطيف الجو	٢٠٢ ـ ٢٠٣
- الماء عنصر رئيسي في تركيب النبات والحيوان	٢٠٤
- تسخير البحار والانهار لحمل السفن	٢٠٥ ـ ٢٠٦
- تسخير مافي البحار والانهار من لحم طري	٢٠٧ ـ ٢٠٨
- تسخير مافي البحار من المعادن واللآلىء وغير ذلك	٢٠٩
- استخدام الماء في توليد الطاقة والاستشفاء	٢١٠ ـ ٢١١
٢- تسخير الليل والنهار	٢١٢ ـ ٢١٨
٣- تسخيرانواع المزروعات	٢١٩ ـ ٢٢٧
٤- تسخير الحيوانات	٢٢٨ ـ ٢٤١

الموضوع	الصفحة
٥- تسخير النار	٢٤٢ ـ ٢٤٤
٦- تسخير الشمس والقمر والكواكب والنجوم	٢٤٥ ـ ٢٥٣
٧- تسخير الحفظة لحفظ الانسان	٢٥٤ ـ ٢٥٦
الباب الثاني:	
في السبب الصارف للكثير من الناس عن الشكر ومايجذبهم الي الشكر ودرجات الشكر	٢٥٩ ـ ٢٦٤
الفصل الأول: السبب الصارف للكثير من الناس عن الشكر	
الفصل الثاني: مايجذب الناس إلى الشكر	٢٦٧ ـ ٢٧١
الفصل الثالث: درجات الشكر بحسب أنواعه	
أ- شكر اللسان	٢٧٥ ـ ٢٨٠
ب- شكر الجنان	٢٨١
جـ- شكر الأركان	٢٨٢ ـ ٢٨٦
الفصل الرابع: في درجات الشكر بحسب الشاكرين	
أ- شكر العوام «شكر الصالحين»	٢٨٩ ـ ٢٩٦
ب- شكر الخواص «شكر الصوفية والصحابة»	٢٩٧ ـ ٣٠٢
جـ- شكر خواص الخواص «شكر الانبياء».	٣٠٣ ـ ٣٠٧
١- شكر آدم عليه السلام..	٣٠٨ ـ ٣١٠
٢- شكر نوح عليه السلام..	٣١١ ـ ٣١٢
٣- شكر ابراهيم عليه السلام..	٣١٣
٤- شكر موسي عليه السلام..	٣١٣ ـ ٣١٤
٥- شكر داود عليه السلام..	٣١٥ ـ ٣١٦
٦- شكر سليمان عليه السلام..	٣١٧ ـ ٣١٨
٧- شكر لقمان عليه السلام..	٣١٩ ـ ٣٢٠
الباب الثالث: تعدد الشكر بالنسبة للمشكور	

الموضوع	الصفحة
١- شكر الانسان لله	٣٢٣
٢- شكر الانسان للانسان	٣٢٥ ـ ٣٣١
الباب الرابع: الكفر بالنعم ومايترتب عليه	٣٣٤
تعريف كفر النعم لغة وشرعا.	٣٣٥
١- اصحاب الجنة	٣٣٦ ـ ٣٣٧
٢- جنتا سورة الكهف	٣٣٨ ـ ٣٣٩
٣- جنتا سبأ	٣٤٠ ـ ٣٤١
٤- جنة عاد	٣٤٢
٥- القرية التى كانت آمنة مطمئنة فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف	٣٤٣ ـ ٣٤٤
الباب الخامس: ثمار الشكر	
الفصل الأول: الثمار الدنيوية للشكر	
١- الشكر يحفظ النعم من الزوال.	٣٤٩ ـ ٣٥١
٢- الشكر يزيد النعم	٣٥٢ ـ ٣٥٣
٣- الشكر يسعد الانسان في حياته	٣٥٤ ـ ٣٣٥
الفصل الثاني: الثمار الأخروية للشكر	٣٥٩ ـ ٣٦١
الباب السادس: مقارنة بين الصبر والشكر.	
الفصل الأول: تعريف الصبر لغة وشرعا	٣٦٧
الفصل الثاني: الصبر من أبرز الأخلاق القرآنية	٣٧٠ ـ ٣٧٣
الفصل الثالث: درجات الصبر.	٣٧٧ ـ ٣٨١
الفصل الرابع: ثمرة الصبر وفضله.	٣٨٥ ـ ٣٩١
الفصل الخامس: أثر الصبر في تكوين الفرد والمجتمع	٣٩٥ ـ ٤٠١
الفصل السادس: اجتماع الصبر والشكر.	٤٠٥ ـ ٤١٠
الفصل السابع: ايهما أفضل الصبر أم الشكر	٤١٣ ـ ٤١٥
المصادر والمراجع	٤١٩ ـ ٤٣١
الفهرس	